باراسيكولوجي

ساره العبادى

باراسيكولوجي

ساره العبادي
تدقيق لغوي سكون لخدمات الكتب
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: 2019/2141

دار فصلة للنشر والتوزيع
٧٧ ش - صلاح الدين عبد الكريم - متفرع
من عثمان محرم - هرم - جيزه
.٢٣٥٦٢٩٣٦٩
fasla,pub@gmail,com
FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

باراسيكولوجي

رسالة من العالم الآخر

ساره العبادى

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إهداء

إلى كل من أدرك حافة الهاوية حتى أوشك على السقوط فقاوم حتى أدركت روحه النجاة

إلى كل من يسقط ناعساً في فراش اليأس ويستيقظ آملاً في رحمة الله

سارة العبادي

(١)
سيلينا

لا تلقوا باللوم دائماً على الشيطان فبعض أفعال البشر تجعل الشياطين تتوارى أسفاً وخجلاً

سبتمبر ١٩١٥

انسابت رائعة تشايكوفسكي من أفئدة عازفي الفرقة الموسيقية قبل أن تنساب من بين أناملهم لتنسكب على الأوتار إبداعاً يداعبها في رقة مصدراً أجمل الألحان وأروعها على وجه الأرض، التف الحاضرين من حولهم وكأن على رؤوسهم الطير؛ مشدوهون؛ ينصتوا بشغف إلى سحر الأنغام حتى أن بعضهم كان يتبادل الحديث همساً خوفاً من اختراق قدسية اللحن الرائع بلغو الحديث فيقوم عن غير قصد بتجاوز الجدار السميك لهالة التجلي التي أحاطت مؤديي الموسيقى فعزلتهم عن كل ما يحيط بهم من أشياء وأشخاص وجعلتهم يرسمون بموسيقاهم لوحة مرئية تراها القلوب قبل أن تسمعها الآذان.

على أعتاب الحديقة الغناء الشاسعة التي احتلت جوانبها أشجار الموالح اليانعة رغم اقتراب الخريف وافترشت زواياها النباتات العطرية النادرة التي ازدهرت فأضفت على المكان من حولها لمسة عطر حانية من صنع الخلاق عجز السياج الحجري الذي يحيط بأطرافها عن الوقوف حائلاً بينها وبين انتشار شذاها؛ هناك وقف البارون بقامته القصيرة وشاربه الكث وشعره الأسود اللامع الذي تراجعت خصلاته الطويلة نسبياً إلى ما قبل منتصف رأسه بقليل بجواره زوجته الشقراء ذات الملامح الفاتنة والعيون الزرقاء الآسرة يرحبان بضيوفهما من صفوة المجتمع المصري والأجنبي على حد سواء اللذين اعتادا استقبالهما في حفلات ذات طابع كلاسيكي راق بين الحين والآخر بقصرهما الأسطوري منذ أن قام البارون بتشييده منذ عدة سنوات على أيدي أمهر المهندسين الإيطاليين والبلجيكيين فاستغرق بناءه منهم خمس سنوات ليقوموا بإخراجه تحفة معمارية فنية لا مثيل لها بالعالم امتثالاً لرغبته حين شرع في بناءه بعد أن قام بشراء هذا التصميم المعماري الفريد من فنان فرنسي فخرج للنور مزيجاً رائعاً من فن العمارة الأوروبي وفن العمارة الهندي متوسطاً واحة خضراء بمساحة ستة أفدنة على ربوة عالية شرق القاهرة في قلب الصحراء حيث يمتزج صفاء الجو بنقاء الهواء عند منتصف تلك الربوة فلا يشق سكون الليل بهذه المنطقة النائية بباطن الصحراء سوى صوت الألحان الموسيقية الكلاسيكية التي تنبع من قلب القصر.

كان البارون يلتزم مكانه المفضل بأولى درجات السلالم الرخامية الضخمة المؤدية إلى مدخل القصر بجوار قاعدة رخامية عريضة كبيرة الحجم ارتكز بمنتصفها تمثالاً هائلاً من الرخام الأبيض لأحد فرسان الرومان يقف في شموخ شاهراً سيفه في اعتداد وتحت قدمه رأساً مقطوعاً لأحد ضحاياه بالمعركة وكأن البارون بموقعه هذا يرغب

لذلك الفارس النبيل بأن يشاركه شرف الترحيب بضيوفه من علية القوم.

على بعد عدة درجات من الفارس المغوار كان هناك آخر يمتطي ظهر جواده ويرتكز على قاعدة رخامية أخرى ومقدمة رأس جواده تشير باتجاه القصر وكأن وجوده هكذا مرحلة متقدمة من مراحل الترحيب بالزائرين تقودهم إلى الداخل مباشرة.

من أكثر اللحظات التي يتمتع بها البارون بحياته ويثلج بها فؤاده حين يلمح بريق الانبهار العارم يعلن عن نفسه ويطل جلياً من نظرات زائريه ومرتادي قصره المنيف؛ فلا يخفى على ناظريه حركة الرؤوس وهي تستدير خلسة تتفقد بواطن الروعة بالمكان بتمعن فتزوغ النظرات بين تماثيل المرمر الرائعة التي تصور رقصات خلابة أتت بسحر الهند في تفاصيلها وفرسان حملوا قوة الرومان وأساطيرهم كما يحملون هذه السيوف التي يشهرونها في اعتداد وأفيال من العاج ترتفع هذه النوافذ المرصعة بقطع صغيرة من الزجاج البلجيكي الملون على أنيابها وحيوانات أخرى أسطورية لم يسمع عنها أياً من الحاضرين في حضاراتهم ولا يعرفون لها أسماءً، لكن يجدونها هنا تتكأ على جدران القصر وتنتشر بها وقد استلهم هو تفاصيلها من معبد أنكور وات بكمبوديا ومعابد أوريسا الهندوسية.

غالى في إبداعه وقام بتشييد برجاً عالياً يقع بغرب القصر يتكون من أربعة طوابق يربطهم ببعضهم البعض سلماً حلزونياً تتحلى جوانبه الخشبية بالرخام وعلى درابزين السلم ارتسمت نقوشاً بارزة من الصفائح البرونزية مزينة بتماثيل هندية دقيقة النحت، وأراد أن يبالغ في مظاهر الإبداع ليفوق خيال كل الناظرين فجعل هذا البرج الذي ارتكزت قاعدته على رولمان بلي يدور دورة كاملة كل ساعة ليتيح للماكث به مشاهدة كل ما يقع حوله من جميع الاتجاهات وهذا المكان تحديداً هو المفضل له لتناول الشاي يومياً بأوقات الغروب

كانت نفسه تمتلئ بالزهو حين يلمح الأعناق تشرئب لتتفحص القبة الطويلة المحلاة التي تضاهي بحلاوة صنعها مثيلاتها بالقصور والأضرحة الهندية بمومباي والتي زينتها تماثيل بوذا المتقنة لتجبر الأعين على الانتقال عبر حدود الزمان والمكان لتعبر المحيط الهندي بمخيلتك متوجهاً لبلاد السحر والجمال التي خلبت عقل البارون ذات يوم فذاب عشقاً في أساطيرها ودفعته ليستحضر كل ما رأته عينه من عظمة الإبداع الفني هناك ليقوم بتجسيده في كيان معماري يكون مقراً دائماً لإقامته ويحمل اسمه بعد مماته منذ أن وقع في غرام أرض الكنانة وقرر البقاء بها ما طال له من أمد حتى إذا ما مات وارى جثته تراب مصر كما أوصى بكنيسة البازيلك على بعد عدة كيلومترات من قصره ومن أجل ذلك الغرض جعل أحد سراديبه يمتد مباشرةً إلى باحتها.

ومن أجل تحقيق حلمه الغالي بزرع حياة جديدة في قلب الصحراء بذل جهوداً ضارية لإقناع الحكومة المصرية بإعمار هذه الضاحية لتزداد أعداد مرتادي المنطقة التي أطلق عليها هليوبوليس ليسكن مدينة الشمس كما عنى بالإسم الذي أسماه إياها أبناء الطبقة الأرستقراطية الراقية والجاليات الأجنبية المختلفة، ومن أجل ذلك أيضاً عمل على إنشاء خطاً للمترو كالذي أنشأه من قبل في باريس ليربط ضاحية الأغنياء بباقي ضواحي قاهرة المعز.

أخيراً انضم إدوارد وألكسندرا لصفوف المدعوين بعد أن تأكدا أن قائمة ضيوفهما قد اكتملت بالحضور حين ظهر سفير دولة بلجيكا بمصر على مشارف بوابات القصر فلحقا به بعد أن احتفيا بقدومه ثم أخذا يتفقدان أمر ضيوفهما بالداخل ويشرفا بنفسيهما على صواني المشروبات التي يحملها الخدم ويدورون بها في دوائر واسعة حول الطاولات التي كستها المفارش الذهبية الفخمة المطرزة بخيوط السيرما الهندية.

تفقدت ألكسندرا صنوف الطعام الفاخرة المتراصة على المائدة المستطيلة الممتدة بطرف الحديقة بموقع ليس ببعيد عن طاولات المدعوين والتي يزيد طولها عن عشرة أمتار وقد غطى وجهها مفارش من المخمل الناعم وتلتها أيضاً طاولة أخرى أقل منها طولاً تكدست على سطحها عشرات الأصناف من الحلويات الغربية والتركية.

كانت كل مظاهر الحفل تشي بالفخامة والثراء وذلك ليس بغريب على حفلات مليونير كالبارون إدوارد وفي الوقت الذي كان جميع الحضور يحظون باهتمام وعناية البارون وزوجته كانا هناك شخصين انزوا في الظل وتواريا عن الأنظار؛ فقد اختارت آنيتا ابنة البارون أن تصحبها مربيتها دي مورييه إلى غرفتها بالأعلى فلا مكان لها بأجواء الحفل الصاخبة بالإضافة إلى كم النظرات النارية التي ترمقها بها أمها حين تلمح تسللها إلى الأسفل ففضلت أن ترقب الحفل من أعلى تفادياً لاستعار نظرات أمها بوجهها.

أما البارونة سيلينا أخته فكانت كالعادة تبدو كالوردة الذابلة التي غفل راعيها عن سقيها فجفت منابتها وتشققت حتى أوشكت أوراقها على السقوط.

كان العامل الأساسي لذبول روحها هو موت زوجها الذي كان يكبرها بما يزيد عن عشرين عاماً فاضطرت عقب ذلك إلى ترك قصرها بأنتويرب لتنتقل بالعيش مع أخيها الذي تعامل معها كما يتعامل مع مقتنياته الثمينة، كعادته يبذل الغالي

والنفيس من أجل اقتناء إحداها حتى إذا ما صارت ملك يمينه زهد بها وأودعها إحدى خزائنه أو يقوم بتعليقها بلا اهتمام على أحد الجدران؛ كذلك فعل معها؛ ظل يلح عليها حتى لا تحيا بمفردها على بعد آلاف الأميال عنه خاصة أن والديهما كانا قد فارقا الحياة منذ سنوات فألح مراراً وتكراراً وذرع الطريق ما بين مصر وبلجيكا ذهاباً وإياباً حتى يقنعها بالعدول عن فكرة البقاء وحدها وعرض عليها استثمار أموالها في مشاريع ضخمة بمصر لكنها بمجرد أن أذعنت لرغبته وجدت نفسها كماً مهملاً في غياهب قصره الشاسع ولما أعرضت عن الزج بأموالها في استثمارات لا تفقه من أمرها شيئاً كان للنسيان مصيرها وأصبح التجاهل هو السمة الأساسية للتعامل معها من قبله هو وزوجته فأصبحت لا تغادر غرفتها إلا لتناول الطعام فقط، ودون ذلك تقبع بها للقراءة أو الرسم تغالب بهما وحدتها القاسية المقيدة بأعلى أحجار الجدران الباردة.

أثقل الملل كاهل سيلينا فقررت أن تعفي نفسها أخيراً من عبء التكلف بالانضمام لحفل لن يعني أي شخص به بوجودها من عدمه فقامت عن مقعدها وأدارت ظهرها لكل مظاهر الاحتفال مفضلة عليها حجرتها الخاوية من أي مظاهر للبهجة أو للحياة.

توقفت فجأة وتجمدت بمكانها؛ تصلبت أطرافها عاجزة عن الحركة حين شق أسماعها عزفاً منفرداً على الكمان زلزل كيانها وضاعف الشرخ الذي تعاني منه روحها أضعافاً، عادت أدراجها واقتربت بخطى حثيثة باتجاه ذاك اللحن الذي جعل أحزانها تثور على قيد نفسها فتخرج من محبسها محركة الدموع المتجمدة بمقلتيها والتي اشتاقت وجنتيها كثيراً لملمسهم، لم تحاول الاقتراب أكثر وكأنها تخشى أن يمس ذلك العازف شغاف جراحها بنفسه فيتحرر حزنها كمارد قابع في أعماق مصباح قامت بأسره به متمرداً على سجنه الأبدي الذي اختارته له منذ زمن.

بمجرد أن أنهى لحنه الشجي وجدت الدموع طريقها إلى طرفي عينيها وألهبت كفيها موجات التصفيق العارمة التي اجتذب أذنيه وسط هذا الكم من الجمود والتعالي الذي يتعامل به أبناء الطبقات العليا مع أمثاله فالتفت إلى مصدر التصفيق المتواصل ليلمح بنفسه التماع الدموع بعينيها قبل أن تتلاقى نظراتهما.

خجلت من نفسها لتركها العنان لمشاعرها المكبوتة فأمسكت بطرفي ثوبها الوردي بكلتا يديها ترفعه عن الأرض اجتنابا لفرصة التعثر بأطراف ذيله الطويل ودارت حول القصر من الناحية الخلفية متحاشية الاصطدام بتلك النظرات الفضولية لأحد الحضور والتي من الممكن أن تكون قد لمحت لحظات ضعفها فتقوم بتتبعها

مخترقة جدار خصوصيتها.

صبت جامات غضبها على مشدات الجسم الضيقة التي يجبرها الانخراط في مثل تلك المظاهر الاجتماعية على ارتدائها حتى يبدو خصرها أنحل ما يكون إمعاناً في إضفاء مظاهر الرشاقة على فتيات وسيدات المجتمعات الراقية.

حاولت اختصار أنفاسها التي ضاق بها صدرها بفعل مشد الخصر هذا وأسرعت من خطاها حتى كادت أن تتعثر وتقع بفعل ثوبها الواسع الفضفاض من أسفل والذي بالغت من حاكته لها في إضفاء طولاً عليه حتى تتمكن الجيبونات الداخلية المصنوعة من السلك وطبقات التل المضاعفة من إضفاء مظهراً مقعراً عليه تمام كمظللات المطر حين تنفرد جوانبها عن آخرهم.

قبل أن تنثني قدمها بهذا الحذاء ذو الكعوب العالية فيلتوي كاحلها على أفضل الفروض كما توقعت وجدت يداً تسند مرفقها لتدفعها برفق إلى أعلى حتى استوت وقفتها مرة أخرى، استدارت تتبين شخصية هذا المنقذ المجهول فتجمدت ملامحها وتصلبت أطرافها للمرة الثانية وبفضل نفس الشخص؛ فإذا كانت الأولى بفعل روعة ألحانه فالمرة الثانية بسبب تتبعه لها في الخفاء دون أن يحاول لفت انتباهها.

لم يسعفها عنصر المفاجأة من اتخاذ ردة الفعل المناسبة ولم تدر فعلاً إن كان من الواجب عليها أن تشكره على إنقاذه إياها من خطر السقوط أم تقوم بنهره لأنه تبعها إلى ذلك المكان القصي من الحديقة الخلفية للقصر والتي لم يكن بها أحداً من مرتادي الحفل أو حتى من الخدم الذين باتوا كخلية نحل نشيطة لا تتوقف عن الحركة لكن في نطاق محيط الحفل ليس إلا؛ حتى بداخل القصر لم يعد يتواجد منهم فعلياً إلا بعض الطباخين ومربية آنيتا فقط لا غير.

طال صمتها غير مدركة بأي الكلمات ستشق هذا الصمت وبأي مقابل ستقابل إقدامه على تصرفه الجريء هذا فأعفاها هو من مهمة الاختيار وبادر بالحديث مطرقاً رأسه خجلاً: معذرة يا آنستي أنا أعلم أنك تستنكرين عليي فعلتي هذه لكني بالفعل لا أدرك ما الذي دفعني لتتبعك بعد أن رأيتك بالحفل

أدركت من لغته الفلمنكية أنه من سكان سواحل بلجيكا مثلها فشعرت بشيئاً مشتركاً يجمعهما لكنها مع ذلك آثرت الصمت فوجدته يتصبب عرقاً من عارم حرجه وهو يعتذر للمرة الثانية: آسف مرة أخرى يا آنستي ولكي كل الحق إن رفعتي يدك لتصفعيني على وجهي عقاباً لي على تبجحي معك وتجاوز كل المسموح به لكن أقسم لكي أني لا أدرك سبباً منطقياً جعلني أتبعك سوى أن شيئاً أقوى من

نفسي أرغمني على ترك مقعدي بالفرقة بمجرد أن فرغت من لحني لألحق بك دون أن أعرف من تكونين ولا لماذا أنا بتابعك

كان صادقاً في قسمه فإن كذب لسانه لن تقوى هاتين العينين الرماديتين الصادقتين على الكذب، تأملت وجهه الوسيم في سنا القمر الذي لم يكتمل بعد لكن وهن ضياءه الوليد لم يمنعها من تبين لون خصلات شعره البنية الناعمة وجبهته العريضة التي انحدر من أسفل منتصفها أنفاً مستقيماً متناهية الدقة بطرفها تلاها شفتين دقيقتين يعلوان ذقنه المربعة.

شعرت أن عدد ضربات قلبها قد ازداد أضعافاً مضاعفة بالثوان الأخيرة ولم تكن ملامحه الوسيمة هي السبب ولا حتى لحنه الشجي الذي حرك أحزانها من مرقدها وإنما تلك النظرة التي يرنو بها إليها، نظرة قد نستها أو تناستها وأقنعت نفسها أنها لم تعد بحاجة إليها.

قامت بخداع نفسها حين أوحت إليها ذات يوم بأن احتياجنا للشعور بأن هناك من يهتم لأمرنا رفاهية لا يحق للجميع امتلاكها في الوقت الذي يعد فيه حاجة أساسية من احتياجاتنا المعيشية التي تبقينا على قيد الحياة ولا يمكن الاستغناء عنها، فكما هو من المهم أن نحب من الأهم لنا أيضاً أن نشعر أن هناك من يحبنا ويرغب في البقاء بالقرب منا.

أخطأت بحق نفسها كثيراً حين أقنعتها بأنها قد أوتيت نصيبها من الحب كاملاً بزواج غير موفق دام سنتان وانتهى بموت زوجها ليتركها بمقتبل العشرينات؛ أرملة؛ شابة؛ ثرية؛ جميلة؛ وقبل كل هذا وذاك وحيدة.

لم تكتفي بتلك النظرة ولم يرتوي ظمأ نفسها التي عانت سنوات طوال من الجدب والجفاف ورغبت بغمر روحها العطشة إلى الحب بالمزيد، ابتسمت له بخجل وهي تقول بصوت على الرغم منها خرج واهناً: لا عليك سيد .....؟؟

مد يده على الفور يصافحها وهو يقول بلهفة حقيقية: آرثر .. جابرييل آرثر

وكأنها كانت تنتظر تلك الفرصة لتمد أناملها معانقة تلك الأنامل الذهبية التي تعزف على أوتار القلوب قبل أن تدق أوتار الكمان فمدت كفها الرقيقة باتجاهه وهي تنظر إلى عينيه ودون ذرة تردد قالت: دي مورييه .. مربية الآنسة آنيتا ابنة البارون

لم تندهش من سرعتها في ادعاء كونها شخصاً آخر غير شخصها وما الغريب في ذلك

أليست هذه رغبتها طوال حياتها أن تنسلخ عن حياة القصور المترفة لتعيش حياة بسيطة لا تتكلف فيها عناء ارتداء المشدات السخيفة ولا الكعوب العالية التي تجعل ظهرها يأن وقدماها تتأذى، ثم ما يدريها لعلها إن أفصحت عن شخصيتها الحقيقية وعرفته بنفسها على أنها البارونة سيلينا أخت صاحب هذا القصر بادر هو بالفرار من أمامها على الفور خشية أن يلمحه أخيها منفرداً بها في هذه البقعة النائية فيبطش به ويكون سبباً لطرده من فرقته ومنعه من ارتياد القصور بمثل هذه الحفلات، فأخيها ذو بأس شديد وعلاقاته بصفوة المجتمع تمتد إلى السلطان حسين كامل سلطان مصر فلا ضرر من إخفاء أمراً لا يعني أحداً لكنه يثقل نفسها هي بالأعباء.

لمست بنفسها ارتياحاً اعتلى قسمات وجهه حين بدا له أنها وبالرغم من مظهرها المترف لا تعدو كونها أحد العاملين بالقصر وليست كما خشي أن تكون زوجة أحد المدعوين بالحفل.

حين اطمئن قلبه أطلق العنان لبصره يتأمل ملامحها الرقيقة الناعمة بارتياح؛ جال بنظراته في تفاصيل وجهها الذي مال إلى الاستطالة وزاد من استطالته أن قامت بضم خصلات شعرها ورفعتها مجتمعة إلى الأعلى كعادتها منذ أن مات زوجها فلم تعد تطلق سراحها لتنسدل على كتفيها قط، كانت عيناها واسعتان؛ عميقتان؛ شديدا السواد؛ ينافس سوادهما دجنة الليل الذي أحاط بضياء القمر فبدا المشهد متناقضاً مع هذا الكم من الظلمة التي تحتضن سناه تماماً كحال تلك الخصلة البيضاء في مقدمة شعرها الأسود الفاحم والتي زحف الشيب بها لا كعلامة على تقدم السن وإنما لعوامل وراثية بحتة أو لعلها هموم الحياة التي أثقلت روحها في سن مبكرة بزواج تعس هي ما عجلت بظهور هذا الشيب في أوائل العشرينات من عمرها، ولعل تلك الخصلة البيضاء مع لمعة الدموع بعينيها هو ما استفز فضوله ليتبعها.

اعتلت وجنتيها حمرة خجل شديدة وتلمس هو ذلك الخجل في نفسه قبل أن تتدفق الدماء لشعيراتها الدقيقة فالموقف كان محرجاً لكليهما فخفض من صوته يخاطبها على استحياء: أتمانعينني في طلب التنزه معك قليلاً في ضوء القمر.. الليلة تبدو ساحرة بكل تفاصيلها

أومأت برأسها في استسلام ثم تداركت سريعاً: لكن أرجوك ابتعد عن صخب الحفل فلا أرغب بأن يراني البارون أو زوجته فيطلبوا مني مرافقة الصغيرة آنيتا إلى فراشها

أومأ برأسه دون تردد فهذا جل ما يطمح إليه أن يبقى بجوارها بعيداً عن ضجيج

أي مظهر من مظاهر الحياة فمظاهر الحياة التي دبت بقلبه تغنيه عما سواها من مظاهر زائفة.

كان الجو من حولهما رائعاً؛ هكذا يكون سبتمبر؛ ضيف خفيف الظل؛ صباحه مشمس دافئ دون حرارة تلهب الوجوه ومساءه ساحر ناعم ذو نسمات رقيقة تخلب العقول.

تبعت خطواته بخطواتها المتمهلة حتى لا تلحقه فتبدو وكأنها تسير إلى جواره فحتى هذه اللحظة لا تستطيع أن تأمن أستار الليل وما قد تخفيه من أعين المتلصصين.

وجدته يتوقف بخطواته في قبالة كشكاً خشبياً بالباحة الخلفية للقصر خصص لعازفي الآلات الموسيقية أمثاله قبل أن يقوم البارون باختصاص الحديقة الأمامية بمثل هذه الحفلات وأعفى الأكشاك سداسية الأعمدة بالخلف من تلك المهمة.

لمحت في يده اليسرى حقيبة جلدية سوداء لم تكن قد التفتت إليها من قبل ورجحت أنه كان يحملها معه طوال الوقت لكن رؤيتها المفاجأة له جعلتها تجفل وجودها، عندما دلف إلى الكشك الخشبي رنت بنظراتها إلى الأرض خجلاً واستجمعت شجاعتها قبل أن تطلب منه على استحياء أن يعيد على أسماعها معزوفته الحزينة مرة أخرى فلمعت عيناه ظفراً وكأن ذلك قد وافق رغبته في التعبير عن مكنون نفسه بمداعبة أصابعه لأوتاره الموسيقية.

أغمض عينيه وسحب قوسه لتتفاعل شعيرات القوس الناعمة مع الأوتار الأربع التي استقرت على سطح القاعدة الخشبية مطلقاً سراح نغماته الحزينة لتنبعث من أعماق الكمان مخترقة شغاف قلبها قبل أذنيها فلم تقاوم دموعها هذه المرة وتركتها تنهمر ساخنة على وجنتيها وكأنها تريح أكتافها من عبئاً ثقيلاً تحمله ولكن لا تتحمله.

انتهى من معزوفته الشجية ليجدها قد أسدلت أهدابها عن عينيها الواسعتين فوجد الفرصة سانحة ليعبر لها عما اعتمل في نفسه من انجذاب تجاهها منذ أن وقعت عينيه على ملامحها الواضحة الصريحة التي تجعل أي رجل يحدق بصاحبتها محاولاً استكشاف مواطن جمالها الغامض بالرغم من رقتها البالغة، اجتذبها من أعماق بئر ذكرياتها الحزينة بلحناً رومانسياً حالماً وكأنه يعبر عما يجيش بصدره تجاهها من مشاعر مضطربة تعتري نفسه ولم يصادف مثلها مع أي امرأة قد التقاها من قبل. كانت مسبلة الجفنين؛ تستعين بهما على إخفاء انسكاب دموعها التي لم تعد

تقوى على صد تدافعها من مقلتيها حين استفزها لحنه الناعم ففتحت عينيها ببطء لتجده ينظر إليها نظرة حلمت بمثلها كثيراً واشتاقت سنوات عمرها لتراها بعيني رجل تجاهها، نظرة لن تكون إلا لعاشق، لكن كيف؛ وهل يأتي الحب سريعاً هكذا، هي لم تصادفه من قبل وجهاً لوجه لكن قرأت عنه الكثير والكثير دون أن يستطع أحد الكتاب المخضرمين الذين ملئوا صفحاتهم بكلمات الغرام التكهن بكيفية وقوع الإنسان في الحب ولا الوقت اللازم والمستغرق في ذلك، لكن إذا لم يكن هذا حباً فما هي كنية هذا الشيء الذي يداعب قلبها الآن ويدغدغ مشاعرها ويجعلها عاجزة عن إحالة بصرها عن وجهه ويجبره هو أيضاً على ألا يحيد ببصره عنها رغم اندماجه في موسيقاه محملاً ألحانه أمانة تبليغ رسالة غالية عجز لسانه عن البوح بمكنونها.

أفرغ ما في جعبته من نغمات العشق والهيام وكأنه استدل من نظرة عينيها المطمئنة أن مفاد رسالته قد تم استقباله بالفعل ولم يعد بحاجة لمزيد من الإلماحات، فأراح الكمان في جرابه المبطن بقطيفة حمراء داكنة اللون، ثم وضع الصندوق الجلدي بحرص شديد على المقعد الخشبي المسطح بجواره وأخذ يتجاذب أطراف الحديث معها.

في البداية بدت خجلة فكانت تكتفي بكلمات معدودة لكن سرعان ما شعرت بذوبان كل الحواجز بينهما فتلاشى خجلها وأضفت أشعة القمر اللامعة على المشهد من حولهما روعة امتزجت بلمسة عطرية حانية انبعثت من النباتات المحيطة بهما.

كانت الرياح تتحرك برقة من حولهما مصدرة صوتاً ناعماً بدا كخلفية موسيقية هادئة لحديثهما الذي بدأ بخطى حثيثة ثم سرعان ما انطلقت الكلمات تركض على شفاههما فتبارى كلاً منهما في سرد تفاصيل حياته الماضية منذ اللحظة التي وهبته فيها أمه الحياة وأطلق عليه أبيه اسماً حتى تلك اللحظة التي سبقت تلاقي أعينهما سوياً.

أخبرها كيف ترك بلجيكا على متن سفينة جالت به موانئ العالم المختلفة حتى استقر به الحال بمصر أخيراً بعد أن شعر أن دفء ترابها يحتضن روحه الشاردة فوجد غاية مراده في العمل مع فرقة موسيقية الأمر الذي تمناه كثيراً لكن ضيق حاله بوطنه حمله على الفرار فوق سطح تلك السفينة وعندما أنهكته أمواج المحيطات العاتية وأدمت رئتيه البرودة والرياح القاسية بالشتاء ولوحت شمس الصيف الحارقة وجهه وألهبت جسده لم يكن له بديلاً سوى الرسو أخيراً إلى ميناء.

لم تخفي عليه أياً من تفاصيل حياتها، عدا كونها البارونة سيلينا شقيقة البارون؛ أيضاً كونها تمتلك قصراً منيفاً ببلجيكا تحيط به أراضي شاسعة تبلغ مئات الأفدنة ورثتها عن زوجها الراحل إضافة إلى ميراثها من والديها المتوفيين، فيما عدا ما رسمه لها القدر ولم يكن لها من أمرها فيه اختياراً؛ لم تغفل باقي تفاصيل حياتها الأسوأ منها قبل الأفضل.

تدافعت الذكريات تستبق لا تدري من أين تبدأ ولا إلى أين سوف ينتهي بها سيل الكلمات حتى ولو كانت تنبع من ثوب المربية دي موريه وليست سيلينا صاحبة الألقاب والثروات الهائلة، لا يهمها كثيراً كل ما عناها في الأمر أن هناك أخيراً من يستمع إلى صوت أعماقها دون أن يضجرها أن يكون على علم بحقيقة شخصها.

كان السكون يلفهما منذ البداية إلا أنهما انتبها فجأة كونه قد ازداد أضعافاً، ارتفعا حاجباه في دهشة حين أخرج ساعته البرونزية من الجيب الداخلي لسترته فقد تنبه لكون أكثر من خمس ساعات قد مروا عليه وهو بصحبتها ولم يشعر أياً منهما بالوقت إلا عندما داهمهما هذا السكون المهيب، تطلع إلى السماء فوجد أول خيط من خيوط النهار يشق منتصفها معلناً أن الليل قد ولى وأدبر وانفرطت ساعاته وهو بجوارها لا يحصى الدقائق ولا الساعات.

صدمته حقيقة أنه وحيداً دون فرقته في تلك المنطقة الغير مأهولة بالسكان وبالطبع لن يجد عربة تقله إلى مسكنه في هذه الوقت المبكرة بينما صدمتها هي حقيقة من نوع آخر؛ حقيقة أنه لم يلحظ أحد سكان القصر اختفائها من فراشها حتى مطلع الفجر وإلا إذا كان أحدهم قد تنبه لذلك وأدركه لكانت ستجد دوريات من الخدم تذرع الحديقة من حولهما ذهاباً وإياباً من أجل البحث عنها.

غرز الحزن سكينه بقلبها وشعرت بوحدة قاتلة بالرغم من كل المحيطين بها، انتابها شعوراً قاسياً أنه بالرغم من اتساع البسيطة من حولها إلا أنه لا يوجد مكاناً على سطح الأرض يتسع ليضمها ويحتويها؛ بقعة تخصها وحدها تسكن إليها فتحتضنها وتفتقدها إن هي غابت عنها وتوحش دونها.

نظرت إليه وكان لايزال في حيرة من أمر تأخره عن موعد الرحيل، ودت لو كان بمقدورها أن تعرض عليه المبيت بإحدى الحجرات الخلفية والتي قد خصصها أخيها للخدم المنتشرين بالقصر الذين يبلغ عددهم أضعاف ساكني القصر وملاكه لكن حياءها جعل عرضها لا يتجاوز قدر أمنية احتفظت بها بقلبها وإن رغبت بتنفيذها فلا أحد يعيرها اهتماماً حتى تبادله المثل.

لم تمض ثوان حتى كان قد حسم أمرهما معاً؛ حيرته وحيائها، فهب واقفاً يخبرها أنه سوف يسلك الطريق الأقرب إلى المترو وينتظر أول إشارة صباحية لانطلاقه ليقله إلى أقرب نقطة يستطيع منها بلوغ منزله.

لم يرغب في جعل أناملها الرقيقة تفلت من قبضة يده ولو كان الأمر بيده ما أفلتها عمره كله لكن ككل شيء في حياتنا له عمر بدأ لينتهي؛ انتهى عمر لقاءهما سريعاً من وجهة نظره مهما طال ومهما بلغ من الساعات ليفترقا عند الباب الخلفي لحديقة القصر على وعد بلقاءات كثيرة متتالية.

***

نسج العهد خيوطه القوية بينهما فكان عهدهما أن يعقب كل لقاء لقاءً آخر يتفقا عليه ويتدبرا أمر ميقاته قبل أن يفترقا، مرات يأتيها بالحديقة الخلفية للقصر فتترك له مزلاج بابها مفتوحاً حتى يلقاها هناك بعيداً عن الأنظار ومرات تتعلل بأمر شراء بعض الحاجيات وتستقل سيارة أخيها حتى إذا ما لاح لها المكان الذي اتفقا على الالتقاء عنده تستأذن السائق في انتظارها لمدة لن تزيد عن الساعة وتلتف من حول المكان حتى لا يلمحها ويوشي بأمرها لأخيها.

تعاقبت اللقاءات حتى صارت اعتياداً لكلاً منهما؛ روتيناً لا يمله ولا يخبت شغفه به، حتى كان اليوم الذي كان ميعادهما به بحديقة القصر الخلفية والتي تعتبر شبه مهجورة يعتني بها البستاني مرة أسبوعياً وتتجنب هي مواعدته بذاك اليوم، أما ما عدا هذا اليوم فلا أحد تحمله قدماه باتجاه تلك الحديقة نهائياً.

كان كشك الموسيقي الخشبي الذي شهد أولى لقاءاتهما وأول حديث دار بينهما مازال شاهداً على تلك القصة التي غزلت الصدفة أولى خيوط بداياتها، استرقت عمدانه السمع إلى كلمات أقرب ما تكون إلى أبيات الشعر، كلمات فاحت من طياتها رائحة الحب العطرة التي أطربت كل ما حولهما وبثت فيه الحياة حتى ولو كان جماداً يابساً، حتى جاءت اللحظة التي استوقف فيها نهر الكلمات الناعمة أمراً لم يخطر ببالهما.

فجأة لمحت خيالاً يقترب باتجاههما وميزت من قامته القصيرة وتلك العرجة البسيطة في مشيته أنه أخيها الذي لم يكن وحده لكن كان بصحبته عدداً من الرجال رجحت أن يكونوا من المهندسين الذين قد قرر الاستعانة بهم لإضفاء بعض اللمسات الفنية على القصر كما سمعته يخبر زوجته على مائدة الطعام منذ أيام.

تلاشت من أمامه في سرعة بعد أن توسلت إليه بكلمات مقتضبة أن يتبعها بخطى سريعة دون أن يلتفت خلفه ولم تمنحه الفرصة ليستفسر عن سبب انتفاضها هكذا دون أية مقدمات.

كان يسارع خطواته ليلحق بها وهي التي أسلمت ساقيها للريح تحملها باتجاه سرداب القصر وقلبها يكاد يتوقف عن النبض بين لحظة أو أخرى خشية أن يكون أخيها قد لمح أياً منهما فكان صدرها يتمزق في ألم كأنها تركض أمام كلب لاهث يتطاير الزبد من شدقيه حتى ضاقت أنفاسها وهي تحاول الفرار بأقصى سرعة خوفاً من انفضاح أمرها أمام أخيها وإلا فبما ستفسر له موقفها المشين إن هو أدرك أمر لقاءاتها المتكررة مع عازف الكمان بل ما بال عازف الكمان نفسه إن هو اكتشف أمر خداعها له طيلة الفترة الماضية وإيهامها إياه أنها مجرد مربية في هذا القصر لا أكثر.

دفعت باب أول حجرة قابلتها بطرف السرداب بكل ما اعتمل في نفسها من انفعال وهي على ثقة تامة بأنها لن تجد من يعترض اندفاعها بالداخل فهذه الحجرات خصصت للخدم لكن البعيدة منها كتلك الحجرة لا يسكنها أحد فمعظم الخدم يقطنون حجرات السرداب الأمامية من الاتجاه المعاكس حيث أنها الأقرب إلى أماكن إعداد الطعام والأفران الضخمة وكذا المغاسل الرخامية حيث أماكن عملهم وهم بحاجة إلى أن يكونوا أقرب ما يكونوا منها.

وقفت تنتظره لثوان معدودات شعرت أنها دهراً حتى كادت أن تبكي توسلاً إلى الله ألا يكشف ستر سرها الصغير الذي يخفي في طياته حباً عظيماً.

أطلقت سراح أنفاسها أخيراً عندما وجدته أمامها يتصبب عرقاً وأنفاسه تتسارع كأنه فر لتوه من حلقة للسباق، لم تكن تعرف أنها تفوقه سرعة هكذا؛ لعله الأدرينالين الذي تفرزه غدة الكظر الواقعة فوق الكلى هو ما ساهم في تضاعف سرعة خطواتها حتى تسبق أنظار أخيها ومن يرافقونه فخوفها من المجهول الذي تعرفه وتخشاه كان دافعاً لها لتتفوق على خوفه من أمراً يجهله ولا يعرف عقباه.

رجته ألا يبرح موضعه بتلك الحجرة ووعدته أنها ستعود إليه في غضون ساعة لا أكثر بعد أن تطمأن بنفسها إلى أن حركة أصحاب القصر قد هدأت بهذا الاتجاه، أغلقت الباب خلفها بحرص متجاهلة نظراته التي تحمل الكثير من علامات الاستفهام ثم حاولت أن تتمالك أعصابها وهي تعبر السرداب من الطريق المؤدية إلى داخل القصر بينما تقوم بإعداد سيناريو مفتعلاً في عقلها تدور أحداثه حول فقدانها لشيئاً

يخصها ومن ثم فإنها تقوم بالبحث عنه في خبايا القصر فذلك ما ستضطر لقوله حال إذا ما اصطدمت بأحد الخدم أو اعترضت طريقها ألكسندرا وهي تتفقد أمور المطبخ كعادتها بالظهيرة.

كانت سعيدة الحظ فلم توقع الصدفة في طريقها أياً ممن توقعت رؤياهم لكنها بمجرد أن عبرت السرداب لم تدر ما يجدر بها أن تفعل حيال هذا الموقف تحديداً فظلت تذرع الصالة الرئيسية الضخمة بالطابق الأول ذهاباً وإياباً ويداها ترتعشان من فرط الانفعال وخطواتها تكاد تتعثر في بعضها البعض فتوقعها أرضاً في أية لحظة.

تفقدت العدد الهائل من الأبواب والشرفات المصنوعة من الزجاج البلجيكي البلوري الذي يتيح لك رؤية من بالخارج دون أن يراك علها تستشف أمراً يهدئ من روعها لكنها لم تلمح ظلال أخيها ولا أياً من مرافقيه، أنهكها الانفعال حتى خارت قواها وسيطر على شق رأسها الأيمن صداعاً فاتكاً جعل تفكيرها يتشتت حتى كادت أن تصطدم بأحد التماثيل الذهبية التي تحمل الطابع الهندي والذي كان سقوطه متحطماً سيؤدي حتماً إلى جلبة عظيمة لكنها تفادت ذلك في اللحظة الأخيرة لتصطدم رأسها بآخر أصغر حجماً فآذى ذلك الارتطام رأسها المنهك أضعافاً.

للمرة الثلاثون تقريباً وقفت تتفقد الساعة الضخمة في نهاية الردهة وتتفحص تفاصيلها العديدة التي يتوه المرء بها علها تخجل من نظراتها الموجهة إليها وتدفع بالوقت من طرفها لتنهي معزوفة الخوف التي تملكت أوتار قلبها، زاغت أنظارها مع حركة بندولها الضخم المصنوع من الذهب الخالص حتى آلمتها حدقتيها فأراحتهما بتفقد تفاصيل أخرى لهذه الساعة الأثرية المصنوعة من خشب الجوز والتي لا مثيل لها بالعالم إلا في قصر باكنجهام بلندن فهي على عكس باقي الساعات التقليدية العادية لا تقوم ببيان الوقت بالساعات والدقائق والثوان فقط وإنما توضح الأيام والشهور والسنين كما توضح أيضاً تغيرات أوجه القمر على مدار الشهر ودرجات الحرارة المختلفة على مدار اليوم.

كانت الساعة تتواطأ مع قلقها فلا تنبأها إلا باستنزاف المزيد والمزيد من الدقائق وأخيها لا يلوح لها طيفه في الأفق بعد، خشت أن تغامر بالمغادرة لتتفقد أمره بنفسها في الحديقة الخلفية في الوقت الذي لا يوجد مبرر فعلي يجعلها تتواجد هنالك إلا إذا كان هناك خطب ما مما قد يوقظ شك أخيها تجاهها لذا وجب عليها التحلي بالصبر أكثر من ذلك مبتهلة إلى الله طلباً لانقضاء لحظات الخطر بأسرع وقت ممكن.

أعلنت دقات الساعة مرور ما يقرب من ثلاث ساعات وهي على حالتها تلك لا يزيد عليها سوى أن القلق ينهش قلبها وينخر به نخراً بينما يقتلها الانتظار ببطء وتترنح من قسوة وطأته على نفسها حتى استردت وعيها الكامل ودبت الحياة في قلبها من جديد عندما تناهى إلى مسامعها أصوات وقهقهات مرتفعة تقترب من مكانها فانزوت بأحد الأركان ترقب المشهد في صمت حين رأت أخيها يقترب أخيراً بصحبة هؤلاء المهندسين داعياً إياهم إلى مشاركته لعب البلياردو في الغرفة المخصصة لذلك بنفس الطابق.

بمجرد أن أحكم إغلاق باب الغرفة عليه استبقت خطواتها وهي ترفع قدماها عن الأرض قدر المستطاع حتى لا يجتذب أسماعهم صوت ارتطام كعوب حذائها بأرضية القصر المصنوعة من المرمر الإيطالي، انحنت بجسدها إلى الأمام بعد أن عبرت البوابة الرئيسية وسلكت الطريق المؤدية إلى الحديقة الخلفية من الخارج غير مصدقة أن تلك الساعات الثقيلة التي كانت تجثم على أنفاسها حتى كادت أن تجهز عليها قد انقضت أخيراً.

دفعت الباب بكلتا يديها فوجدته ينتفض فزعاً من جلسته بطرف الفراش فلم تتمالك مشاعرها وألقت بنفسها بين ذراعيه تجهش بالبكاء، ظل يربت على شعرها الناعم مهدئاً إياها ماراً بيده على تلك الخصلة البيضاء في مقدمة رأسها والتي قد اجتذبته يوماً ليس ببعيد من أعماق موسيقاه إلى أعماق حبها لكن لم تفلح محاولاته في التروية عنها فقد كانت تشعر بأن أحدهم قد قام بربط صخرة ضخمة إلى قلبها ليحول بينها وبين القدرة على الحياة بينما عجزت هي عن زحزحتها من مكانها ولو حتى بمقدار أنملة.

احتملت ضغطاً عصبياً هائلاً خلال الساعات الماضية؛ أكثر مما تسمح به قدراتها المحدودة وآن لها أن تفرغ ما في جعبتها من انفعالات مضطربة في أحضانه ليشاركها جزءاً من قلقها كونها قد شعرت خلال الساعات الماضية أنها لن تراه مرة أخرى وأن أستار الحياة قد أسدلت دونهما على كلمة النهاية التي كتبت بقسوة لحكايتهما.

في البداية كان باسطاً ذراعيه وشيئاً بداخله يكتف حركتهما ويجعله يخشى مجرد التفكير في ضمهما سوياً ليحتوي جسدها بينهما؛ لكنه لم يقوى على المقاومة كثيراً فلم تنقضي الثواني حتى شعر بنفس الشيء يستحثه ليضمها إليه أكثر ما يستطيع، تردد هنيهة قبل أن يقدم على ذلك لكنه في النهاية وجد نفسه مدفوعاً بأمر من عظيم مشاعره تجاهها ليجعلها تسكن إليه؛ فشيئاً ما بأعماقه يبدو ناقصاً ولن يكتمل إلا بها.

ضمها بكل ما أوتي من قوة حتى شعر أنه يكاد أن يطبق على عظامها الواهنة فخفف من وطأة أحضانه لكنه لم يمنحها فرصة الإفلات منها، هي أيضاً لم يكن لديها نفس الرغبة في الإفلات من دفء أنفاسه التي حاصرتها فقد وجدت أخيراً لها مكاناً بهذه الحياة، كانت تشكو طيلة عمرها أنها لا تملك مكاناً خاصاً بها؛ فعلى قدر ما أوسع الله في الأرض على قدر ما ضاقت بها فلا يوجد بها شبراً واحداً ترتاح به وتسكن إليه لكن هذه اللحظة تحديداً اكتشفت أن لها مكاناً طوله عدة إنشات يقع بين يمين رجلاً ويسراه؛ مكاناً لا يتسع إلا لها ولا تظن أن هناك مكاناً آخر قد صمم ليحتويها هكذا فتناست كل آلام سنوات عمرها في غضون دقائق من غفوتها بأحضانه.

في لحظة جمعتهما سوياً وتوقف الزمن عندها؛ شعر كلاً منهما أن ما اعتمل بنفس صاحبه أكبر وأعظم من أن يتسع له حضناً، شعرا أنهما قد تحملا حرماناً فاض من نفسيهما فأغرقهما ولن يشبع ذاك الحرمان إلا إذا ارتوى حرمانه من حرمانها وحرمانها من حرمانه، لم يكن لهما إرادة من أمر نفسيهما لكن قوة مشاعرهما وانجرافها وما عانا منه خلال الساعات الماضية من قلق الفقدان جعلت الأمر يأتي وكأنه حتمياً لابد من وقوعه في تلك الساعة وفي ذلك المكان.

مشاعر غريبة لم تحسها من قبل؛ على الرغم من أنها كانت زوجة بالماضي القريب وكان لها زوجاً يقبل عليها لتسكن إليه لكن ما تشعر به الآن أمراً آخر لا يشبه ما مرت به أو عاشته، أمراً اختلطت به المشاعر الجياشة بالرغبة المتقدة فسوت منهما إحساساً لا يعادله أياً من أحاسيس البشر، إحساساً يشبه التحليق في أعالي السماء لترى كل شيئاً دونه صغيراً تافهاً ولا يرقى إلى هذا الذي تحياه وتعيشه في تلك اللحظات.

لم ينتابها الندم ولو لمجرد لحظة بل كانت تشعر أنها تود لو تعيد الكرة مرة أخرى أما هو فكان يشعر أنه لم يذق للشهد حلاوة من قبل بل لم يكن الشهد شهداً إذا ما قورن بشهد حبهما الذي نهل منه لدقائق، شعر في قرارة نفسه أنه قد أوتي من الدنيا حظه ورضي به ولم يعد له من رغبة في شيئاً آخر سوى أن يعيش ويموت بجوار تلك المرأة التي سلبته عقله وقلبه وروحه؛ فهي الحياة ولا حياة له تستقيم دونها.

***

مر الشتاء قاسياً على الجميع إلا عاشقين جمعهما دفء حبهما وحنو مشاعرهما، كانت السعادة التي تجمعهما قد أينعت وبلغت ربيعها كمارس الذي حل برياحه الدافئة حاملاً معه حبوب اللقاح ليمنح الدنيا حياة جديدة تبدأ بقدومه ولا تنتهي إلا بعد رحيله وحلول خريفاً جديداً.

لم تكن تعلم أن إيناع الشيء وبلوغه مرحلة النضج مؤشراً إلى اقترابه من مرحلة السقوط فالخريف لا يأتي إلا إذا سبقه ربيع، والشتاء لا يزمهر إلا إذا سبقته حرارة الصيف.

استيقظت بشغف من يغمض جفنيه آملاً أن يلتقي أجمل الأحلام بنومه ليستيقظ فيرى الواقع أكثر جمالاً وإشراقاً، كانت تعد نفسها لتناول الإفطار سريعاً فلم يعد يعنيها أن تتناوله وحدها أو مع الجميع ولم يعد يعنيها أن تجد الجميع منشغلاً بأمور أخرى سواها فهي تلتمس لهم الأعذار وقد باتت مثلها مثلهم؛ لها ما يشغلها حتى عن أمر نفسها.

ألقت نظرة على تلك اللوحة التي رسمتها له من وحي صورته المنطبعة في أعماق قلبها وغالت في إخفاءها عن أنظار الجميع لتستأثر عيناها هي فقط بها فتفتحهما عليها صباحاً وتغلقهما دونها ليلاً، كان الجميع على علم بأنها تجيد الرسم لكن لم يكن أحد ليهتم بما تجيده أو بما ترسمه لذا فلا خوف من افتضاح أمر لوحتها إلا إذا اعترى الفضول أحد الخدم وعبث بأشيائها المخفاة.

قفزت بخطوات مرحة بعد أن تفقدت زينتها في المرآة وأعربت لنفسها عن رضاها الكامل عن هيئتها حتى ولو لم تراه اليوم لن يشكل ذلك فارقاً في زينتها فقد صارت تتزين له ولنفسها وللحياة بأجمعها.

فجأة استوقف قفزاتها إلى الأسفل آلاماً عظيمةً أصدرتها أحشائها وتعاظمت في غضون ثوان لتجد نفسها وقد فقدت السيطرة على زمام أمورها تماماً، جرت قدميها عبر أبواب حجرتها تلتوي من فرط الألم وتبحث عن غوث يعينها على أوجاعها المبرحة، تلقفتها يدا ألكسندرا التي استرعى أسماعها التأوهات الصادرة منها فنظرت إليها في فزع وهي تلتوي كالحيات التي كانت تراها مع زوجها في الأحياء الشعبية بالهند يضربها الحواة بأقدامهم فتخرج من السلال المصنوعة من الخوص تتراقص على أنغام مزاميرهم.

كانت سيلينا تمسك أسفل بطنها بكلتا يديها وتشعر وكأنه يكاد يتمزق وعيناها

تتسعان عن آخرهما من عظيم ألمها قبل أن تراوغا حدقتاها النظر فيغيبا بطرفي جفنيها بالأعلى فيتثاقلان منسدلتين ويسقط جسدها في سبات عميق.

صرخت ألكسندرا مستعينة بالخدم ليقوموا بنقلها إلى الفراش قبل أن ترسل أحدهم في استدعاء الطبيب على الفور، ترددت لحظة قبل أن تقوم بالاتصال بزوجها، على الرغم من علمها بمكانه خارج القصر وبالرغم من قدرتها على إبلاغه بما حدث لكنها تعلم أيضاً أنه لا يحب أن يقوم أحدهم بالاتصال به أثناء عمله كما أن أمر سيلينا لا يعنيه كثيراً ولا يكترث له للدرجة التي تجعله قد يترك مهام عمله لمجرد أن ألماً ما قد اجتاح معدتها، فإن هي أغفلت إخباره بذلك سيكون أمراً يغتفر عن أن تقوم بالعكس فتزعجه أثناء قيامه بأداء عمله فلا يغفر لها ذلك.

وصل الطبيب فصرفت الخدم من حجرة سيلينا التي كانت قد استعادت شيئاً من وعيها لكن على الرغم من ذلك بدت ملامح وجهها في غاية التعب والإنهاك، أفل وجهها وفترت ملامحها تماماً واعتلى الشحوب قسمات وجهها المنهك عندما أخبرهما الطبيب ببساطة أن آلامها لا علاقة لها بالمعدة كما ظنا وإنما برحمها الذي تطرأ عليه التغيرات استعداداً لاحتواء جنينها الذي بدأ للتو في طور التكوين فحملها به قد تجاوز الشهرين على الأرجح.

كتمت ألكسندرا شهقتها بيدها وحاولت السيطرة على انفعالاتها ثم ناولت الطبيب أجره ولم تكل مهمة اصطحابه إلى باب القصر لأحد الخدم كالمعتاد وإنما قامت هي بنفسها بذلك خشية أن يثرثر مع أحدهم فينتشر أمر هذه الفضيحة وتتداولها همسات الخدم في الأروقة والطرقات، أما سيلينا فغاب عن ذهنها تفاصيل انصراف الطبيب ولم تعد تشعر بشيء سوى أن عقلها يكاد أن يصيبه شللاً، شهرين هما عمر الجنين في أحشائها مما يعني أن في غضون شهر آخر سيعلن هذا الجنين عن نفسه ويتحدب بطنها وتنتفخ تدريجياً لينفضح أمره ويرى الجميع ذلك ويلتمسوا نموه بأنفسهم.

كانت الصدمة قاسية على نفسها فهي لم تكن لتفطن لذلك أو حتى ليرد على خاطرها فعلاقتها مع جابرييل كانت كالمقولة الإنجليزية الشهيرة ot doog ooT eurt eb ، علاقة من فرط روعتها ومثاليتها تشعر معها وكأنك تعيش حلماً جميلاً لا يصدق، لكن الأحلام الجميلة لا يوجد بها أجنة تنمو في الأحشاء تشي بأن هذا الشخص كان يعيش بعالم آخر موازي لعالمنا دعائم أركانه أرستها الأحلام الجميلة حتى أيقظه الواقع القاسي ذات يوم ليهبط إلى عالمنا على صدمة مفجعة.

كان جسدها يغوص في الفراش تود لو يبتلعها وعقلها يغوص في أفكاره يود لو تلتهمه حين داهمت شرودها ألكسندرا وقد كشرت عن أنيابها وتقلصت ملامحها الوديعة فبدت كنمرة شرسة تنقض على فريسة واهنة فقالت بحدة وبمنتهى الحزم: أريد تفسيراً واضحاً وجلياً لما أخبرنا به الطبيب ودون أن تواري أياً من التفاصيل. كانت سيلينا مغلوبة على أمرها وروحها المعنوية قد انهزمت وتدرجت إلى أدنى المراتب للدرجة التي جعلتها تجتر كافة تفاصيل علاقتها بجابرييل منذ اليوم الذي وقعت به عيناها عليه في الحفل بحديقة القصر حتى هذه اللحظة التي أخبرهما فيها الطبيب بأمر هذا الجنين الذي يحمل كروموسوماتهما الجينية معاً.

كانت ألكسندرا تستمع إليها والغضب قد سطر عباراته اللاذعة على كافة ملامحها وأطل من أعماق عينيها الزرقاء الواسعة، لم يبدو لسيلينا أنها قد تعاطفت معها ولو للحظة ولا حتى مع تفاصيل قصة حرمانها الطويلة وحياتها الماضية التي عانت فيها مع زوجها السابق ولا حياتها الحالية معهم والتي تجرعت فيها مرار الإهمال وقسوة التناسي والتجاهل، كل ذلك لم يشفع لها لدى ألكسندرا لتغفر لها فعلتها تلك ولا سيشفع لها عند أخيها الذي سيدرك بين لحظة وأخرى أن أخته البارونة التي يحترمها الجميع ويعاملونها كسيدة نبيلة فاضلة قد باعت نفسها للشيطان وتركت شاباً ينتمي إلى طبقة تكاد تقترب من طبقة الخدم اللذين يعملون لديهم يعبث بشرفها بل والأدهى من ذلك أنها قد حملت منه سفاحاً طفلاً سيأتي إلى الحياة كثمرة عطنه للخطيئة التي اقترفتها بحقهم.

استحلفتها سيلينا بكل عزيز لديها، أقسمت عليها بحياة ابنتها آنيتا وأقسمت عليها بروح أبيها وأمها ألا تفضح سرها لدى أخيها وألا تمنحها شيئاً سوى فرصة للهرب من هذا القصر فحتى جابرييل لا يدرك كونها البارونة سيلينا كل ما يعرفه عنها أنها دي مورييه مربية آنيتا، وإن هي كانت كريمة معها ومنت عليها بفرصة الهرب ستتزوج منه وتعيش معه بعيداً عنهم ولن يقلق أخيها عار ما أقدمت عليه من فعل شائن فلا أحد سيعرف بأمر حملها سواها هي وهذا الطبيب الذي لن يفضح سر مريضته بالسؤال عنها إن زارهم مرة أخرى ولاحظ غيابها.

تحاملت على نفسها تاركة الفراش لتجثو على قدمي ألكسندرا لأجل أن تتستر عليها ودموعها تبلل طرف حذائها فما كان من الأخيرة إلا أن أخبرتها بهدوء أن لا عليها فهي ستتدبر ذلك الأمر وستعود إليها عما قليل لتخبرها بما انتوت فعله بصددها لكن رجتها ألا تترك القصر فجأة فلو كانت قد انتوت الهرب وعقدت العزم عليه فلتتمهل قليلاً عساهم أن يضعا خطة محكمة لهذا الهروب فلا تثير الشكوك من

حولها ولا تستفز فضول المحيطين بها بأمر اختفائها المفاجئ هكذا.

أذعنت سيلينا لأمرها وتركتها تخرج من غرفتها بعد أن أسلمت نفسها لنوم عميق ناحية عن عقلها كافة التفاصيل التي تتعلق بأمرها وأمر جابرييل وأمر طفلهما المشترك الذي لم يرى النور بعد وحتى الآن لا تستطيع أن تتكهن بردة فعل والده المستقبلي تجاه كونه سيصبح أباً دون رغبة منه أو تخطيط لذلك، يكفيها هذا الكم اللامتناهي من الأفكار السلبية التي أنهكت بها عقلها فهناك أخيراً من سيتقاسم معها عناء التفكير في إيجاد طريق آمن للخروج من هذا المأزق الذي أوقعها قلبها به.

عاد البارون من الخارج وانضم إلى زوجته وابنته يتناول غدائه معهما بينما سيلينا في هذه الأثناء قد استيقظت من غفوتها التي لم تطل كثيراً ولم تتعدَ دقائق معدودات فسيل الأفكار المشوشة مازال يعصف بها والحيرة كثعبان جائع يكاد يفتك بعقلها.

حاولت التماس بعضاً من الهدوء دون أن تضطر لمغادرة غرفتها فدلفت إلى الشرفة الواسعة المغطاة بالفسيفساء الملونة وجلست بأحضان المقعد الخشبي الذي يقع بالركن الأيسر لها، كان الكرسي يبدو وكأنه قد التوى على نفسه حتى تجلس إليه فتجد تلك التماثيل الهندية التي تعج بها أركان القصر تحيط بك من كل جانب من جوانبه، انتابتها الهواجس فشعرت أن التماثيل تتحدث إليها وتهددها بافتضاح أمرها.

انتفضت من المقعد واقتربت من سياج الشرفة لتجد تمثالاً لحيوان أسطوري يطوح بقذائف لهب باتجاهها، انتفضت والتفتت للجانب المقابل فوجدت تمثالاً آخر يرمقها من جانب جدران القصر ويتوعدها بأن تتخلص من جنينها وإلا سيمزق أحشائها بأنياب أحد الأفيال الرابضة بجوار الشرفات، نظرت إلى الفيل فهيئ إليها أنها تسمع نهيم صوته وتراه يلوح بأنيابه العاجية يميناً ويساراً مهدداً إياها فوضعت كلتا يديها على بطنها تحمي جنينها الذين يهددونه فهي لن تتخلى عنه مهما كان السبب حتى ولو طلب جابرييل منها ذلك لن تتخلى عن حلمها بأن تصبح أماً ذات يوم، وإن كان القدر قد ضن عليها بأن يكون تحقيق حلمها مع زوج تكرهه وتنفر منه فاليوم قدرها أصبح سخياً معها ومنحها القدرة على تحقيق هذا الحلم مع الشخص الذي أحبت وعشقت.

نظرت إلى كل تلك التماثيل التي ترمقها في تحد فأفزعها كم الأعين الجامدة التي تحدق بها وبجنينها فتراجعت خائفة لتهرب من هواجسها وتغوص داخل غرفتها

محتمية بجدرانها من شر الأعين الحجرية التي تراقبها في جمود وقد بات هاجس الشر المتربص بها يقيناً بأعماقها.

***

كانت حركة القصر تبدو هادئة وعادية للجميع، آنيتا بغرفتها؛ الخدم بالطابق الأسفل يعملون دون توقف؛ ألكسندرا بصحبة إدوارد بسطح القصر حيث جلستهما المفضلة قبيل الغروب يومياً فقد كان أشبه بمتنزه ضخم يستغلانه لإقامة حفلات الشواء بالصيف ويصعدا إليه بصفة يومية بواسطة السلم المصنوع من خشب الورد قبيل الغروب بساعة تقريباً ويمكثا يتسامران به حتى هبوط الليل.

ارتفع أزيز قاعدة البرج الملاصق للقصر معلناً انقضاء ساعة كاملة عن آخر دورة أتمها ومن ثم فقد آن له أن يشرع في الدوران حول نفسه من جديد قبل أن يلتزم السكون لساعة آخري قادمة، تناهي إلى أسماع الجميع صرخة نسائية اقترنت بصوت تحرك قاعدته الدائرية ولم يستطع هدير محركاتها إخفاء ارتفاع صوتها أو الحد من علوه.

أسرع الجميع لتبين الأمر فلمحت آنيتا من شرفة غرفتها عمتها وقد تعلقت بسياج البرج الخارجي وعلامات الرعب بادية على ملامح وجهها بينما يوشك البرج على إكمال دورته، وقف بستاني القصر ومعه بعض الخدم بالحديقة يرقبون الموقف بفزع من الأسفل وقلوبهم تتوجه إلى الله أن ينقذ سيدتهم التي أخذت يدها تنزلق بفعل ارتكاز ثقل جسمها كله بالأسفل حتى أفلتت السياج أخيراً من قبضة يدها بعد أن خشت أن تدك عظام جسدها بين هيكل البرج وجدران القصر الملاصقة له فقد اقتربت دورته من الاكتمال ولم يعد هناك مجالاً للفرار من تلك الزاوية الضيقة ما بين سياج البرج والجدار الخارجي للقصر.

لحظات وارتطم جسدها في عنف بالحشائش الندية بحديقة القصر وسط ذهول الجميع وعجزهم عن مد يد العون لها.

هب إدوارد وألكسندرا من مجلسهما بالأعلى ليهبطا الدرج الحلزوني سريعاً حتى وصلا بعد دقائق إلى سفح الحديقة ليريا بأعينهما سيلينا وقد أحاط بها الخدم من كل جانب يتباكونها في أسى فقد صارت جثة هامدة بلا حراك وفارقت روحها جسدها بالفعل ولم تفلح محاولاتهم في استفاقتها فقد غادرت عالمنا بلا رجعة بعد أن شجت رأسها من الخلف محدثة بقعة مستديرة من الدماء الداكنة حولها.

كانت آنيتا ترقب الموقف من شرفتها متجمدة الأطراف بينما إدوارد وألكسندرا يبدوا ذاهلين ولا ينبثا ببنت شفاه أما باقي الخدم فأخذوا يتحسرون على السيدة الشابة التي لا يعلموا إذا كانت قد انزلقت قدماها عن قمة البرج أثناء دورانه أم أنها قد اختارت انهاء حياتها بنفسها فعهدهم بها حزينة وحيدة صامتة جعلهم لا يستبعدون كونها قد انتحرت بهذه الطريقة لتنهي تلك الحياة البائسة بنهاية أكثر بؤساً تتماشى مع سيناريو حياة قاسية مجحفة.

***

أتم البارون مراسم دفن أخته بعين دامعة وكل المحيطين به غير مصدقين أن تنتهي حياة شخصاً من بينهم ببساطة هكذا دون أية مقدمات وفي لحظات خاطفة؛ فما بين حياة سيلينا وموتها مدة زمنية قصيرة جداً لا تتعد الثواني، كلهم رأوها وهي تتعلق يائسة بأستار الحياة في اللحظات التي اعقبت سماعهم صراخها وكلهم رأوها حين ارتطم جسدها بالحديقة بعد ذلك بلحظات قصيرة لتفارق الحياة على الفور ودون أن يسبق ذلك أية مؤشرات أو تحضيرات.

غريبة هي تلك الحياة على الرغم من كل التعقيدات التي نواجهها والمصاعب التي نبذلها من أجل التشبث بها والبقاء فيها تأتي الحياة وبدون أي جهد يذكر لتؤكد لنا أن الرحيل عنها أبسط مما نتوقع وأقرب ما يكون منا إلينا بل انه يبدو أسهل من محاولة البقاء فيها، كل الحقائق تتوارى خجلاً وتتضاءل حتى تتلاشى أمام فكرة أن الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة وباقي الأمور احتمالات زائلة.

لو كانت سيلينا أصرت على التعلق بآخر أمل تبقى لها في الحياة للاقت مصرعها أيضاً لكن بعد أن تدك عظامها وتطحن بفعل دوران البرج وانحسار جسدها في زاوية ضيقة بينه وبين جدران القصر.

وكأن حالة الحداد المعلنة بالقصر لم تكن لتكفي فقد أعلن هذا البرج من قبله حداداً رسمياً على مصرع سيلينا ولم يعد يلتف حول نفسه منذ ذلك الحين، أرجع المهندسين سبب هذا التوقف إلى أن الصدأ قد اعتلى العجلات التي كان يلف عليها أو لعل السبب الأقرب إلى المنطق هو أن ضميره الأبكم قد أوجعه لأنه كان سبباً في موتها ولا ينفي عنه كونه جماداً أنه غير آسفاً على ما حدث لها فالأماكن تحزن لحزن أصحابها وتفتقدهم في غيابهم وتستوحش دونهم؛ لكن تعددت الأسباب والموت في النهاية واحد، فمهما بلغت درجة تمسك سيلينا بالحياة لم يكن ذلك ليشفع لها لدى الحياة نفسها والتي كان سيأتي عليها اللحظة التي تتخلى عنها بها،

فالموت هو الحقيقة الكاملة التي لا تقبل انتقاصاً أو شكاً أو تشكيكاً في عالمنا، تمسك سيلينا أو غيرها بالحياة هو مجرد امتداد لفترة صلاحية قد قدر لها الانتهاء منذ البداية.

كانت آنيتا ذات الثلاثة عشر عاماً أكثر المتأثرين بما آلم بقصرهم من أحداث مفجعة؛ فبعد مرور عدة أيام نسى الجميع أمر سيلينا ولم يعودوا يتداولون سيرتها أو يقصون بأعين دامعة حكاية البارونة الحزينة التي يئست من الحياة لأمر لا يدركون خطبه فقررت انهاء حياتها لكنها تراجعت في اللحظة الاخيرة بعد فوات الأوان، لم يعودوا يستفسرون عن هذا السبب الجلل الذي دفعها للانتحار وهي التي ملكت من المال والشباب والجمال ما يجعلها تلقي بأي أمر مهما بلغ عظمه خلف ظهرها لتقبل على الحياة بكامل عنفوانها.

عادت الحياة لمجراها الطبيعي، عاد كل شيء كما كان وسارت الاحداث اليومية في نسقها المقدر لها، الجميع نسى أو تناسى إلا آنيتا لم تستطع، ظلت تستيقظ من نومها فزعة وهي تحلم أنها تمد كفها لعمتها تنقذها قبل أن تلقى حتفها لتجد عمتها تجذبها من يدها إلى أسفل لتلقي بها أرضاً تحطمها تحطيماً ثم تضحك شامتة بها.

يومياً اعتاد إدوارد وألكسندرا وباقي الخدم الاستيقاظ على صراخ آنيتا ليهرعوا إليها فزعين فيجدونها ترتجف وتبكي ملتاعة وعيناها شاخصتان في الحائط أمامها.

ضاق إدوارد ذرعاً بسلوك ابنته الشائن الذي بدأ يثير الهمسات في محيط القصر ومحيط معارفهم؛ الجميع أعتقد أن عقلها الصغير أصابته لوثة أو لعل أصابها مساً شيطانياً جعلها تفقد صوابها هكذا، استشار إدوارد أكثر من طبيب ولم يرجع أياً منهم ما آل إليه حالها من سوء سوى لأسباب تتعلق بصدمتها، نصحه أحد الأطباء بأن يقوم بتغيير حجرتها تلك التي تحتجز نفسها بها طوال اليوم فاختار لها إدوارد حجرة طلاها باللون الوردي في غرب القصر ونقل إليها أشياءها لكن ذلك بدا دون جدوى فلم يتغير من سلوكها شيئاً حتى المعلمين الذين أتى بهم ليقوموا بتدريس كافة المعارف إليها رفضت مجالستهم أو الامتثال إلى أوامرهم وتعليماتهم حتى انقطعوا عن زيارة القصر رغم توسلات إدوارد إليهم بألا يفعلوا.

***

استيقظ إدوارد فزعاً ذات ليلة في ساعة متأخرة وكان قد مر على حادثة انتحار سيلينا خمسة عشر يوماً تقريباً، كان سبب استيقاظه أنه شعر بيداً غليظة تعتصر صدره حتى ضاقت أنفاسه فوجد نفسه يهب مفزوعاً وجبينه يتصبب عرقاً، قام من فراشه وقد تطايرت من عينيه أية رغبة بالنوم بشكل نهائي، ارتدى روبه المخملي فوق منامته الحريرية وخطى باتجاه الشرفة يلتمس بعضاً من الهدوء النفسي في نسمات الليل الندية، جال بأنظاره في المحيط من حوله حتى توقفت عيناه فجأة على الشرفة الخاصة بحجرة آنيتا، كانت الأنوار تنبعث منها فأثار ذلك حفيظته فما الذي سيدفع ابنته للسهر حتى هذا الوقت وهي التي تقضي معظم يومها نائمة نظراً لما تعانيه من ظروف نفسية قاسية.

خرج من حجرته صوبها يتقصى ذلك الأمر بنفسه فاستفزت أنفه رائحة البخور التي انبعثت من أعتاب غرفتها عندما دنى منها، لم يكن البخور فقط هو ما استفز حواسه لكن هذه الترانيم الحزينة التي تنبعث من خلف جدار الغرفة جعلت القشعريرة تسري في بدنه حتى أن يده كانت ترتعش وهي تمتد باتجاه المقبض ليستجمع أنفاسه أخيراً ويقوم بدفع الباب بعد أن أدار المقبض بسرعة وإذا بكل شيء في مكانه فلا أثر لصوت ترانيم أو شذى بخوراً ولا حتى لأنوار مما قد لمحها من شرفة غرفته.

خطى بداخل الغرفة فوجد آنيتا مستكينة بفراشها ووجهها الوديع الذي يحمل الكثير من ملامح أمها ساكناً لا يحمل أية تعابير تدل على أنها كانت مستيقظة منذ قليل، تسارعت دقات قلبه وأخذ يقرص كفه اليسرى بأصابع كفه اليمنى لعل ما رآه أو سمعه أو اشتمته أنفه كان حلماً ليس أكثر لكن خابت توقعاته عندما آلمته كفه اليسرى وشكت له قسوة أصابع يمناه التي بالغت في ضغطها إمعاناً في تأكيد كونه يحلم، تحركت عينيه في أنحاء الغرفة مفتشاً عن شخص مختبئ بأحد زواياها فلم يجد، مد يده باتجاه خزانة الملابس يستطلع ذات الأمر نفسه عندما هبت آنيتا من نومها تصرخ فتجمدت حركته وحاول أن يهدئ من روعها حتى استكانت مرة أخرى فأطفئ الأنوار وأغلق الباب وعاد إلى فراشه مرة أخرى.

باليوم التالي كان إدوارد مشغول الفكر؛ مشتت الذهن؛ أكثر ما يخشاه أن يضيق صدره بما رأى فيقص على أحدهم ما حدث معه بليلة أمس ويتهمه من يستمع إلى حديثه بالجنون.

اتقد فضولاً لهبوط الليل تحديداً لما بعد منتصفه حتى يتحرى صدق ما رآه بالأمس من عدمه، وكأن انشغال عقله طيلة اليوم بأمر المساء قد أقسم على النوم بألا يزور

جفنيه أو يلامسهما فظل على حالته تلك متأرقاً حتى ساعة متأخرة وعندما اطمئن إلى أن زوجته تغط في نوم عميق نفض عن نفسه الأغطية وقام إلى الشرفة معيداً سيناريو الأمس مرة أخرى فوجد أن شيئاً لم يتغير عما حدث من قبل فالأضواء تنبعث من غرفة ابنته والترانيم الحزينة تتلى ورائحة البخور تصل إلى أنفاسه.

كان يهم بتحريك المقبض لفتح باب حجرة ابنته عندما قبضت على كتفه كفاً قوية نخرت عظامه بأصابع قاسية، تصلب في مكانه ولم تواتيه الجرأة ليلتفت خلفه لرؤية هذا الشيء الذي يملك كفاً ذات أصابع حادة كالمسامير وإن ظلت أنفاسه تتصارع ذهاباً وإياباً حتى صارت خواراً؛ كل ذلك ولا يجد في نفسه القدرة على الالتفات خلفه، ظلت تلك القبضة على وضعيتها الكمشة على كتفه ولم تتهاون في الإحكام على عظامه حتى انفتح باب الغرفة فجأة وظهرت آنيتا على بابها تتطلع إليه في فزع بينما يقف هو جامداً وقد اقشعر بدنه وانتفضت عروقه من هول الموقف.

بظهور آنيتا تلاشت آثار إحكام تلك القبضة من على كتفه ولاحظ أن ابنته تتطلع فيما وراءه بخوف، التفت للخلف أخيراً في موضع تعلق أنظار ابنته وموقع ذلك الشخص أو ذاك الشيء الذي سلبه أنفاسه منذ قليل فلم يجد إلا الفراغ، لا يعرف تحديداً كيف حملته أقدامه على الفرار من موقعه السابق بل لا يعرف ما الذي انتاب ابنته بعد أن اتسعت حدقتاها وأسرعت تغلق الباب دونه في صمت وكأن شيئاً قد أمرها بذلك فامتثلت إلى أوامره في الحال، جل ما يدركه أنه لم يستطع أن يتمالك أنفاسه أو أن يحكم السيطرة على سرعة نبضات قلبه إلا عندما أسلم نفسه للفراش وأحكم الغطاء حول جسده ولف به رأسه بينما عقله لا يزال غير مستوعباً لما مر به منذ دقائق.

في الصباح التزم الصمت على مائدة الطعام وزوجته بجواره تحاول دفعه للحديث مراراً لكن دون جدوى، كان يخشى أن يحادثها فيما مر به بالأمس فتسخر منه فاكتفى بقدر ضئيل جداً من الطعام ثم قام عن المائدة يتفقد أحوال ابنته التي لم تعد تغادر حدود غرفتها بشكل دائم لكن ترافقها مربيتها معظم أوقات النهار بها ويتردد عليها باقي الخدم لإحضار الطعام ورفع المتبقي منه والذي لم يكن ينتقص منه الكثير.

انفرجت زاوية الباب فأتاحت له رؤية فراشها فوجدها قابعة بمنتصفه كما هي؛ ساكنة؛ صامتة؛ ضامة ركبتيها إلى صدرها ومحتضنة إياهم بكلتا ذراعيها وذقنها قد أراحته بمنتصفهما بينما عيناها معلقتان بالفراغ أمامها، ألقى عليها تحية الصباح وبادرها بالسؤال عن أحوالها وعما إذا كانت قد لاحظت شيئاً مريباً ليلة أمس حين

وجدته ببابها فلم تعره انتباهاً أو يتلقى منها رداً.

فجأة انتفض جسده عندما وجد دي مورييه تظهر عن يمينه وكأنها أتت من الفراغ أو أن انشغاله بأمور ابنته لم يتح له فرصة تلمس وجودها بركن الحجرة ترقب حديثه ذو الاتجاه الأوحد الذي لم يجد له مجيباً، انحنت بقدمها تقديراً له لكن ذلك لم يكن ليخفي ابتسامتها التي ارتسمت على شفتيها فأرغمت رأسها على الاتجاه إلى الأسفل ونظراتها موجهة إلى موضع قدميها حتى لا يلمح ابتسامتها تلك.

استأذنها أن تتبعه إلى حجرة مكتبه فالتفتت تنظر إلى آنيتا التي ارتفع رأسها عن ركبتيها بمجرد أن رأتها تبتعد بخطواتها عن محيط فراشها فأخبرتها أنها ستعود سريعاً.

ضمت ضلفتي بابي الحجرة الخشبيين فوجدت صوته من خلفها يأمرها بأن تترك هوة منفرجة بينهما، رفعت إحدى كتفيها وكأنها تتعجب من ذلك ثم أطاعته وأبعدت طرفي الباب عن بعضهما بمسافة ثلاثون سنتيمترات متيحه له الفرصة لرؤية المارين بالخارج فيقف ذلك حائلاً بين حديثه معها وبين وجود أية فرصة للتنصت عليه.

استدارت ببطء مقتربة من المكتب الخشبي الضخم الذي استقرت بزواياه بعض الحلى النحاسية الثمينة بينما أراح ظهره إلى مقعده الجلدي الوثير وأتاح لعينيه الفرصة لتتأمل رشاقة خطواتها وعودها الممشوق الذي انفرد كغصن بان ولم يفلح ثوبها المحتشم في درء مفاتنه عن ناظريه، وجدها تمر بأناملها على غرتها البنية الناعمة فوق حاجبيها العريضين وكأنها توجه أنظاره إلى وجهها المليح فرفع عينيه إلى عينيها العسليتين الواسعتين فابتسمت له عينيها قبل أن ترتسم الابتسامة على شفتيها الدقيقتين فشعر أن ذكاء تلك المرأة لم يستقر بقمة جمجمتها فقط وإنما ملامح وجهها ونظرات عينيها وكل إيماءة منها تشي بأن الله قد منحها ذكاءاً فطرياً غير عادياً وغير محدود القدرات.

تكلمت بنعومة لا تتناسب مع عملها كمربية تلتزم الوقار والجدية طيلة النهار وتبدو كذلك للآخرين في ملبسها وخطواتها وحديثها المقتضب وشعرها المعقوص فوق رأسها عدا تلك الغرة التي تغطي جبهتها لكنها كانت تبدو معه وكأنها أخرى غير تلك التي يعرفها باقي سكان القصر، رغماً عنه رفع رأسه يتفقد تلك الهوة التي تركتها بين ضلفتي الباب فلما لم يلمح أحد بالخارج قطب ما بين حاجبيه وزم شفتيه في ضيق وأشاح بوجهه في الاتجاه الآخر يسألها أين كانت ليلة أمس.

اعتدلت في وقفتها بعد أن كان جسدها منثني إلى الأمام و ذراعاها مفرودتان مرتكزة بهما على كفيها اللذان استندا على سطح مكتبه ففردت قامتها الطويلة في اعتدال وضمت ذراعيها إلى جسدها وألصقتهما به في وضعية جادة ثم رفعت رأسها تجيبه بخشونة متعمدة أنها كانت بحجرتها فشرع يسألها ووجهه بالاتجاه الآخر لم يبرح موضعه إن كانت تلحظ بعض الظواهر الغير مألوفة على ابنته من جراء حالتها النفسية المتدنية أو إن كانت قد رأت شيئاً مريباً بحجرتها فوجدها تجيبه بنفس الخشونة بأنها لم تلحظ شيئاً ثم ما لبثت أن استأذنته بأسلوب جاف أنها يجب أن تصعد إلى غرفة ابنته في الحال لأنها قد تأخرت عليها.

فتحت ضلفتي الباب عن آخرهما ثم ضمتهما من الخارج بقسوة متعمدة فضم قبضته مغتاظاً ثم تجاهل غضبه وحسم أمره ووجد ألا سبيل لديه للتهرب من القيام بزيارة كان لا يرغب بها بالفعل لكن لا مفر له منها إلا إليها.

***

استقل سيارته وأمر السائق باتباع الطريق التي سيرشده إليها حتى توقف بعد مسافة قطعها طبقاً لإرشاداته ببناية قديمة متهالكة، أمره بالانتظار ريثما يعود وترجل عن السيارة وملامح وجهه يبدو عليها إمارات عدم الارتياح، اقترب من الباب فدقه بحرص وقلبه يرتجف مما هو مقبل عليه، انفتح الباب أخيراً وطالعه صبياً أسمر البشرة يرتدي لباساً زاهي الألوان غريب التفاصيل، حياه باقتضاب وسأله عن سيد الدار فأشار له الصبي بالدخول.

كان يتصبب عرقاً والمكان من حوله يبدو مريباً فثمة قطيعاً من العناكب قد نسج خيوطه لتتشابك وتتلاحم محتلة معظم الأركان والجدران وكأن الحياة قد هجرت المكان لسنوات، أقنعة غريبة مخيفة زينت الحوائط لوجوه سمراء غليظة الملامح متضادة الألوان وخضبت معالمها بالدماء، دخاناً كثيفاً يتصاعد من ركنٍ ما لا يعلم تحديداً ما هو مصدره.

كان رأسه يلف من حوله متفحصاُ المكان عندما ارتعش جسده فزعاً بفعل هر أسود ضخم فاجأته رؤياه بأحد الزوايا ليقفز من مكانه ناحيته فجأة وهو يموء بشكل مخيف جعل قلبه يكاد يتوقف عن النبض وأعمل يديه الاثنتين معاً محاولاً التخلص منه لكن القط كان قد بدأ في نبشه بمخالبه ولم يتوقف إلا عندما أمره صوتاً غليظاً أتى من خلفه بالتوقف فتوقف على إثره على الفور وتكوم على نفسه عائداً إلى مكانه السابق.

كانت أسنانه تصطك ببعضها البعض من شدة الفزع والخوف عندما وجد صاحب الصوت الغليظ يقول ببطء وبإنجليزية ركيكة: أسف يا سيدي .. سيفاو قطي غير معتاد على الغرباء.

أومأ إدوارد برأسه وهو لا يجد في نفسه القدرة على التفوه بما جاء به، فوجد ذلك الصبي ذو البشرة السمراء الداكنة يأتيه بكوب من الماء تردد بالبداية في قبوله حتى جاءه الصوت الغليظ يأمره ألا يرد كف صبيه فتناوله على مضض وتجرع ما بداخله دفعة واحدة.

اختفى الصبي بمجرد أن أفرغ إدوارد محتوى الكوب في جوفه فأخذ ينقل أنظاره ما بين الصبي الذي أدبر مغادراً الغرفة وما بين القط الساكن في وداعة في ركن الغرفة يرمقه ولم يحرك أنظاره عنه للحظة حتى انتفض جسده مرة أخرى لكن على إثر الصوت الغليظ الذي خرج من حنجرة صاحب الدار مستفسراً عن سبب تلك الزيارة.

استدار ينظر إليه متفحصاً بشرته الشديدة السمرة ولحيته الطويلة التي اكتسى معظمها بالشيب في حين كان رأسه الأصلع يلتمع بفعل بعض حبيبات العرق وكان ملبسه الكتاني الفضفاض ذو الخطوط الطولية المتعارضة الألوان يبدو غريباً وغير مستساغاً بالرغم من أنها ليست المرة الأولى التي يقابله بها فقد رآه من قبل بمنزل أحد أصدقائه حيث كان مستضيفاً إياه ببيته كنوع من أنواع التسرية عن ضيوفه ليقرأ لهم الطالع ويضفي على سهرتهم طابعاً خاصاً من الغموض والإثارة، لكن شيئاً ما في عيني ذلك الإفريقي العجوز الذي أسره سحر مصر كما أسره هو من قبل أنبأه يومها أن ما يحمله في جعبته أكثر من مجرد سبل الترفيه، تلك النظرة التي جعلته لا يستطيع محو أثارها عن عقله وذكراها التي انطبعت بذاكرته هي ما دفعته للتفكير به مباشرة فور مروره بأحداث الأمس والليلة التي سبقته.

بأنفاس متقطعة أخبره إدوارد بما مر به في الليلتين السابقتين وأخبره أيضاً بحال ابنته الذي تبدل منذ أن ماتت أخته. تخلل جيلبرتو لحيته الطويلة بأصابعه السمراء النحيفة التي تبرز مفاصلها في حدة وكأنه قد فر لتوه من بلاد المجاعات وهو يسأله بنفس الانجليزية الركيكة عن ظروف موت أخته.

تردد إدوارد قليلاً قبل أن يخبره بتفاصيل انتحارها سقوطاً من البرج المتحرك الذي توقف من يومها عن الدوران.

- سيد إدوارد .. حدسي ينبأني أن كل الأحداث تنبع من موطن موت أختك البارونة .. فموتها هو بداية التغير الذي طرأ على ابنتك والذي بدأت بوادره في مهاجمتك أنت شخصياً ولا ندري لعل ما يسيطر عليها قد يحكم سيطرته عليك أيضاً ويسلمك إلى الصمت المطبق والانعزال كما فعل معها.

شحب وجه إدوارد عند سماعه لذلك فأكمل جيلبرتو حديثه معه بشيء من الحزم: لابد لي من مقابلة آنيتا ورؤيتها وفيما بعد استكمل حديثي معك

اختتم كلماته بأن أخبره أنه سيمر عليه ليلاً لرؤية ابنته وأمره وفقاً لذلك بأن يرسل سائقه في الثامنة مساءاً ليقله إلى هناك ثم وقف فجأة دون أن يقوم بتوديعه أو حتى الاستئذان منه وتلاشى من أمامه منسحباً إلى الداخل من حيث ظهر قبل سابق، بنفس الوقت ظهر الصبي الأسمر مرة أخرى وكأنه كان ينصت إلى الحديث الدائر بينهما وأدرك وقت أن توقف الكلام أن المقابلة قد انتهت فعلياً فحضر على الفور لاصطحابه إلى الخارج.

كان غارقاً في بحر من الذهول والحيرة فقد وضعه ذلك الرجل أمام الأمر الواقع ولم يترك له خياراً لرفض أو لقبول تلك الزيارة مما يجعله ملزماً بشرح الموقف بالكامل لزوجته التي سوف تستنكر لجوء زوجها المثقف لساحر إفريقي عجوز وستعتبر ذلك نوعاً من أنواع الهراء.

بمجرد أن دلف إدوارد إلى قصره أخبر ألكسندرا بزيارته لذلك الساحر لكنه أخفى عليها الجزء الخاص به من الأمر وأخبرها أنه قام بذلك لأجل ابنتهما، ثارت وجن جنونها أمام هذا السلوك الشائن من جانبه لكن بالنهاية وأمام ذلك الحسم الذي أخبرها به أن السائق لن يخلف موعداً قد قام بإعطائه هو استسلمت على مضض لكن حذرته إن أصاب آنيتا مكروهاً فإنها لن تسامحه طيلة عمرها.

حضر جيلبرتو وصبيه في الموعد المحدد بعد أن أقلهما السائق للقصر، على الفور حين دخل إلى البهو الرئيسي التقطت أنفه رائحة جعلت روحه تنقبض لكن لم يشأ أن يزعج إدوارد بشأن تلك الرائحة وطلب منه التوجه إلى غرفة آنيتا.

طرق إدوارد الباب فلم يأته جواباً فطالما مربيتها ليست بالداخل لن تحرك الطرقات ساكناً لابنته وألكسندرا أخبرته أن أحد أقرباء دي مورييه قد أتى لرؤيتها وغادرت برفقته بعد أن قامت باستئذانها في ذلك.

دلف جيلبرتو إلى داخل تلك الحجرة التي اكتسى كل شيء بها بالوردي، كانت الرائحة التي استفزته بالأسفل تبدو نافذة أكثر ما يكون بهذه الغرفة فأخذ يتفحص هذه الصبية الجميلة التي ذبلت ملامحها ونحلت بينما نظراتها الشاردة متعلقة دوماً بالفراغ على الحائط أمامها، طلب من إدوارد أن يغلق الباب في هدوء ثم التقط جراباً صغيراً يحوي مسحوقاً أبيض اللون من جعبته وقام بنثر القليل منه على الأرض وهو يتمتم بكلمات مبهمة غريبة لم تستوعبها أذني إدوارد ولا آنيتا التي يبدو عليها أنها لم تنتبه لوجودهما بعد.

أخذ يكمش حبيبات هذا المسحوق وينثرها أرضاً في دفعات وكلما هم بإلقاء بعضاً منها تدور الحبيبات حول نفسها فائرة ثم تتحول إلى اللون الأسود بمجرد أن تلامس أرضية الغرفة الأمر الذي جعل عينا إدوارد تتسع عن آخرهما وتمتم شاكراً الظروف التي أقصت دي مورييه وألكسندرا عن المشاركة بتلك التجربة وإلا كان سيعاني من توابع إغماء سيدتين من هول ما يراه هو بعينيه ويكاد لا يصدقهما.

كان صوت جيلبرتو يعلو شيئاً فشيء وكأنه يحذر شيئاً ما من الاختباء كثيراً حتى وصل بجولته تلك التي يقوم فيها بنشر جزيئات مسحوقه العجيب إلى الجدار المقابل لفراش آنيتا فسكب بعضاً منه أسفله وعلى الفور استحالت حبيبات المسحوق سوداء لكنه استمر في الفوران بشكل مخيف وبدأت تصدر عنه أصواتاً تشبه الغليان أعقب ذلك تصاعد أبخرة سوداء ظلت تعلو في تتابع سريع حتى تكثفت على الجدار، بمجرد أن انقشعت تبعات الأدخنة استحال البخار الأسود المترسب صليباً معقوفاً بطول الحائط.

اتسعت عينا جيلبرتو عن آخرهما بينما إدوارد يشعر أن الأرض تميد به ويكاد يكذب عينيه مما يرى، كل ذلك وآنيتا جامدة الملامح والأطراف تحملق بالجدار أمامها وقد غطاه الصليب المعقوف الذي كما تنامى سريعاً عاد وانحسر أرضاً عن الحائط بسرعة شديدة فاستحال مسحوقاً أسود اللون كما كان قبل تكثف أبخرته.

تناول جيلبرتو من جعبته كيساً مخملياً آخر به مسحوق له لوناً ورديا وسكب منه القليل لكن هذه المرة حول فراش آنيتا من كافة الجوانب واتخذ طريقه للخارج مباشرة بعد أن أشار لإدوارد باتباعه.

كان إدوارد شاحب اللون وقد جف حلقه ولم يعد يجد في نفسه القدرة على استرجاع ما رآه في مخيلته فهدئ جيلبرتو من روعه بأن ربت على كتفه واقترب منه هامساً بأنه يود التحدث معه بعيداً عن ابنته وزوجته وباقي الخدم.

دفع إدوارد الباب الضخم لحجرة الصالون وخطى على أرضيتها الرخامية فتبعه جيلبرتو الذي لم يبدو عليه أياً من علامات الانبهار بهذا الكم الهائل من التحف الذهبية أو حتى دفعه الفضول ليتطلع مدققاً بتفاصيلها كعادة من يزور القصر للمرة الأولى.

كانت نظراته في غاية الجدية وهو يخاطب سيد الدار: سيد إدوارد الأمر في غاية الخطورة .. ابنتك يحيط بها خطراً محدق وقد رأيت بنفسك بعضاً من دلائله وأنا أخشى أن تقوم بإيذاء نفسها أو إيذاء من حولها تحت إمرة هذا الشيء

بدى إدوارد شارداً وهو يسأل: وما كون هذا الشيء؟

صمت جيلبرتو قليلاً قبل أن يقول: روحاً شريرة

ثم ضاقت عينيه وهو يكمل هامساً: شيطان

كان ينظر في عيني جيلبرتو ويرى انعكاس ملامح وجهه مقعرة على سطح قزحيته البنية عندما لمح شيئاً ما يتحرك من خلفه في سرعة خاطفة بذلك الانعكاس عندما همس جيلبرتو بكلمته الأخيرة.

***

أحضر جيلبرتو ورقة وقام بثنيها على شكل مثلث ثم ملئ وعاءاً عميقاً بالماء وأضاف قطرات من قارورة زجاجية صغيرة حوت سائلاً أسود اللون، رسم نجمة سداسية الأضلع بطبشور على طاولة خشبية أمامه وقام بوضع شريحة من الخبز بنهاية كل طرف من زوايا تلك النجمة.

عندما فرغ من أداء عمله نظر إلى إدوارد محذراً: هل أنت متأكد سيد إدوارد مما أنت مقبل عليه؟

أومأ إدوارد برأسه ونظراته زائغة فيما حوله فأكمل جيلبرتو بنفس اللهجة المحذرة: سيد إدوارد إن استحضار روحاً يشبه القيام بفتح الباب على مصراعيه لريحٍ عاتية لا قبل لنا بمواجهتها .. ريحاً قد تأتي على أي شيء وكل شيء

هز إدوارد كتفيه وكأنه لا يملك الخيار ثم أطلق تنهيدة حارة أودعها حيرته وقلقه مما هو مقبل عليه: سيد جيلبرتو أنا على ثقة تامة بأن ما يحدث في قصري له علاقة بموت شقيقتي

قاطعه جيلبرتو على الفور: سيد إدوارد إن الأرواح بعد موت أصحابها لا تختلف في طبائعها عن كونها في حياتهم

صمت لحظات ثم أكمل وقد اكتست نبرة صوته ببعض الرهبة: تلك الروح التي تسكن جنبات قصرك هي روح شريرة قاسية وشقيقتك كانت هادئة الطبائع ولم تكن تملك من مقومات الشر ما يضفي على روحها بعد موتها هذا القدر من الضغينة الذي شعرت به بنفسي

رد إدوارد بنفاذ صبر معلناً أنه لا طائل من هذا الحديث فهو لن يثنيه عما هو مقدم عليه أي مخلوق مهما كانت مبرراته: سيد جيلبرتو حتى لو افترضت أن شقيقتي لم تكن شريرة ذات يوم فإني على يقين أن كل ما يحدث لنا هو انتقام روحها مني ومن عائلتي

رفع جيلبرتو حاجبيه في ريبة: معذرة سيدي .. وما الذي سيدفع روح شقيقتك للانتقام منك أو من عائلتك؟؟

صمت إدوارد وغيم الحزن على نبرات صوته وهو يستخرج الكلمات من بين شفتيه ببطء شديد: أشعر أن ما يحدث لنا هو عاقبة لموتها .. روحها غاضبة مني لأنها تظن أني قد خذلتها وتباطأت في إنقاذها من الموت فقد ظلت لحظات تصارع حركة البرج وتتلقفها الرياح يمينا ويساراً ولم يستطع أياً منا تقديم يد العون لها ودرء ظلال شبح الموت عنها

أطلق زفرة حارة ثم أشاح بوجهه في الاتجاه الآخر محملقاً في الفراغ كأنه يخاطب شخصاً غير مرئي: أرجوك سيد جيلبرتو أريد أن أنهي هذا الأمر بأسرع وقت ممكن .. أريد أن أعتذر من شقيقتي إذا كان اعتذاري منها سيريح روحها ويجعلها تكف عن إلحاق الأذى بي وبعائلتي .. أرجوك أبدأ بأقصى سرعة لم يجد جيلبرتو جدوى من الحديث وانصاع إلى أوامر إدوارد فملئ رئتيه بنفس عميق ثم وضع الورقة بشكل مستوي في الإناء بحيث لا يتخطاها منسوب الماء فيغرقها أو تبتل أطرافها، التفت إلى شماعة خشبية ضخمة نقلها إدوارد بواسطة أحد الخدم من الدور العلوي إلى القبو حيث موضعهم الآن في سرية تامة كما اعتمد على نفسه في مهمة الحصول على ثوباً لشقيقته من خزانة ملابسها دون إخبار أحد بذلك حتى يستطيع جيلبرتو القيام بعمله على أكمل وجه بعد أن قام بإسناد هذا الثوب الأسود اللون إلى تلك الشماعة الخشبية من أعلى فبدا وكأن أحدهم يرتديه لكن بعد أن تم تفريغ الهواء والسوائل من جسده فالتصقت جوانبه ببعضها البعض.

رنا جيلبرتو بنظره إلى مساعده الفتى الغض الذي لا يفارقه إلا في سويعات نومه المعدودة فالتقط الفتى الإشارة سريعاً وبدأ في اتخاذ موقعه حول المنضدة بعد أن أطفأ الأنوار من حولهم فطوال الدقائق الماضية كان جامداً كتمثالاً من الشمع في انتظار أوامر سيده للدرجة التي جعلت إدوارد يغفل وجوده معهما ولما كان الأمر لزاماً أن تكون الجلسة بحضور ثلاثتهم لأمر جيلبرتو بإقصاء فتاه عن هذه المهمة فهو يرغب قدر ما يرغب بتقليص عدد الأشخاص اللذين سيشاركونه ذاك الحدث. تشابكت الأيدي بعد أن اتخذ كل منهم مقعداً حول المنضدة يتوسطهم جيلبرتو الذي أضاء ثلاثة شموع متوسطة الطول أحاطت بالإناء الذي توسط المنضدة، أسبل جفنيه وتمتم بكلمات غير مفهومة ثم بدأ صوته يعلو تدريجياً وهو يخاطب وحياً في خياله وجفنيه لا يزالا مطبقين عن عينيه.

«عزيزتنا سيلينا جئنا إليك من الحياة إلى الموت .. استجيبي لنداءاتنا وتواصلي معنا من الموت إلى الحياة»

«عزيزتنا سيلينا جئنا إليك بسبل الحياة فاستجيبي لها وعودي من أحضان الموت»

كرر نداءاته مرات عديدة مل إدوارد من إحصائها متجنباً النظر باتجاهه فكان يوزع نظراته ما بين الفتى الأبنوسي الذي تصلبت حواسه كلها وتصلب معها كل تعبير بوجهه وما بين انعكاس خيالات أضواء الشموع على الجدران حتى تجمدت حركته عندما اعتصرت كفه قبضة جيلبرتو بشكل مخيف ذكره بتلك القبضة التي أطبقت على كتفه منذ أيام.

التفت مفزوعاً لتزداد ضربات قلبه أضعافاً عندما وجد عيني جيلبرتو اللتان كانتا مسبلتان وقد اتسعتا عن آخرهما وجحظت حدقتيه بشكل أرعب حواسه فخيل إليه أنهما قد يقفزا فجأة من محجريهما دون أية مقدمات، أراد أن يكذب عينيه حين وجد الورقة تتحرك بشكل دائري على سطح الماء القابع بالإناء لكن عينيه لم توافقه على ذلك وصعقتاه بمرأى ثوب أخته وقد اتسعت ثناياته وانتفخت جوانبه كما لو أنها قد قامت بارتدائه فاتخذ زوايا ومنحنيات جسدها دون أن تبرز رأسها من أعلاه أو كفيها من طرفي أكمامه.

التفت إلى جيلبرتو فوجد حدقتاه اختفيتا تماماً من محيط عينيه وطغى عليهما اللون الأبيض فقط لا غير وبدأت تصدر منه أصواتاً محشرجة على الرغم من كون فمه مطبقاً

خيل إليه للحظة أن الثوب قد دبت فيه الحياة وبدأ يتحرك بالفعل باتجاهه وصار الموقف أكثر من طاقة احتماله عندما وجد أكمام الثوب ترتفع لأعلى فانهارت أعصابه تماماً خاصة عندما لاحظ تفتت شرائح الخبز إلى كسرات صغيرة بأطراف النجمة السداسية التي أخذت أضلعها في التآكل تباعاً عندئذ انهار تماماً ودون أية مقدمات وبلا إرادة منه قام بسحب يديه من كفي جيلبرتو وفتاه في آنٍ واحد.

انطفأت الشموع فجأة وتحركت ريحاً عاتية من خلال الثوب بعد أن انتفخ عن آخره ومرت من فوق رؤوسهم مباشرة محدثة دوياً هائلاً كأن عاصفة قوية مشبعة برائحة اللحم المحترق قد آتت عليهم في تلك الحجرة واستشاطت بقايا شرائح الخبز وأزكمت رائحة احتراقها أنفه ثم استحالت غباراً أسود اللون تناثر على أطراف الطاولة الخشبية قبل أن تأكلها النيران حينها انتفض على شهقة عالية آتته من خلفه مباشرة منطلقة من حنجرة جيلبرتو بقوة قبل أن يغشى عليه وتسقط رأسه أمامه على المنضدة فترتطم بها في عنف.

انتفض أجيلاس الصبي الأسمر واقترب من سيده بجزع شديد وقلبه ينتفض خوفاً أن يكون قد أصابه مكروهاً من جراء قطع الاتصال الروحي بهذا الشكل المفاجئ.

وجد جسده وقد صار بارداً تماماً وأنفاسه أصبحت واهنة فالتفت إلى إدوارد الذي تصلب بجانب كبس الكهرباء بعد أن أخمد بقايا النيران التي اشتعلت سريعاً وانطفأت بصورة أسرع، أضاء أنوار القبو ونظر إليهما ملتمساً بنفسه نتيجة تسرعه وإقدامه على أمر لا قبل له به فلم يحسن التصرف بصدده ولم يحتسب عواقبه ومن جراء ذلك يعض بنان ندمه الآن فما هي إلا لحظات من الصمت المطبق شقها صوتاً يشبه الخوار صدر عن أنف جيلبرتو الأفطس قبل أن يخفت قبس الحياة عن جسده النحيل ويتلاشى بشكل نهائي.

استدار بعينين دامعتين ينظر باتجاه إدوارد في ذهول ثم ما لبث أن تبدد ذهوله وتحول إلى غضب عارم فاقترب منه محاولاً أن يحكم الخناق على طرفي قميصه بكفيه الصغيرتين فانتزع إدوارد نفسه من بين يديه ودفعه بعيداً عنه في قوة؛ تبعثرت خصلات شعره الناعمة على جبهته إثر تدافعه مع أجيلاس وأخذ صدره يعلو ويهبط وعيناه تدوران في الأرجاء لا يدري بالفعل ما العمل فجيلبرتو قد صار ميتاً لا محالة وقد يكون هو المتسبب في موته المفاجئ على هذا النحو.

فرك جبهته بقبضة يده وهو في حيرة شديدة من أمره بينما أصاب أجيلاس الوجوم وظل ينقل نظراته ما بين سيده الذي صار جثة هامدة وما بين إدوارد الذي هو على

يقين تام بأنه بشكل أو بآخر كان سبباً في موت جيلبرتو لكنه لا يملك دليلاً قاطعاً يعزز اتهامه له وفي نهاية الأمر هو مجرد صبي يتيم مسكين لا قبل له بمواجهة الأسياد والكبراء.

على الرغم من أطنان الحقد والكراهية التي كانت تعتمل في نفس أجيلاس تجاه إدوارد إلا أنه وبدافع من الخوف الشديد وجد نفسه منصاعاً لأوامره عندما دفعه من كتفه ليساعده على حمل الجسد النحيل معاوناً إياه على إقصاء جثة سيده بعيداً عن أرجاء القصر بعد أن تركه وحيداً بجوارها واختفى لفترة من الزمن ثم عاد لاحقاً بعد أن خفتت حركة سكان القصر وأسلم معظمهم روحه للنعاس.

انطلقا إلى ركن قصي بأطراف المنطقة المقفرة التي تحيط بسياج القصر ثم أخرج إدوارد أدوات الحفر وناوله إياها بتعال، استسلم أجيلاس وكأنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً وأخذ يعمل على شق الأرض من أمامه حتى تتسع لجسد سيده بما تسمح به قواه الهزيلة المنهكة وبمجرد ما أن تراءى لإدوارد أنه قد انتهى من عمله أودع جثة جيلبرتو الهامدة بلا حراك بباطنها ثم أهال عليها التراب.

استدار ينظر إلى عيني أجيلاس وقد ارتسمت على ملامح وجهه أشد التعبيرات غلظة وأكثرها تخويفاً وهو يقوم بتهديده بأنه لن يتوانى عن تحضير هوة أخرى يدفنه بها حياً بجوار معلمه في حال أنه باح إلى أحد بما حدث اليوم ثم دس يده في جيب معطفه وأخرج بعض الفئات النقدية أعطاها إياه وهو يأمره أن يختفي من أمامه في الحال بلا رجعة وأعقب بجمود أنه سيكون من سوء حظه أن يلمحه مرة أخرى بحياته لأنها ستكون المرة الأخيرة بلا شك.

ركض الصبي بكل ما سمحت له قوى جسده النحيل المستنزفة من أعمال الحفر وهو لا يصدق أنه بات مشرداً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقد الملاذ والأمان؛ حتى طريق العودة ضله وفقد السبيل إليه في تلك المنطقة المهجورة، نظر إلى الأوراق المالية بيده وشعر أنها لا تساوي شيئاً ولا تملك أن تعيد إليه أياً مما فقده.

جلس أرضاً يبكي وهو ينظر إلى القصر المنيف الذي لاح له في الأفق عن بعد وبداخله يقيناً تاماً أن دفن سيده لم يكن لينهي المتاعب أو يوصد الباب دونها فشقاء صاحب القصر لن ينتهي بسهولة وموت جيلبرتو بتلك الصورة المفاجئة يعني أن هناك باباً من أبواب الجحيم قد انفتح أمامه لا محالة.

***

ازدادت حالة آنيتا سوءاً وصارت أقرب إلى شبح منها إلى إنسان، أصبحت تعتمد على مربيتها بشكل كلي فهي من تطعمها وتسقيها حتى قضاء حاجتها إذا لم تساعدها دي مورييه في ذلك لم تستطع القيام به وحدها، كان أمرها قد ثقل على والديها حتى أوكلوه كليةً إلى دي مورييه التي قايضتهم على ذلك مقابل أن يأتي زوجها للمعيشة معها بحجرتها بالأسفل فلم يجدا غضاضة في ذلك على الرغم من كونهما قد عارضاه بشدة منذ شهور حين أخبرتهما بأمر زواجها؛ فوجود دي مورييه حالياً بشكل دائم يريحهما من تكفل عناء العناية بآنيتا التي أصبحت حالتها المتدنية عبئاً ثقيلاً لا قبل لهما به.

كانت ألكسندرا بطبيعة الحال تمقت دي مورييه وازداد مقتها لها حين وجدت بطنها ترتفع أمامها معلنة كونها ستصبح أماً في غضون أشهر قليلة، فإبقائها عليها في البداية كان اختيارياً ومن أجل رعاية ابنتها وسرعان ما أصبح إجبارياً بعد أن تعلقت ابنتها بها بشكل مرضي وصار في الآونة الأخيرة أمراً واقعاً لا حيلة لها في قبوله أو رفضه بعد أن تدهورت حالة ابنتها وأصبحت آنيتا تبدو كالخرقة البالية دون رعايتها لها فاستغلت دي مورييه ذلك بدورها وأصبحت تملي شروطها الواحد تلو الآخر وتطالب بأضعاف أجرها عوضاً لها عن كونها تعمل بشكل مكثف خلال أشهر حملها، ولا تجد ألكسندرا نفسها إلا منصاعة لأوامر هذا الكائن الذي تعرف أنه لا يكن لها إلا كل كراهية ومقت حالها معها هي الأخرى.

نظرت بتعالي إلى الخدم بالمطبخ وأمرتهم من طرف أنفها كما اعتادت أن تخاطبهم بإنهاء مهامهم في إعداد طعام الغداء سريعاً فسيد الدار على وشك العودة من الخارج ومزاجه قد أصبح بائساً في الأشهر الأخيرة ولا داعي لاستفزاز مشاعره ببعض التأخير وإلا سيكون مصيرهم جميعاً الطرد خارج جنبات القصر.

دلفت إلى المصعد الذي يربط هذا المطبخ السفلي بالأدوار العليا وأخذت ترمقهم بكراهية من خلال الزجاج الذي يتوسط الأبواب الخشبية التي جذبها أحد الخدم للخارج لينغلق المصعد عليها من الداخل حتى يقلها للأعلى.

لم تكن تدري سبباً منطقياً يدفعها لكراهية الخدم هكذا أو حتى سبباً لمقتها لدي مورييه على هذا النحو الشديد بالرغم من أنها تسدي إليها معروفاً بحمل ثقل عبء ابنتها عن كتفيها، لكنها حقيقةً قد اعتادت طيلة عمرها على ألا تحمل في قلبها قدر من المشاعر بخلاف الأنانية وحب الذات الشديدين، هكذا نشأت وترعرعت على ألا ترى في المرآة سواها حتى ابنتها لا تستطيع أن تضعها في مرتبة متقدمة في قائمة أولوياتها بحيث تتفوق على حبها لنفسها وتقديسها لذاتها ولا

تستطيع أن ترأف لحالها أو تتعاطف معه مثلما أصبحت تتعاطف مع حال نفسها كونها أصبحت أماً لإبنة في الثالثة عشر من عمرها بينما سلوكياتها لا ترقى لسلوك طفلة بالثالثة من عمرها وما ينجم عن ذلك من تصرفات شائنة تضعها بمواقف محرجة أمام دائرة معارفها.

توقف المصعد فجأة بعد أن غابت تفاصيل المطبخ عن مرآها فزفرت في ضيق من إهمال زوجها في الآونة الأخيرة لشئون القصر وتغير طبائعه بشكل أصبح يزعجها، رفعت صوتها بالنداء على الخدم ليستطلع أحدهم سبب هذا العطل المفاجئ عندما هاجمتها ريحاً قوية جعلت جسدها يتراجع إلى الخلف عنوة حتى ارتطم بجدار المصعد الخلفي وآذى ظهرها كثيراً هذا الارتطام والذي أعقبه سقوطها أرضاً. حاولت أن تتحامل على نفسها حتى تنتصب قامتها بالوقوف فوجدت إضاءة المصباح الذي يتوسط سقف المصعد قد أخذت في الارتعاش حتى انطفأت أخيراً، وقع قلبها في نهاية أضلعها وأخذت تصرخ بانهيار ليساعدها أحد فتناهى إلى سمعها أصوات الخدم بالأسفل يخبرونها بأنهم يحاولون مساعدتها بالفعل لكن المصعد متوقف تماماً ولا يستجيب لأياً من محاولاتهم.

كان الظلام دامساً والرؤية مستحيلة تماماً مما جعل حاسة السمع لديها تنشط لدرجة مخيفة جعلتها تتخيل همسات خاطفة بجوار أذنيها فأخذت تدور حول نفسها والهواجس تفترسها خوفاً وقلقاً.

تجمدت الدماء في عروقها عندما اصطدمت بشيء تمركز في منتصف المصعد فصرخت في فزع وصاحب صرختها أن عاد المصباح للعمل، بنفس الوقت استأنف المصعد تحركه لكن نزولاً إلى الأسفل وبمنتهى البطء وقد صار هدير محركاته عالياً لدرجة تصم الأذان، لم تتوقف عن الصراخ وكل ما حولها يحرق أعصابها ويضغطها نفسياً وماهي إلا لحظات وتوقف كل شيء مرة أخرى؛ الإضاءة؛ المصعد؛ وهدير المحركات. كانت الإضاءة المنبعثة من المطبخ بالأسفل قد بدأت تتسلل إليها بالداخل فأخذت تصرخ فيهم وتوبخهم وهي تنعتهم بأسوأ الصفات لتقاعسهم عن مساعدتها وتكيل لهم التهديد والوعيد إن هم لم يهبوا لنجدتها في الحال ستصليهم ألوان العذاب وتجعلهم يرحلون إلى بلادهم مشياً على الأقدام ليتسولوا هناك فتات الطعام.

حين توقفت عن الصراخ؛ عادت الهمسات الخاطفة تتسلل إلى أسماعها وتعذب كيانها في قسوة فانهارت في البكاء وحاولت جذب البابين الخشبيين بكلتا يديها فوجدتهما لا يستجيبا وكأنهما قد التحما ببعضهما البعض أو أن يداً غليظة أحكمت إغلاقهما حتى لا يخضعا لمحاولاتها اليائسة.

تحرك المصعد لأسفل لثانيتين إضافيتين فبدأت تلمح رؤوس العاملين بالأسفل ثم توقف مرة أخرى وكأن هناك شخصاً ما يرقب الموقف ويمعن في إذلالها وقد أخذت تتضرع إلى الله أن يمد لها يد العون وقد صارت الهمسات تتردد من حولها في صخب حتى صارت أشبه بالصراخ كل هذا ولم تتوقف يداها المرتعشتان عن محاولة جذب البابين في يأس وقد تبدلت لهجة التهديد والوعيد وبدأت تميل إلى الاستعطاف التذلل والتوسل إلى الخدم بالأسفل كي يمدوا لها يد الغوث.

نجحت محاولاتها اليائسة أخيراً وأفلت البابين من بعضهما البعض فاندفع جسدها على أثر استجابتهما المفاجئة لقوة جذب كفيها إلى الخلف لتجد نفسها ترتطم بشيئاً ما وقف خلفها مباشرة فلم تملك من أرصدة الشجاعة ما يدفعها لمواجهته أو حتى لتبين كنيته فقفزت على الفور بنصف جسدها إلى خارج المصعد وتدلت ساقيها في الهواء خارجه وقبل أن تكمل الزحف بباقي جسدها وجدت صوتاً يصرخ في أذنها ويتوعدها بالعذاب فلم تلتفت إلى مصدره واستمرت في الانزلاق إلى الخارج بباقي جسدها، لحظات وتحرك المصعد فجأة بسرعة خاطفة فاجتاحت الألآم المبرحة جسدها وارتفع أنين الصرخات المعذبة من حلقها بينما احتكاك حافة المصعد بعظام جسدها تصدر قرقعة عظيمة قبل أن يتوقف كل شيء في لحظة ويتدلى نصف جسدها السفلي بالمطبخ في الأسفل وسط صرخات الخدم بينما النصف الآخر معلق بالمصعد وقد اتسعت حدقتاها وجحظت عيناها وفمها مفتوحاً عن آخره أما شعرها الأشقر الرائع فقد صار شيبه ينافس في شدة نصوعه بياض الجليد بقمم جبال الألب.

***

ساءت أمور إدوارد كثيراً، يغمض عينيه ليلاً فيسمع الخطوات بالخارج لا تتوقف إلا إذا فتح عينيه مرة أخرى، يتكالب عليه التعب فينام قليلاً رغماً عنه ليفزع على طرقات شديدة بالأبواب وهمهمات سريعة غير مفهومة تمرق بجوار أذنيه؛ قاطع النوم أجفانه وإن تعاطف مع حاله وزاره بآخر الليل هاجمته الكوابيس المخيفة وأيقظته فزعاً من سباته ليكتشف أنه صار وحيداً تماماً فحتى زوجته التي كان يسكن إلى جوارها في فزعه لم تعد موجودة وقد لملم أشلائها بيديه ووارى جسدها الجميل التراب بعد أن انقسم إلى نصفين.

كان يخشى الوحدة ويهابها منذ أن كان طفلاً وكانا أبويه يعلمان ذلك وحاولا مراراً درء تلك المخاوف المرضية عن نفسه لكن لم يفلحا فتركا الأمر للأيام تعالجه فلم تفلح بدورها فحاربه هو بالزواج مبكراً واستقوى بوجود ألكسندرا الدائم بجواره

على خوفه من الوحدة وحرص على البقاء في تجمعات كبيرة طيلة الوقت والاستعانة بأعداد من الخدم في أي مكان يقيم به، لكنه اليوم يجد خوفه وقد تغذى على الأحداث التي تعصف بحياته واستعظم فاستفحل وسيطر على روحه تماماً.

زارهم شبح الموت في ليلة وفاة أخته وأبى ألا يرحل إلا وقد حصد المزيد من الأرواح، سيلينا؛ جيلبرتو؛ ألكسندرا وها هي دي مورييه تلحق بهم هذا الصباح بعد أن وضعت مولودها بشهرها السابع ليتوقف قلبها فجأة وبدون سابق إنذار وتلقى حتفها في التو واللحظة وقد ارتسمت على وجهها علامات الهلع والارتياع.

استدعته الخادمة التي كانت تساعدها حين أتاها المخاض فوجد أبشع تعبير من الممكن أن يرتسم على وجوه الأموات وقد انطبع على ملامحها الجميلة، أعادت إليه ذكرى زوجته التي مر على رحيلها شهرين وقد كان جحوظ عينيها والانطباع الذي ارتسم على ملامح وجهها كهذا الانطباع المخيف الذي يراه أمامه الآن والشيب الذي زحف على خصلات شعر دي مورييه البنية أثناء لحظات احتضارها لم يختلف بكثير عن ذلك الذي بدا على ألكسندرا وقت موتها.

ماتت دي مورييه واختفى وليدها مع أبيه الذي أصابه الجنون حين رآها هكذا، لا يستكثر عليه الجنون فما يحدث في القصر صار أقرب ما يكون إلى الجنون ولا يجد حقاً سبباً لبقائه به حتى الآن وقد هجره معظم الخدم ولم يتبقى منهم سوى القليل اللذين وجدوا في مغالاته في الكرم معهم بالآونة الأخيرة دافعاً قوياً ليتجاهلوا أصوات الصرخات التي يضج بها القصر ليلاً والظلال التي تنتشر على الحوائط ويعقبها بقع من الدماء تظهر سريعاً وتتلاشى سريعاً.

طوال الوقت يراوده شعوراً قوياً أن هناك من يقوم بمراقبته ويعد عليه أنفاسه ليلاً ونهاراً، يلتمس وجوده لكن لا يراه؛ يسمع همساته بآذانه ويشعر بأنفاسه في المكان من حوله لكن يلتفت إليه فجأة فلا يجد إلا الخواء، إذا أمسك كتاباً يقرأه رأي ظلاله من فوق أكتافه تنعكس على صفحات الكتاب أمامه فيلتفت خلفه ولا يجده، إذا صعد السلم سمع خطواته تتبعه فيستدير ليجد الفراغ من حوله، إذا أغمض عينيه محاولاً النوم شعر به يرمقه في كراهية فيفتح عينيه مفزوعاً خوفاً من أن يجهز على أنفاسه أثناء نومه.

أصابه مساً من الجنون وصار يترقب ذلك الشيء وينقب عن آثار وجوده من حوله وبداخله يقين تام أنه سيوقع به الأذى حتماً لا مفر؛ لكن متى وكيف؛ هو لا يدري؛ وإن رغب حقاً في أن يكون ذلك بأسرع ما يمكن حتى يتخلص من عذاباته التي

أصبحت لا تحتمل.

انقطع سيل أفكاره البائسة عند هذا الحد حين قطع عليه صمت خلوته صخب الأيادي التي تطرق بابه بجنون، انتفض فزعاً وقبل أن يسمح للطارق بالدخول وجد اثنان من الخدم يندفعان إلى حجرته وإحداهما تصرخ في لوعة بإسم ابنته، قفز عن مقعده في سرعة شهاب ثاقب وركض خلفهما حتى اقترب من حجرة ابنته فتوقف رغماً عنه وتجمدت أطرافه حين رأى جسدها يتدلى من السقف وقد التف حبلاً غليظاً حول عنقها وأحكمت وثاقه إلى الثريا التي تتدلى من منتصف سقف الغرفة.

كانت لا تزال على قيد الحياة فقد أسندت طرفي قدميها إلى مقعد خشبي مستدير ارتكزت إليه بثقل جسدها أسفل الثريا تحديداً لكن الجميع كان يرقب الموقف عن بعد ويخشى الاقتراب منها حتى لا تدفع المقعد بإحدى قدميها وتلقى حتفها على الفور.

حاول أن يقترب منها فوجدها تصرخ به كي يلزم موقعه عند طرف الباب وليبقى الجميع بأماكنهم ويتفادوا الاقتراب منها؛ فانصاعوا جميعاً لأوامرها راغمين.

رفع عينين دامعتين إليها وهو يكاد لا يصدق، لم تطرب أذنيه لسماع صوتها منذ أشهر طويلة حتى أيقن أن الخرس قد أصابها وتمكن من أحبالها الصوتية، بل والأكثر أنه لم يراها تتحرك من فراشها أو تغادر حجرتها منذ أمد واليوم بدلاً من أن يروي ظمأ اشتياقه إلى سماع صوتها ورؤيتها تتحرك يكن له ما تمنى لكن على هذا النحو القاسي.

رفع رأسه ينظر إليها وهو يقول من وسط ذهوله: آنيتا .. ابنتي الحبيبة .. أرجوك أمهليني الفرصة لأساعدك .. أنا أبيك .. لم أعد امتلك من العالم سواكي .. أنا مستعد للتضحية بكل ما أوتيت من ثروات كي أستعيدك واستعيد أفراد عائلتي .. صدقيني حبيبتي .. لن أستطيع أن أحيا وحيداً دونك .. صدقيني .. طيلة الفترة الماضية لم يكن يبقيني على قيد الحياة سوى أنكي هنا .. أرجوك لا تتركيني

لشهور لم يراها باسمة بل لم يرى نظراتها ثابتة بهذا القدر وهي تلتفت إليه وتقول من خلال ابتسامتها التي تبدو من النضج بحيث لا تتناسب مع سنوات عمرها: أبي .. لا تبكي .. ولا تنتظر بهذا القصر فهو ملعون .. أنا أعلم الحقيقة كاملة وأعرف أن دي مورييه كانت تحاول إغوائك بشتى الطرق .. هي لم تكن تحبك لكنها كانت تعشق المال وسطوته .. أعرف أنك قاومتها رغم ضعفك البشري لأنك كنت تحب

أمي كثيراً لكن لا أعلم إن كان سوء حظها أم سوء حظي هو ما دفعني لأن أسترق السمع إلى حديثكما بحجرة مكتبك قبل أن تموت عمتي بأيام وكانت حينها تخضع لك بالقول وتحاول أن تجعل قلبك يميل لها بشتى الطرق فواجهتها بذلك حين طرقت باب غرفتي وهددتها بأني سأخبر أمي وأن إبقاءك عليها بالمنزل من أجلي أنا فقط وإذا أنا رغبت بعدم وجودها سترحل على الفور .. ورغم أنني كنت أحبها بالفعل وأجد في اهتمامها بي عوضاً عن إهمال أمي لي وعدم اكتراثها لأمري إلا أنني أخبرتها أني سأطلب منك ومن أمي أن تطرداها حتى لا تهدد كيان أسرتنا مرة أخرى.
ارتسمت الدهشة على وجوه المحيطين بأبيها فلم تلتفت إليهم وأكملت حديثها الموجه إليه: دي مورييه باعت روحها للشيطان الذي تقدسه وتستعين به على قضاء حوائجها .. كان إحكام سيطرتها علي بأعمال السحر الأسود الذي تتقنه هو الحل الأمثل لها فقد ضمنت إبقائي صامتة وعدم افتضاحي لأمرها وضمنت أيضاً إبقاءكما عليها بالقصر لاحتياجكما الشديد لها .. فأصبح مرضي الغير معلل ذريعة قوية لوجودها الدائم وكفت هي عن محاولات إغوائك بعد أن ضمنت الامتثال لكافة رغباتها دون عناء وكان لها ما أرادت فأغدقتما عليها بالأموال من أجلي وضمنت بقاءها بالقصر دون تهديد .. والأهم من ذلك خضوعك التام لها أنت وأمي بعد أن فشلت في فعل ذلك بسحرها فأياً منكما لم يكن ليثق بتناول الطعام أو الشراب من يديها على عكسي أنا التي أسلمت لها روحي بنفسي عن غير قصد وابتلعت سحرها بجوفي وسرت سمومها بعروقي بكامل إرادتي لثقتي اللامتناهية بها حينها.

التقطت أنفاسها ثم أكملت معاتبة: لقد أهملتني يا أبي انت وأمي وتركتا كافة شئوني لها تعبث بها كما تشاء وانشغلتما بأمور ثروتكما وعلاقاتكم بذوي النفوذ والسلطة وتناسيتما احتياجي الشديد إليكما .. أغفلتما حتى إحكام الرقابة على من تتولى أموري حتى أصبحت أسيرة معتقداتها الشاذة .. واليوم فقط تحررت من سطوتها بعد أن ماتت لكني لن أستطيع أن أحيا حياة طبيعية كأي فتاة بمثل عمري فقد باعت روحي للشيطان ووقعت صك عبوديتي الأزلية له بدمائي .. لن يتركني أبداً .. سيظل محتلاً جسدي ومسيطراً عليه .. لا سبيل لدي للهرب من شروره سوى بالموت .. أرجوك يا أبي اهرب من هذا القصر بكل ما أوتيت من قوة .. اهرب الآن .. اهرب.

كانت في غاية الفزع وهي تنطق جملتها الأخيرة وعيناها ثابتتان تنظران إلى أعماق عينيه مباشرة وكأنها تقصد التغلغل بتحذيراتها إلى داخل نفسه لا أن تخترق أذنيه فقط، تاه في التفاصيل المذهلة التي حواها حديثها ليجدها تفاجئه وتقوم بركل المقعد من تحت قدميها في لحظة خاطفة وقبل أن يهم بالتحرك نحوها وقد شل

حديثها تفكيره وجمد حركته كان جسدها ينتفض كالذبيحة التي تعاني سكرات الموت قبل أن تفارقها الروح تماماً ويتدلى جسدها الساكن يتأرجح في بطء أمام عينيه الذاهلتين.

قبل أن يقوى على استيعاب الأمر كان المتبقي من الخدم حوله قد لاذوا بالفرار إلى خارج القصر بعد أن استمعوا بأنفسهم إلى كلمات أنيتا المحذرة فوجد نفسه وحيداً يتوسط الردهة الواسعة للقصر بالأسفل وينادي على الجميع فلا يجيبه إلا أصداء السكون من حوله ركض في كل الاتجاهات وقد تحقق أسوأ كوابيسه؛ أن يجد نفسه وحيداً في هذا القصر وهو الذي يخشى الوحدة أكثر من أي شيء آخر بالحياة.

ركض إلى حديقة القصر بالخارج يستطلع أمر أحد الخدم ليعاونه على إنزال جثة ابنته كي يقوم بدفنها إلى جوار والدتها بشكل لائق وبعدها يغادر القصر على الفور كما طلبت منه ابنته لكنه لم يجد أثراً لأياً منهم، عاد أدراجه والحزن يعتصر قلبه ولم يجد بديلاً لقيامه هو بنفسه بإنزال جثمان ابنته الوحيدة واحتضانه حتى مثواه الأخير وما أصعب على النفس من ذلك فأخذ يجر قدميه صاعداً إلى حجرتها وحده. استرعى انتباهه كون الباب مواربا وقد تركه مفتوحاً قبل سابق حين هم بالركض خلف الخدم ناشداً تعاطفهم معه في البقاء جواره لدقائق إضافية، دفع الباب بحذر وقلبه يرتجف ليصدمه اختفاء ابنته التي ترك جسدها هامداً معلقاً إلى السقف منذ وهلة، قبل أن يتوغل للداخل ليستطلع الأمر فوجئ بريح قوية تدفعه من الخلف فاندفع تحت أمرتها ليرتطم بالحائط الأقرب له بسائر جسده حتى آلمته عظامه وعندما استدار ليتفقد مصدر تلك الريح سكن كل شيء في لحظات.

***

بالصباح كان رجال الشرطة ينتشرون في أرجاء القصر وقد قام أحد الخدم بإبلاغ الشرطة عن واقعة انتحار آنيتا خشية أن يتعرض سيدهم للمساءلة القانونية ولا يوجد حينها معه شهوداً يقرون واقعة انتحار ابنته أمامهم. بمجرد أن ترجل أحد رجال الشرطة إلى الطابق العلوي حيث مسرح الجريمة وجد جسد آنيتا الصغير يتأرجح يميناً ويساراً بمنتصف سقف الغرفة ووجد جسداً آخر متكوماً على نفسه بجوار الجدار المقابل وعندما اقترب يتفحصه وجده سيد الدار وقد ارتسمت معالم الفزع والخوف على وجهه واتسعت عيناه عن آخرهما وجحظت حدقتاه وقد ضرب الشيب منابت الشعر في رأسه من الجذور حتى الأطراف فصار كحفنة قطن ناصعة البياض بعثرت على أرجاء رأسه.

***

(٢)
أسعى

تقودنا الحياة إلى دروبها لا ندري إلى أي درب نسير .. نقنع أنفسنا أننا من نقود ومن نقرر مصائرنا لكن المصائر هي التي تقرِّر لنا .. لأنها قد كتبت علينا بشكل مسبق

مارس ١٩٩٧

"أعزاءي المشاهدين سعدنا بلقائكم ونرجو أن نكون قد أسعدناكم على وعد بلقاء آخر في الأسبوع القادم وبرنامجكم المفضل حكايات العاصمة

كان معكم وعلى مدار ساعة كاملة من الهندسة الصوتية ياسر عبد العال ومن أسرة الإعداد شاهندة يماني .. مدير التصوير راجي المنزلاوي ومن أسرة الإخراج عاصم فريد .. و .. طارق الحناوي .. أشوفكم الأسبوع الجاي .. أرق تحياتي .. أسمى نصار .. تصبحوا على خير"

اتسعت ابتسامتها وهي تلقي بتلك الديباجة التي تختتم بها حلقتها الأسبوعية، ظلت متمسكة بتلك الابتسامة التي تتألق ببريق الثقة والاعتزاز بالنفس على شفتيها حتى خفتت الأضواء من حولها وأتاها صوت مخرج البرنامج معلناً انتهاء البث المباشر وانتقال البث إلى الاستديو هات الأرضية.

لم يكن طارق المخرج التلفزيوني المعروف والقائم على رئاسة طاقم إخراج برنامجها الأسبوعي ليخلف عادته الأثيرة معها بنهاية كل حلقة بالإطراء على أدائها من خلال مكبر الصوت على مسمع من طاقم العمل أجمع ولم تكن هي لتجيبه إلا بنفس الابتسامة الرقيقة وبعض كلمات المجاملة التي تنم على أن الفضل في نجاح تلك الحلقة وغيرها من حلقات البرنامج ككل يرجع إليهم جميعاً.

جمعت الأوراق المبعثرة أمامها وأخرجت قلماً من بينها ترفع به شعرها المصبوغ باللون الأشقر والذي تناثرت خصلاته ذات الطول المتوسط التي تقترب من طرف كتفيها والتفت حول وجهها بشكل دائري فأخذت تلملمهم جميعاً في اتجاه حلزوني بمساعدة هذا القلم حتى تقلل من تلك الحرارة التي انبعثت في سائر جسدها بفضل كثافة شعرها بالإضافة إلى الإضاءة المبهرة التي تنصب على وجهها طوال فترة التصوير فتستفز الشعيرات الدموية في بشرتها وتجعلها تتوهج فتقاوم بقوة تلك الرغبة اللعينة بالاستجابة لهذه الحكة المزعجة التي تهاجمها بين آن وآخر والتي يزيد من فرص مهاجمتها لها هذا الكم الهائل من مساحيق التجميل التي تجبرها مهنتها والأضواء المسلطة عليها على الالتزام بها طوال فترة التصوير.

استفز أنفها شذى عطراً تعشقه فتركت الأوراق بيديها ورفعت رأسها إلى أعلى تطالع تلك القامة العالية ذات الطول الملحوظ التي اصطبغت بلون قمحي جذاب غطى تفاصيل وجهاً مستطيلاً تنطق جميع ملامحه بالوسامة فلم تكن ملامحه

بالضخمة لكنها كانت متناهية الدقة بداية من عينيه الصغيرتين اللتان يشبها في لونهما الحشائش الندية في بداية صباح مشمس وتلك الأنف الدقيقة التي تعلو شفتين صغيرتين يتوسط ذقنه من أسفلهما طابع حسن متناهي الصغر لكنه بارز ويزداد بروزه حين يبتسم تلك الابتسامة المشرقة من بين صفي أسنانه اللامع.

اعتدلت واقفة واقتربت تتخلل بأصابعها الرقيقة خصلات شعره البنية الناعمة التي تراصت في أناقة فوق مقدمة جبهته ثم انزلقت بأناملها تعدل من وضعية ربطة عنقه الحريرية التي برزت من مقدمة سترته الصوفية الأنيقة قبل أن تميل باتجاهه لتطبع قبلة حنون على خده الأيمن.

أحاط خصرها بذراعيه هامساً بأذنها أنها تبدو فاتنة بهذا الثوب الأزرق فوجدها تبتعد خطوتان للخلف وقد اعتلى وجهها حمرة الخجل حين شعرت أن العيون من حولهما ترقب هذا المشهد وتتابع تفاصيله بفضول فاضح فغمزت له بطرف عينها ولملمت أوراقها ثم تأبطت ذراعه في طريقهما للخارج.

***

وقفت أمام المرآة تمشط شعرها الندي بعد أن أفرغت شحنات توترها أسفل زخات المياه الدافئة، أخذت تتأمل أطرافه التي تقصفت من أثر حرارة السيشوار التي تضطر إلى الاستسلام إليها تحت دواعي إمرة العمل، بشرتها أيضاً تبدو شاحبة إلى حد كبير فهي تنهكها كثيراً بالسهر المتواصل وتؤذيها بكثرة استخدام مساحيق الزينة رغم كونها على ثقة بأن تلك المواد الكيميائية ستتسبب في شيخوخة بشرتها قبل أن يحين الموعد الرسمي لذلك لكنها ضرورات العمل التي تبيح كافة المحذورات.

استغرقت في الأفكار ولم تشعر بوجوده بالغرفة إلا عندما اقتربت حرارة جسده من جسدها حين ألصق صدره بظهرها محيطاً خصرها بذراعيه، تأمل ملامحها في المرآة أمامه لثواني ثم همس في أذنها: أقولك على سر .. أنا بحب أسمى دي أكتر

بدورها أخذت تتأمل ملامحها التي قلما تطالعها في المرآة مجردة من أياً من مظاهر الزينة، نظرت إلى عينيها العسليتين وتأملت آثار الإجهاد البادية عليهما بعد إزالة طبقات الكحل والماسكارا عنهما وبالرغم من تقصف أهدابها وتورد جفنيها واحتقانهما لم يقلل ذلك من جمال عينيها في شيء، مرت بأناملها على عظام وجنتيها البارزتان بأناقة وتلك الأنف المستقيمة التي تتوسط وجهاً لم تصبه السمنة أو تلقي عليه بأثارها فرغم الزواج والأطفال لا زالت تحافظ على قوامها كما هو مثالياً فلم

تعاني ملامح بشرتها كثيراً من تداعيات اكتساب المزيد من الكيلو جرامات وخسارتها فيما بعد.

تنهدت رغماً عنها فكل زينات العالم لن تحجب عنها حقيقة أنها قد تخطت الأربعين بعدة أشهر والزمن على وشك إصدار فرمانه القاسي بإعلان عدد سنوات عمرها على ملامح وجهها إلا أن هذا الفرمان يبطل سريانه على زهرة برية قد وهبها الخالق جمالها دون حيلة منها في ذلك؛ فالزهور الجميلة مهما ذبلت تظل أوراقها تحمل بصمات شذى عطرها.

طرقات متتالية تتالت على باب الغرفة انتفضت على أثرها بعد أن كادت تستسلم لمداعباته الناعمة لأذنها وشفتيها فأذنت للطارق بالدخول بعد أن ابتعدت خطوات عنه.

أدار مقبض الباب بصعوبة ودلف إلى الحجرة في منامته التي تبدو كبيرة عليه بعض الشيء نظراً لقصر قامته ونحافة جسده الصغير قبل أن يسألها بصوت خفيض: ماما .. ممكن ألعب بالأتاري شوية قبل ما انام؟؟

أجابت معترضة: مينفعش يا فريد .. الوقت اتأخر وانت لازم تنام حالاً

رد عليها بنبرة توسل: ماما أرجوكي .. ربع ساعة بس وهنام بعد كده على طول

استسلمت لتلك النظرة من هاتين العينين البريئتين لطفل لم يتم سنواته السبع بعد ولم تجد في نفسها الشجاعة لتخذل رجائه فقالت باستسلام وهي تتأمل ملامحه الوديعة التي تشبه إلى حد كبير ملامح والده: ماشي يا فريد .. ربع ساعة بس وبعدها على طول على سريرك .. اتفقنا

لم ينتظر حتى تكمل اتفاقها الذي أبرمته للتو معه وإنما أجاب بالموافقة وهو في طريقه بالفعل لتنفيذ أولى بنود الاتفاق.

كان عاصم على وشك أن يغلق الباب مرة أخرى عندما اعترض طريقه كفاً رقيقة: ثانية واحدة يا بابا معلش .. كنت عايزة أستأذن ماما أقرا شوية قبل ما أنام

لم تتلقى الفتاة الرقيقة ذات الأربعة عشر ربيعاً إجابة إلا بالرفض وقبل أن تعيد المحاولة شأنها شأن أخيها في إلحاحه على تلبية رغباته كان تأكيد الرفض القاطع هو الجواب النهائي لتلك المحادثة التي لم تدم سوى ثوان معدودات انسحبت على

إثرها تجر أذيال الإحباط التي علقت بطرف قميصها الوردي المصنوع من القطيفة وكادت أن تتعثر وهي تمسح بأناملها دمعة رقيقة علقت بأهدابها الطويلة وقد أفلت عائدة بخيبة أملها إلى غرفتها حيث ستودع أحزانها طرف وسادتها

التفت باتجاهها معاتباً: مالكيش حق يا أسمى .. النهاردة الخميس فيها إيه لو كنتي سبتيها تقرا شوية طالما بكرة أجازه

التفتت إلى المرآة تستكمل تمشيط شعرها وردت بلا مبالاة: يا عاصم لو سمحت .. أنا عارفة أنا بعمل إيه .. البنت محتاجة يتشد عليها علشان تلتفت لمذاكرتها .. لو طاوعتها وقولتلها على كل حاجة حاضر هتهمل دراستها

بدا غير مقتنعاً: يا سلام ما انتي ممكن تمنعيها وهيا تعمل اللي هيا عايزاه من وراكي .. انتي ناسية إنها الوقت الأكبر في بيت باباكي ومامتك وانتي عارفة إنهم مبيقولوش لأ للولاد في أي حاجة .. أنا مش موافقك على الطريقة دي زي ما انا مش موافقك برضه على تفريقك في المعاملة ما بين الولاد وبعضهم .. أنا بشوفك معظم الوقت حنينة مع فريد ومبترفضيلوش طلب وطول النهار والليل دلع .. في نفس الوقت انتي العكس تماماً معاها زي متكوني بتحبيه أكتر منها

هزت رأسها نافية وقد انتهت من تمشيط شعرها وقامت عن مقعد الزينة المخملي، شرعت تبدل روب الاستحمام القطني بملابس النوم خلف البارافان الخشبي الذي اتخذ مكانه بزاوية الحجرة وتزينت أطرافه ببعض الرسومات الملونة البارزة لأزهار رقيقة ذات أفرع ممتدة بينما غلب على باقي أجزائه لوناً فاتحاً يشبه لون اللؤلؤ حين يستخرجه الصيادون من المحار تمام كذلك اللون السائد في خزانة الحجرة وفراشها الضخم الذي توسطها والذي تزين صدره بنفس الأزهار الملونة البارزة.

خفت صوتها قليلاً بفعل تواجدها خلف البارافان: لأ طبعا .. الاتنين ولادي والاتنين مكانتهم في قلبي زي بعض .. كل الحكاية إن فريد لسه طفل ومخدش حقه في الدلع والحنية زيها .. هيا لما كانت في سنه خدت حقها تالت ومتلت إنما هوا لما اتولد مشاغلنا كانت زادت ووقتنا قل علشان كده مقدرش أزعله في الحبة الصغيرين اللي بشوفه فيهم .. هوا يا حرام بياخد بواقي اهتمامي ويا عالم هعيش لحد معوضه عن ده ولا هموت وأنا برضه مقصرة معاه.

اكتست نظراته بالجزع: ليه كده يا أسمى .. ليه بتجيبي سيرة الموت دايماً .. بعد الشر عليكي يا حبيبتي .. ربنا يجعل يومي قبل يومك يارب

اقتربت منه معاتبة بعد أن فرغت من تبديل ملابسها وقد ارتدت قميصاً طويلاً من الحرير المطرز وفوقه رداءاً حريرياً له نفس اللون القرمزي الداكن، وضعت كفها فوق شفتيه: بعد الشر عليك .. متقولش كده تاني يا عاصم ..يا إما والله هخاصمك بقية حياتي .. أنا ممكن أتخيل أي حاجة في الدنيا إلا أنك متبقاش معايا .. اخص عليك أنا زعلانة منك بجد

لثم باطن كفها بشفتيه وربت على خدها برفق: وأنا مقدرش على زعلك أبداً .. أنا بس بتضايق لما بلاقينا طول الوقت بنختلف على حاجات الأبدى لينا اننا نتفق فيها زي تربية الولاد مثلاً .. مينفعش يا أسمى أبقى طول الوقت بحاول ابني حاجة والاقيكي طول الوقت بتحاولي تهديها من غير أي اعتبار لرأيي .. أنا عارف انك أمهم وإن عليكي الجزء الأكبر في التربية بس أنا برضه أبوهم مينفعش تهمشي أرائي طول الوقت وتاخدي القرارات بالنيابة عني وتتصرفي معاهم من دماغك كأني مش موجود.. ده حتى الولاد بقوا ياخدوا بالهم ومعدوش بيطلبوا مني حاجة وبقوا يطلبوا منك انتي ويستأذنوكي انتي

همت بأن تعترض فوضع يده على شفتيها: بصي انا عارف إنك هيبقى عندك مليون حجة على أنك طبعا عندك حق وان انا مش قادر افهم وجهة نظرك ولا أقدر موقفك .. عموماً أنا مش هسمع منك ولا كلمة دلوقتي لأني لازم أروح أصالح دودو قبل متروح في النوم علشان مينفعش تنام وهيا زعلانة وهرجعلك بعد كده أوام وقولي يا ستي حججك ومبرراتك للصبح

استدار باتجاه الباب ثم التفت إليها مرة أخرى مرسلاً قبلة في الهواء: أرجع ألاقيكي صاحية .. ها فهماني طبعا وإياك حسك عينك ألاقيكي ماسكة كتاب أو مجلة .. فاهمة يا أسمى إياك أنا قولتلك تاني أهوه وقد أعذر من أنذر .. مش هتأخر عليكي .. بحبك أوي

أغلق الباب خلفه وتوجه صوب غرفة ابنته، على قدر ما كان يختلف معها على قدر ما كان يعلم أنها محقة في الجزء الأكبر من الحديث فإبنته في سن المراهقة وهو يعلم جيداً أن الفتيات في تلك السن ينشغلن بفكرة فارس الأحلام ويتعجلن الوقوع في الحب حتى يدفعهم ذلك التعجل إلى التوهم بحب أي شخص يدخل حياتهن عن طريق الصدفة بغض النظر عن كونه مناسب للحب أم لا ويغضن الطرف تماماً عن كون مشاعرهن لا تزال يافعة لم تنضج بعد ولا يخفي عليه أن الكثير من الشباب يستغل حاجة هؤلاء الفتيات إلى الحب فيروين ظمأ مشاعرهن بزيف الكلمات مستغلين حداثة خبرتهن بأمور العشق والغرام وبعضهم يتمادى في ذلك

الأمر ويوقع الفتاة في شركه فيغتال براءتها وعفتها بإسم الحب الذي يعميها عن كافة ما تربت عليه وترسخ بداخلها فتنجرف لذلك التيار مندفعة ولا تنتبه لفداحة الأمر إلا بعد فوات الأوان أو على أفضل تقدير لا تستفيق من ذلك إلا على جرح غائر في مشاعرها الغضة يظل يوكزها أبد الدهر، لكن وبالرغم من كل علمه بذلك هو على يقين أن الشدة ليست هي الحل المثالي لعبور تلك المرحلة العمرية الحرجة بسلام وأسلوب زوجته الصارم لن يحمي ابنته من خطر الوقوع في براثن قصة حب طائشة غير محسوبة العواقب بالرغم من أنها قد تكون محقة بشأن قلقها البالغ عليها إلا أن التعامل بوسطية في تلك المرحلة الحرجة يعد درباً من دروب الحكمة.

طرق الباب وانتظر فلم يجبه صوتها ففتح الباب برفق ليجد الحجرة غارقة في الظلام، اقترب من فراشها وكبس زر التشغيل الخاص بالمصباح المجاور لها فغمرته الإضاءة الصفراء الناعسة، أدار رأسه يتأمل غرفة ابنته التي تشبه غرف الكثير من الفتيات والفتيان ممن هم بمثل عمرها فقد اكتست الجدران بعشرات الصور لمطربين ومطربات ممن حطموا الأرقام القياسية في مبيعات ألبوماتهم الغنائية كما توسط الجدار الذي يعلو فراشها أفيش ضخم للفيلم الرومانسي تيتانيك واصطفت العديد من الملصقات الأخرى المتباينة الحجم على ظهر سريرها الخشبي ذو اللون البندقي الفاتح.

جلس إلى طرف فراشها يهمس بإسمها حين وجدها قد أخفت مقدمة رأسها ودثرتها بالغطاء فازداد يقينه بأنها لا زالت مستيقظة لكنها لا ترغب بالحديث

ديدي .. دودي .. دودتي .. حبيبة بابا .. أنا عارف إنك صاحية-

مد يده لطرف الغطاء يستطلع أمرها فسمع شهقة مكتومة جعلته ينتزع الغطاء عن رأسها بسرعة فهاله مشهد عينيها المتقرحتين وأجفانها المتورمة

قومي يا حبيبتي متناميش وانتي زعلانة كده مالك بس يا ماما -

ارتمت بين ذراعيه تستكمل بكائها في أحضانه فأخذ يربت على شعرها الناعم ويهدهدها كطفلة صغيرة يلتمس لها النوم برتابة حركاته المتتابعة

- أنا عايز أعرف بس مالك زعلانة من إيه .. أوعي يكون من ماما .. في حد عاقل يزعل من مامته حبيبته برضه .. انتي مش عارفة ماما بتحبك انتي وفريد أد إيه .. انتوا أغلى حاجة عندها في الدنيا دي كلها

ارتفع صوت نشيجها وهي تجيب بأنفاس متلاحقة تتقاطع مع كلماتها: لأ ماما مبتحبنيش يا بابا .. بتحب فريد بس .. انما أنا لأ

- لا يا ديدي ملكيش حق تقولي الكلام ده أبداً .. فريد لسه صغير علشان كده ماما بتعامله زيه زي أي طفل في سنه انما انتي مودموزايل زي القمر .. كبيرة وعاقلة وتقدري تتحملي مسئولية نفسك ومسئولية البيت ده كمان لو لزم الأمر .. ماما لو مبتحبكيش كانت سابتك تقعدي لوحدك في البيت انتي وفريد .. انما هي بتسيبك مع جدو وتيتة علشان يشوفوا طلباتكم وعلشان متزهقوش من القعدة لواحدكم ولما بتبقو في الأجازة جدو بياخدكو النادي ويخرجكم واحنا مش موجودين .. لما بتعوزي أي حاجة في أي وقت ماما بتجيبهالك .. وبعدين هيا ماما بتعمل كده ليه .. مش علشان تشوفك انتي واخوكي أحسن ناس في الدنيا .. انتي عارفة ماما إنسانة ناجحة أد إيه .. وبتعشق النجاح إزاي .. فكرة ان حد من ولادها ميبقاش على نفس مستوى النجاح اللي هيا بتتمناه ليه ممكن تجننها .. ومتنسيش إن نمرك السنة اللي فاتت مكانتش أد كده.

تنفس بعمق ثم أكمل: بكرة لما تكبري وتبقي أم هتعرفي إن ماما مبتعملش كده غير علشان بتحبك وعايزة تشوفك أحسن واحدة في الدنيا دي كلها .. الواحد مبيتمناش لحد يبقى أحسن منه إلا ولاده

أخذ يتأمل ملامح وجهها التي لا تزال تحمل مسحة طفولية بريئة ثم مسح فلول دمع في طرف عينها بأنامله قائلاً: يلا قومي اغسلي وشك بشوية مية وتعالي كملي نومك والصبح انا هصالحك على ماما وهعمل معاها اتفاق إنك لو خلصتي مذاكرتك بدري تسيبك تروحي النادي وكمان تعملي كل اللي انتي عايزاه .. اتفقنا

أومأت برأسها ايجاباً وهي تستكمل بدورها محو بقايا أثار الدموع عن وجنتيها الناعمتين، ربت على شعرها وانسحب إلى الخارج ليتركها تتهيأ للنوم مرة أخرى بعد أن وعدته بالالتزام بما اتفقا عليه وقبل أن يعبر باب الغرفة وجدها تستوقفه بالنداء فاستدار باتجاهها ليجدها تنظر إليه بحب ثم ما لبثت أن قفزت من فراشها باتجاهه ووثبت لتقف على أطراف أصابعها حتى تستطيع أن تحتضنه بكلتا ذراعيها: أنا بحبك أوي يا بابا .. أنت أحسن أب في الدنيا دي كلها

احتوى جسدها الضئيل بين ذراعيه وهو يدفن رأسه بين خصلات جديلتها التي انسدلت رغماً عنها: وأنا كمان بحبك أوي .. انتي أجمل بنوتة في الدنيا دي كلها

على أطراف أصابعه تسلل إلى غرفته ليفاجئها كما اعتاد أن يفعل ويطرب قلبه لسماع نفس كلمات العتاب التي تمطره بها في كل مرة يفزعها بها فتكون ردة فعله تجاه وابل العتاب هذا أن يحتضنها بقوة ليتوقف نهر العتاب عن الجريان وتنفجر ينابيع الحب والحنان عوضاً عنه لكن المفاجأة كانت من نصيبه هو فقد وجدها منهارة القوى ممددة الجسد على الأريكة المخملية الناعمة بارتياح شديد وقد غلبها النعاس أثناء مطالعتها إحدى المجلات الأسبوعية.

طرق الباب خلفه في عنف متعمد إحداث جلبة حتى يقلقها من منامها لكن التعب والإنهاك كانا قد تغلبا عليها فلم يحرك صوت الباب فيها ساكناً وظلت على وضعها هذا في أحضان تلك الأريكة الوثيرة حتى داعبت خيوط الصباح الواهنة وجهها على استحياء من خلف ستائر الشرفة.

***

احتضنت قلمها بأصبعيها تخط بعض الكلمات التي سوف تفتتح بها مقدمة حلقتها القادمة، ترنحت الكلمات في مخيلتها كما تتأرجح هي في جلستها إلى ذلك المقعد في شرفة منزلها، حاولت أن تنتقي المفردات التي تتناغم سوياً كمقطوعة موسيقية متسقة النغمات مستبعدة عنها تلك التي تبدو ثقيلة الوقع على الأذان حتى لا ينفر المشاهدين من غلاظتها ويشعروا في قرارة أنفسهم أنها تستعرض حصيلتها اللغوية القوية التي جمعتها طيلة سنوات عمرها من القراءة المتواصلة في كافة المجالات، حتى ولو كانت هذه الطريقة تضفي ثقلاً من نوع خاص على مقدمي البرامج فهي تفضل المدخل الذي يميل إلى البساطة في التعبير كي تخاطب السواد الأعظم من فئات المجتمع على قدر عقولهم. كان للقراءة والاطلاع عظيم الفضل عليها فلولاها ما كانت وما ستكون ذلك الأمر الذي يجعلها دائماً تشعر بفجوة فكرية في أي حديث يطرح أمامها مع أقرانها أو زملائها بالعمل أو في أي جدال يثار بينها وبين زوجها الذي اكتفى من أمور العلم والمعرفة بقشورها فقط لا غير فبالرغم من كونه قد درس الإخراج إلا أنه وبطموح محدود بكل أسف لم يستطع أن يحفظ لنفسه مكانة بين نجوم الإخراج السينمائي أو التلفزيوني واكتفى بكونه مساعداً للمخرج القائم على برنامجها وكأن ذلك منتهى آماله وأحلامه، وبالرغم من أنها قد حاولت كثيراً منذ أن أوقعهما الحب في شراكه وحتى بعد زواجهما أن تشحذ قوى الأمال والطموح بكيانه إلا أنه كان يستجيب لمحاولاتها ليلاً فيتقد حماسه ويغدق أذانها بعظيم الوعود ووافرها وما تلبث أن تشرق شمس الصباح فتسطع على كافة أحلام الأمس وتجعلها تذوب في طي الواقع تحت تأثير سطوة حرارتها.

هي فقط من كانت ومن تزال تملك في جعبتها من الأحلام والأمال العظيمة أطناناً، هي فقط من تؤرقها الأحلام والطموحات ليلاً وتكدر عليها صفو نهارها فتقف حائلاً دونها ودون أن ترضى بكل ما وصلت إليه من نجاح وشهرة خشية أن يصيبها مرض الاكتفاء في مقتل فتكتفي بهذا القدر الذي أصابته من النجاح وما يدريها إن هي اكتفت به أنها ستستطيع الإبقاء والحفاظ عليه؛ فالنجاح من وجهة نظرها كجبل عال طالما استمررنا في الركوض من أجل بلوغ قمته طالما تأكدنا من كوننا مازلنا بالأعلى أما تلك اللحظة التي نقرر فيها التوقف عن الركض لأننا قد بلغنا النقطة التي صبت إليها أنفسنا فهي نفسها ذات اللحظة التي سنبدأ بها مرحلة الانحدار إلى سفح الجبل حتى ولو كنا قد بلغنا أخيراً قمته.

أغمضت عينيها وأطلقت العنان لتهنيده قوية لتجتاز صدرها عبر شفتيها قبل أن تعاود فتح عينيها مرة أخرى لتتطلع إلى الفضاء الفسيح أمامها، ليلة مقمرة وسماء صافية أضاء جنباتها البدر فأضفى عليها سحراً ذو طابع خاص تماماً كيوم التقته.

تكاد تجزم أنها ستظل تذكر تلك الليلة بكامل تفاصيلها أبداً ما حيت فحصاره لها بنظراته التي تقطر إعجاباً وخجلاً في ذات الوقت جعلها تنزوي جانباً وهي في حيرة من أمرها أتقصده لتوبخه على تلك الجرأة فيكون جوابه أنه لم يقترب منها أو يخاطبها أم تتجاهل نظراته التي لا تنقطع عنها فيتمادى في ذلك الحصار الذي فرضه عليها.

كانت تتلفت يميناً ويساراً بعيداً عن موقعه لتدفع عن نفسها موجات الحرج التي اعترتها بسبب نظراته، تشاغلت عنه بكامل إرادتها لتجده وقد شغل أذهان غيرها فأعين زميلاتها كانت متعلقة به على نحو فاضح وكأنهن يستجدين عطفه لأن ينظر إلى إحداهن بعين الرضا لكن هذا الشاب البالغ الوسامة تجاهل كل تلك النظرات المتلهفة إلى إشارة استجابة من طرفه وفضل أن ينفرد ببث مباشر أحادي الموجات تستقبله هي على استحياء رغم كل محاولاتها المستميتة لتجاهل ذلك البث الحار لكنه بالنهاية أوتى ثماره فسرعان ما بدت عليها علامات الحب السبعة:

إشراق في الوجه؛

لمعة بالعينين؛

ابتسامة دائمة لا تعرف لها سبباً محدداً؛

زيادة في عدد خفقات القلب التي تباغتها فجأة دون سابق إنذار؛

حرارة زائدة تغزو وجنتيها وطرفي أذنيها على الدوام؛

شرود لا تستطيع مقاومته مهما بلغ الصخب من حولها

وأخيراً إقبال على الحياة بكل ما أوتيت من قوة وكأن كل مسببات السعادة في الحياة قد صارت ملك يمينها.

لم يكن ما تشعر به من مشاعر تجاه زوجها إلا نتاج لقصة حب قوية نمت وترعرعت في صمت دون أن يبوح أحدهما إلى الآخر بما تزخر به أحاسيسه وبرغم تهافت الفتيات وتجمعهن من حول جاذبيته المفرطة تجاهل هو اهتمامهن به وسقط صريع نظراتها الصامتة الفارغة من أية تعابير تجاهه وما لبثت الشهور والأيام تنقضي حتى وجدته يتقدم لخطبتها رسمياً بعد أن صارحها بحبه واستحالة أن تستقيم الحياة دون أن يجمعهما ميثاقاً غليظاً.

أظلتهما أشجار الحب الوارفة بعد أن كللا هذا الحب بالزواج وبعد أن من الله عليهما بإبنة جميلة اكتشفا مصدراً جديداً من مصادر السعادة؛ سعادة من نوع خاص لها مذاق يختلف عن كل ما صادفهما طيلة حياتهما الأمر الذي جعلها تتخذ قراراً بشأن الاكتفاء بتلك الطفلة فقد تحققت لها رغبتها بالأمومة ولا داعي لمزيد من تعطيل مسيرتها المهنية ولم يعارضها هو في ذلك حرصاً منه على تنفيذ رغباتها، حتى كان ذلك اليوم الذي غلبها فيه الشوق إلى طفل آخر بعد أن أتمت ابنتها أربعة أعوام من عمرها فأعلنت عن انتواءها التخطيط لاستقبال طفلاً آخر ليفاجئها القدر بعدم الامتثال إلى رغباتها فوسائل منع الحمل التي داومت عليها بانتظام خلال تلك السنوات الأربعة قد أصابت جهازها التناسلي ببعض المشاكل والاضطرابات.

لم تثنيها الحقائق العلمية التي أوعز إليها بها الأطباء عن تحقيق رغبتها فدخلت وبكامل إرادتها في دائرة العلاج بإصرار عظيم لبلوغ حلمها بطفل آخر ولم يستطع أي شخص إقصاء فكرة الخضوع لتدخل جراحي غير محسوب العواقب عن عقلها، لكنها ومن أجل نيل حلمها تجاهلت كافة الأصوات المنادية بالامتثال إلى إرادة الله وتقبل اختيارات القدر لها فقررت المخاطرة بصحتها وحياتها فكيف لا وقد اعتادت التمسك بتلابيب الأحلام والتشبث بها بأقصى قوة اتيحت لها مهما بدت لها مستحيلة أو بعيدة المنال، وبعد أكثر من سنتين متصلتين من العلاج استجاب المولى لدعائها ودبت في أحشائها حياة أخرى.

توالت الأشهر عليها حتى كان مولد فريد الذي بمجرد ما إن تراءت لها ملامح وجهه الصغير الغضة تناست معها معاناتها الطويلة وذابت كل ألامها في لحظة واحدة فاستشعرت بوجوده حدثاً فريداً في حياتها لهذا اختارت منحه هذا الإسم الذي كان لوالد زوجها ذات يوم في حياته قبل أن ينتقل إلى جوار ربه.

يوم أن اختارت أن تربط كل ما هو قادم في حياتها بوجود شريك لها في تلك الحياة أرست معه دعائم هذه الشراكة منذ اليوم الأول، كانت لا تفضل مصطلح زوج وزوجة وتشعر أنه يحول أسمى أنواع العلاقات الإنسانية وهي الرباط المقدس إلى مجرد وظائف؛ فوظيفته مجرد زوج في حياتها ووظيفتها في حياته مجرد زوجة رغم أن الواقع يحتم على كلا الطرفين الاعتراف بأن أحدهما للآخر أكثر من ذلك بكثير، فهو لها بمثابة أب وأخ وزوج وصديق وزميل عمل ورفيق كفاح وهي له بمثابة أم وأخت وصديقة وخليلة وعشيقة وزميلة عمل ورفيقة كفاح، فكيف يظلم أحدهما الآخر باختزال كل هذه الصفات الرائعة في صفة واحدة وهي مجرد زوج أو مجرد زوجة، لذا اتفقا منذ البداية على استبدال مصطلح زوج وزوجة بمصطلح شركاء لذا فمفهوم الزواج عندهما يختلف عن الآخرين فالزواج بالنسبة لكليهما شراكة في أي شيء وفي كل شيء ويسري عليهما ما يسري على الشركاء؛ فالمكاسب مشتركة بينهما والخسائر أيضاً وكلاهما يعلم أنه لابد له من تحريك المجداف في نفس الاتجاه وليس في اتجاه معاكس لضمان رسو قاربهما على شاطئ الأمان، لذا تعاهدا على أن يكونا سوياً في كافة الأشياء واتفقا منذ البداية على نبذ الغيرة جانباً فنجاح أحدهما يعني نجاحاً حتمياً للآخر لكنه لا يعني أبداً أن يكتفي أحدهما بنجاح الآخر معفياً نفسه من مهام الاجتهاد من أجل النجاح.

منحها الله إطلالة تأسر كل من يراها فاستغلت هي ما حباها الله به من جمال أخاذ وجاذبية طاغية وحضور ولباقة بالغة بالإضافة إلى قوة شخصيتها وحنكتها وذكائها لتصنع بالاستعانة بهم مزيجاً رائعاً وتوليفة هائلة لمقدمة برامج لامعة تمتلك رصيداً هائلاً من عناصر الجذب والإبهار الأمر الذي جعلها تتنقل من مصاف التدريب سريعاً إلى أول مكان شاغر كمذيعة ربط بين الفقرات المختلفة ثم سرعان ما ترقت إلى كونها أصبحت مقدمة لأحد البرامج الترفيهية الصيفية؛ واستمرت في طريقها الذي رسمته لنفسها منذ أن خطت بقدميها هذا المجال بدافع من طموحها اللامتناهي والذي صنع منها في غضون سنوات أشهر مذيعة في التلفزيون المصري يتابع برنامجها الأسبوعي أعداداً غفيرة من محبي الشاشة الصغيرة ويتحرقون شوقاً لمشاهدة حلقاتها الجديدة التي تحرص دائماً على أن تقدم لهم فيها كل جديد ومختلف ومثير لتظل كفة برنامجها هي الأرجح بين البرامج المختلفة، وبينما هي

ترتقي درجات سلم النجاح ظل هو قابعاً بأولى درجاته تماماً كيوم رأته منذ سنوات لم يتغير من شأنه شيئاً مازال يحتل لقب مساعد مخرج بجدارة ولم يتغير من أمره شيئاً سوى تغير أسماء البرامج التي ينضم إلى أسر الإخراج بها وآخرهم برنامجها الحالي.

لم يكن يكدر عليها صفو سعادتها إلا سكون زوجها وارتضاءه بالأمر الواقع وكأنه لم يعد لديه أدنى استعداد لتحقيق المزيد من النجاحات وزاد من إحباطها أن ابنتها انتهجت نفس نهج أبيها فاكتفت بالقليل من كل شيء، ولم تكن الخلافات لتتولد بينهما إلا من أجل هذه الأسباب أما غير ذلك فينعم بيتهما الأنيق بنفحات من السعادة، لكن سعادتها الشخصية الحقيقية لم تكن لتتخلق في الأجواء الساكنة وإنما تولد حين ترى نفسها وقد اقتربت من منبع جديد من منابع النجاح وكادت تستحوذ عليه لتنهل منه كما تشاء كي تروي ظمأها المستمر للنجاح الباهر.

مرت قرابة الساعتين ولا زالت الأفكار المتنافرة سيدة الموقف فانتصف الليل وهي على وضعها هذا بتلك الجلسة، اتخذت من تلك الشرفة صومعة لها تختلي فيها بنفسها تتأمل فيما حولها وتقرأ وتدون الملاحظات وتجعل منها مكاناً هادئاً؛ شرنقة دافئة تشهد ولادة الأفكار الجديدة وتحتويها حتى تمام نضجها وخروجها للدنيا، وفي غير تلك الشرفة لا تجد لها عالماً خاصاً بها وحدها دون مشاركة من الآخرين إلا أمام الكاميرات، تولد من جديد في كل مرة تغمرها الأضواء الساطعة ويتحرك كل من حولها في نشاط كخلية نحل دؤوبة لا تكل ولا تمل بينما تجلس تتوسط ذلك كملكة متوجة على عرشها والميكروفون هو الصولجان الذي تحكم به مملكتها.

قامت عن مقعدها لتمنح ساقيها وفقرات ظهرها وقتاً مستقطعاً من الراحة واستغلت تلك الثواني التي تستريح فيها من وضعية الجلوس ببعض الخطوات في تفقد أمر زوجها وأولادها اللذين قد خلدوا إلى النوم منذ ساعات فاستوقفها مشهداً لم تعتاده عيناها في الجوار.

شعرت بانقباض في صدرها فهناك في قبالة شرفتها أضواءاً غريبة أخذت في التراقص أمام ناظريها، ازدادت ضربات قلبها فالقصر الذي ألفته في الجوار ساكناً صامتاً شامخاً وخالياً من أية حياة؛ مهجور منذ ما يقرب من ستون عاماً.

شعرت بالمزيد من الاضطراب وهي ترى دخاناً ينبعث من قمة البرج الشمالي للقصر؛ هل يكون ما تراه حقيقي بالفعل؛ لقد سمعت الكثير من الروايات عن الأشباح التي تسكن هذا القصر لكنها لم ولن تؤمن بهذه الظواهر الخرافية بينما

تجد نفسها الآن وقد أجبرت على الإيمان بكل ما هو خارق للطبيعة وهي تراه يتجسد أمامها دون وجود مبرر مقنع لما تراه، كاد قلبها يتوقف من فرط الانفعال وظلت متجمدة في مكانها تحملق في تلك الأدخنة والأضواء المتبعثرة التي تأتي من داخل القصر وكأن الحياة قد دبت فيه فجأة وبعث سكانه من قبورهم ليستأنفوا حياتهم من جديد.

ظلت متجمدة في مكانها لعدة دقائق تخشى الالتفات يميناً أو يساراً فيباغتها أحد تلك الأشباح فاراً من قصر النسيان وهي التي سخرت من تلك الأمور طيلة حياتها وقد حان موعد تصفية الحساب من سخريتها التي لم تكن أبداً في محلها.

ألصقت ظهرها بالحائط خلفها وكتمت أنفاسها بكفيها ثم أخذت تجرجر قدميها حتى تبلغ باب الشرفة لكي تستجير بعائلتها بالداخل وطوال تلك الدقائق التي مرت ثقيلة على نفسها لم يكن خيالها ليتوقف عن تصور الشيء الذي يختبئ لها والذي سيهاجمها فور مواجهته وينقض عليها، فقد اعتادت رؤية مثل تلك الأمور على الشرائط المسجلة لأفلام الرعب بجهاز الفيديو في منزلها ولم يكن ذلك ليحرك فيها ساكناً بل على العكس كانت تسخر من كل من يعتقد في واقعية تلك الأشياء وكانت تعتبرهم مرضى نفسيين يهوون تصديق الخرافات وتعذيب أنفسهم بالرعب منها. ما إن لامست وجنتيها حرارة الردهة الفسيحة التي انتشرت بها الأرائك الجلدية المريحة والتي أثار تجاورها ببعضها البعض موجات من الدفء حتى أطلقت لساقيها الريح صوب حجرة زوجها وكادت أن تتعثر خطواتها المتلاحقة في المكتبة الضخمة في طريقها والتي أثار ارتطامها بها تساقط العديد من الكتب التي تراصت على رفوفها بينما توسط هذه الرفوف مساحة مستطيلة اتسعت لتضم في منتصفها تلفزيوناً ملوناً ذو ست وعشرون بوصة من أفخر ما أنتجت المصانع اليابانية فلم تبالي بتلك الكتب المتساقطة وأكملت طريقها باتجاه الغرفة.

أخذت تهزه في عنف كي يستفيق من سباته فانتفض من نومه مفزوعاً وأمسك قلبه الذي تسارعت دقاته على إثر رؤيتها فزعة هكذا فتكاثرت حبيبات العرق حول جبينه وهو يفرك عينيه بقوة وينظر إليها في هلع

اتسعت عيناها عن آخرهما وخفضت صوتها وهي تقول بصوت يرتعش: القصر اللي قدامنا فيه أشباح

ظلت أذناه لا تستوعبان ما تفوهت به زوجته للتو وظنها تمزح معه في البداية فقطب حاجبيه غاضباً منها لكن ما لبث أن استرعى انتباهه نظرات الرعب الحقيقية

في عينيها فانتابه القلق حيالها ومد يده يلمس جبهتها بباطن كفه مستكشفاً درجة حرارتها خشية أن تكون الحمى قد أصابتها وانتابتها الهلاوس على إثرها: انتي كويسة يا أسمى؟؟

نظرت إليه بعينين ملتاعتين تلتمس منه تصديقاً لروايتها وأخذت تقسم له أن هناك أمراً مريباً يقع بالجوار، في توقيت آخر وفي يوم آخر كان سيتخذ مسلكاً أكثر مرحاً لكنه لم يستطع منع انبعاث موجات الغيظ التي تولدت إثر مقاطعة نومه بهذا الشكل الحاد وكظم غيظه مقاطعاً إياها بجدية تامة: مفيش حاجة اسمها كده يا أسمى وانتي أكتر واحدة كنتي بتضحكي على أي حد بيقول الكلام الفارغ ده

قاطعته بتوسل: يا عاصم صدقني أنا .....

لم يمهلها الفرصة لتكمل جملتها وقاطعها مرة أخرى: أسمى .. انتي أكيد أرهقتي نفسك زي كل ليلة وانا قبل كده قولتلك مية مرة إنك لازم ترتاحي شوية مينفعش تيجي على نفسك أوي كده كل يوم .. انتي مرهقة وتعبانة فبيتهيألك حاجات ولما تنامي وترتاحي هتصحي تلاقي نفسك زي الفل.

لم يمنحها فرصة الاسترسال في حديثها من جديد فاستسلمت لإشارته وألقت بجسدها على الفراش مجبرة جفنيها على الإنسدال لكنها لم تستطع فرض سطوتها على عقلها ولم تقوى على جعله يغفو ولو لدقائق فصاحبها الأرق ولازمها حتى مطلع النهار.

***

كان يمر بالسيارة بمحاذاة كورنيش النيل فوجدها شاردة؛ شاحبة؛ ليست كعادتها كل يوم عندما ترافقه إلى العمل وتكون متقدة الحماس وفي قمة نشاطها، كان الإجهاد هو السمة السائدة على ملامح وجهها وكأنها لم تذق طعماً للراحة منذ شهور، التفت ينظر إليها بطرف عينه ويسألها عن سبب صمتها هذا الصباح فهمهمت بشرود ألا يبالي

تابع الطريق أمامه قائلاً بجدية: يا أسمى يا حبيبتي انتي بترهقي نفسك في الشغل زيادة عن اللزوم .. حتى لما بنروح البيت بيبقي المفروض ترتاحي بتقعدي تقري وتكتبي لوش الصبح وبتنامي ساعات قليلة جداً .. إن لبدنك عليك حق .. ولا إيه يا أستاذة أسمى .. مش دي النصايح اللي بتقدميها لجمهورك .. فكري في كلامي ده وصدقيني لو خدتي حقك في النوم والراحة أنا متأكد إن اللي حصلك امبارح ده مش هيتكرر تاني أبداً

استفزها أسلوبه الذي استشعرت فيه بعضاً من السخرية فردت بعصبية: أنا مش مجنونة على فكرة يا عاصم ومتأكدة إن اللي شفته امبارح كان حق وحقيقي وبجد زي مانا متأكدة ان انا شايفاك وسمعاك دلوقتي

ربت على يدها بيده الحرة من مقود السيارة قائلاً بحنان: اهدي يا أسمى انا مقولتش كده وقطع لسان اللي يقول كده .. انتي ست العاقلين بس ساعات الواحد من كتر تعبه نظره بيشوش ويتهيأ له حاجات .. عمتاً على راحتك يا ستي .. انا بس بنصحك علشان خايف عليكي .. احنا مالناش في الدنيا غيرك

أشاحت برأسها باتجاه نافذة السيارة دون أن تتجاوز شفتيها أياً من الكلمات ولفهما الصمت بردائه القاتم حتى وصلا إلى مقر مبني الإذاعة والتلفزيون بماسبيرو، مرا بموظف الحضور والانصراف وقاما بالتوقيع أمام اسميهما في الدفتر الضخم الموضوع على الطاولة أمامه، تقدم المسيرة وخطى باتجاه المصعد ليقلهما إلى استوديو العمل فوجدها تخطو بالاتجاه المعاكس، استدار يستطلع منها سبب عدولها عن وجهتهما اليومية فأشارت له أنها ستتجه إلى المكتبة أولاً من أجل الاطلاع على مادة فيلميه قد تحتاج إلى عرضها في حلقتها القادمة.

دلفت إلى المكتبة الضخمة التي تراصت على رفوفها المئات من الاسطوانات الضخمة التي تحوي أفلاماً تراثية ووثائقية سجلت على شرائطها السوداء الملساء فاستوقفها الموظف المسئول عن تلك المكتبة ببابها ثم سرعان ما تبين شخصها فمد إليها يده مصافحاً ورحب بها بمنتهى الحفاوة وعرض عليها مساعداته إن رغبت، تجاوزته وهي تشكره وتعلمه أنها إذا احتاجت مساعدته لن تتوان عن الاستعانة به على الفور لكن مقصدها هو مكتبة الكتب والوثائق التي تقع بنهاية الممر والمسئول عنها موظف آخر غيره.

وجدت الموظف القائم بأعمال المكتبة والتي اكتظت رفوفها بالكتب والمراجع منكباً على دفتره يقوم بجرد بعض الكتب وتخصيص أكواد خاصة بكل واحد منها على حدا ثم يرصد الأكواد في الدفتر أمامه، حيته بابتسامة واسعة فرفع رأسه يستطلع كنية الشخص الذي يحييه وحين وجدها هي تهللت أساريره لرؤيتها وقام من مقعده مقبلاً عليها يصافحها بحرارة

لم تتوقف شفتيه عن إغداق كلمات الثناء على أذنيها في الوقت الذي تعمل فيه يديه بحثاً عن الدفتر الذي يحوي قائمة الكتب التي أرادت الاطلاع عليها أما هي فعينيها تعلقتا بحركة يديه حتى التقطت أخيراً إشارة النيل فقبضت على الدفتر

بمجرد أن لوح له بها وشكرته في أدب جم.

انتحت بالدفتر جانباً على طاولة بعيدة بعض الشيء عنه متجنبة فرصة التطرق إلى أحاديث عابرة معه وأخذت تنقب بعينيها عن غايتها بين أسماء الكتب التي تراصت على السطور أمامها، كاد اليأس يدب في قلبها للحظة لولا أن وجدت غايتها أخيراً ببعض الكتب التي اصطفت عناوينها بتسلسل متتالي فالتقطت قلم وورقة صغيرة من حقيبتها الشخصية وخطت بها أسماء الكتب وأكوادها والرموز التي تشير إلى مواقعها على الرفوف.

كانت جميع الكتب التي انتقها تحمل عناوين متشابهة عن حكايات الأرواح والأشباح وأسرار العالم السفلي ولو أخبرها أحدهم منذ أيام أنها سوف تتوجه إلى المكتبة بحثاً عن مثل هذه القراءات لسخرت منه واتهمته بالسخف لكن حدسها يخبرها أن ما رأته بالأمس كان حقيقياً ولم يكن نتاج تعب أو ارهاق كما حاول زوجها أن يقنعها.

اقشعر بدنها حين كانت تقلب في صفحات إحدى الكتب فوجدت موضوعاً كاملاً عن القصر الذي عاشت بجواره لمدة لا تقل عن خمسة عشر عاماً ولم تحاول خلالهم جمع أية معلومات عن سكانه الأصليين فلا يعنيها منه سوى كونه ساكن طيلة الوقت ولا يزعج خلوتها التي تتخذها بالشرفة كل مساء وكون تصميمه مميزاً وفريداً من نوعه يجعلها تشعر بأنه ملهم لها في لحظات الاسترخاء التي تبغي بها تركيزا مبالغاً حتى يتفتق ذهنها عن موضوعات جديدة وأفكاراً مختلفة. قرأت من خلال الأسطر التي أمامها بعض المعلومات العابرة لكنها شعرت بهزلية شديدة من كاتب الموضوع حين وجدته يستغل كون القصر مهجوراً منذ سنوات فيوحي للقارئ أنه مرتعاً للأشباح فقد زج بقصة لا تعرف مدى مصداقيتها من عدمه بأن أخت البارون قد لقت حتفها في هذا القصر ثم عاد شبحها لينتقم من كل سكان القصر ويقتلهم تباعاً وقام بدعم مقالته بصورة تعمد مصورها أن يبدو فيها القصر مقفراً لإضفاء جو من الإثارة والغموض وصورة أخرى للبارون في شبابه بشاربه المميز ومظهره الوقور.

لوت شفتيها امتعاضاً فقد سمعت مثل هذه الإرهاصات عن هذا القصر مراراً وتكراراً لكن هذه الخرافات لم تكن سوى روايات من نسج الخيال فهي شاهدة على أنه برئ من كل ما نسب إليه ولا تطاله يد الاتهام إلا في كونه يبدو مخيفاً ومظلماً طيلة الوقت وبمجرد أن تعتاده تزول عنك تلك الرهبة وينقشع الخوف عن نفسك وتأنس بجيرته لك.

قضت قرابة الساعتين تقرأ وتدون ملاحظات في ورقة خارجية ولم تخلص في النهاية إلى النتائج التي كانت ترجوها حيث كانت تطمح إلى أن تجد في تلك الكتب التي أخذت تتصفحها إجابات شافية عن كل ما آرق نومها طيلة الليلة الماضية لكن وبكل أسف وجدت محتواها لا يتعدى الأدب الركيك الذي يعتمد على خيال المؤلف أكثر من كونه يسرد حقائق واقعة.

انتبهت على صداع يضرب مؤخرة رأسها بقوة التي أخذت تستغيث وتتوسل إليها كي ترحمها من الإرهاق الذهني وتمدها ولو بالقليل من الكافيين خاصة وأنها لم تغفو ولو لدقائق في الليلة الماضية كما أنها أمعنت في تعذيب حالها وتناولت إفطاراً هزيلاً بالصباح.

قامت منسحبة كي تصعد إلى مقر عملها بالطابق العاشر ولم يفتها أن تحيي موظف المكتبة الخلوق وهي في طريقها إلى الخارج والذي أعرب عن سعادته لمقابلتها وعرض عليها إن كان لديها الرغبة في أن تستعير أياً من الكتب التي ترغب ألا تجد حرجاً في إبداء ذلك لكنها شكرته مرة أخرى وودعته وانصرفت في هدوء.

بمجرد أن وطأت قدماها خارج المكتبة وجدت عاصم في قبالتها والقلق يقفز من عينيه وتضاعف هذا القلق عندما لاحظ شحوب وجهها وذبوله ووجد عينيها متورمتين من أثر القراءة المتواصلة لقرابة الساعتين فهتف بها: إيه يا أسمى كل ده .. قلقتيني عليكي

أشاحت بوجهها حتى لا يثقل عليها بالأسئلة أكثر من ذلك: عديني يا عاصم .. أنا دماغي هتفرقع وعايزة أشرب فنجال قهوة حالاً

شعر بحرج بالغ وهي تتخطاه بوجه متيبس الملامح وتتوجه مباشرةً إلى المصعد دون أن تتوقف لتنتظره كي يلحق بها فابتلع حرجه وأصر على التلكؤ حتى لا يكون في أثرها إلى الأعلى ووقف يدخن سيجارة وينفث دخانها في حنق وبعد أن انتهى منها سحقها تحت حذائه بغيظ.

ليست المرة الأولى التي تبالغ فيها في مظاهر غضبها نحوه فهي على قناعة تامة طيلة الوقت بأن رأيها دوماً هو الصواب ولا تقبل أن يحاول أحدهم اقناعها بغير ذلك حتى ولو كان هو، صحيح أنه يعشقها ولم تستطع السنون ولا متغيرات الحياة أن تغير من عشقه لها في شيء لكنه بات يضيق ذرعاً بهذه التقلبات التي يضطر لمواجهتها معها حين تكون في مزاج سيئ أو حين يختلفا في وجهات النظر؛ فهي

القارئة المطلعة صاحبة وجهة النظر السديدة وصاحبة أعلى رصيد من النجومية والانتشار بين قريناتها من مقدمات البرامج اللاتي لا ترقى برامجهن لمستوى برنامجها والذي يجتمع كافة أفراد الأسرة وتلتف حول الشاشة الصغيرة لمتابعته، كيف له أن يعارضها وهو من ذوي الثقافات المحدودة، صحيح أنها لا تعلن ذلك صراحة لكنه يستشعر سخريتها من أرائه حتى ولو لم تتجاوز أعماقها؛ صحيح أنها تحكم إخفائها لكن ينفلت منها الزمام في لحظات دوناً عن إرادتها فيلمح نظرة مستخفة بطرف عينيها أو امتعاضاً يرتسم على شفتيها حين ينفضح لها جهله الشديد ببواطن المعرفة، لحظتها يجد نفسه يتضاءل حتى يصير قزماً بجوارها ومهما حاولت التدني لبلوغ منزلته يجدها دائماً في مرتبة تعلوه لذا قنع في قرارة نفسه أنه لا فائدة من الركض خلفها لاهثاً لملاحقة خطواتها المتسارعة، يكفيه ما ناله وليحيا ما بقى من عمره في قناعة وسلام داخلي فهو أبداً لن يبلغ مرتبتها الرفيعة مهما فعل.

-لا مؤاخذة

ارتطم كتفه برأس فتاة مر بجوارها فلم ينتبه لذلك حتى وجدها هي التي تعتذر عن هذا الاصطدام في حرج بالرغم من كونه واثقاً أنه هو السبب في ذلك كون عقله في غاية الانشغال ونظراته في غاية التشتت.

تأملها بعينيه فرجح أنها بأوائل العشرينات من عمرها لكن بساطة الحال تعلن عن نفسها من ملابسها التي تبدو غير مناسبة لها وكأنها قد اقترضتها من امرأة تكبرها بعشرين عاماً على الأقل، شعرها الأجعد معقوصاً للخلف وحدت من حرية خصلاته الأمامية بوشاح ذا لوناً داكن ارتسمت به زهور متداخلة الألوان أشبه بذلك الذي ترتديه فتيات الريف لكن كل هذا لم يقلل من ملاحة وجهها الأسمر الذي ارتسمت ملامحه بوضوح وإتقان وبشكل يجعلك تحيد بعينيك عنه بصعوبة بالغة قبل أن تستكشف مصدر هذا الجمال الأخاذ والذي لا تدرك حقاً إن كان يشع من عينيها الواسعتان أم شفتيها المكتنزتين أم أنفها المستقيم أم رقبتها التي ترتفع في شموخ وكبرياء.

استشعر حرجها البالغ حين أطال التأمل بملامحها المنحوتة بدقة كملامح التماثيل الفرعونية التي يراها بالمتاحف فتعاطف مع حرجها وبساطة حالها وحاول أن يبدو متلطفاً وهو يبتسم لها بود ألا عليها ثم انحنى جانباً مسرعاً إلى الأعلى ليستأنف عمله وقد قرر أن يتفادى توجيه أياً من كلمات العتاب إلى من شغلت قلبه وعقله وجعلته يرتطم بالآخرين دون أن يراهم، طالما هم في العمل فلا حديث سيدور بينهما سوى في نطاق العمل.

ظل على تلك الحالة حتى عودتهما إلى المنزل مساءاً؛ لا هي تحادثه ولا هو يوجه إليها أياً من أنواع الحديث حتى شعر بها تنسحب من جواره بالفراش وتستل رداء النوم المخملي لتضعه فوق أكتافها ثم تمشي على أطراف أصابعها متسللة إلى الخارج بهدوء.

كان يشعر بغضب بالغ إزاء تجاهلها له صباحاً فتعمد أن يتجاهل انسحابها من جواره وأجبر أجفانه على الانسدال حتى تهيم روحه في غياهب النوم ويقابل إغفالها لقلقه عليها وعدم اهتمامها بالضيق الذي بدا عليه طيلة ساعات العمل بعدم اهتمام مماثل، لكن قلبه ظل يوكزه ليفكر بأمرها وبأمر هذا الشيء الذي جعلها تنسحب من جواره هكذا.

اعتدل جالساً على طرف الفراش وقام ليغادر الغرفة خلفها لكنه تذكر هذا الوجع الذي أصاب كبرياءه صباحاً فقرر أن يتجاهل قلبه الذي مازال يلح عليه ليستطلع أمرها وأمعن في ذلك التجاهل واتخذ قراراً بتدخين سيجارة في غرفة النوم الأمر الذي كانت مشددة على عدم القيام به في أياً من ارجاء المنزل وامتثل هو بالطبع إلى أوامرها لأسباب عدة أولها حبه الشديد لها والذي يجعله لا يرفض لها طلباً وثانيها خوفه على أولاده مما يسمعه في البرامج عن مخاطر التدخين السلبي وثالثهم أنه لا يعتبر نفسه مدخناً بالمعنى المتعارف عليه فهو قد لا يزور علبة سجائره بالساعات وأحياناً يمر عليه يوماً كاملاً دون إشعال سيجارة واحدة، السيجارة ليست خليلة وحدته كباقي المدخنين لكنها جزءاً من طقوس معينة خاصة بالغضب الشديد أو الفرح الشديد.

أخذ يفتش في جيوب بنطاله وقميصه الذي كان يرتديه صباحاً عن تلك الولاعة الذهبية التي أهدته إياها في عيد ميلاده الماضي ولم يجدها قابعة في علبة السجائر التي كانت شاغرة إلا من عدد قليل من السجائر لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة، أعاد نوبة التفتيش مرة أخرى وهو يستبعد كونه فقدها فهذا الأمر سيثير في نفسها الغضب وحتماً سيزيد الأمور بينهما سوءاً في الوقت الراهن.

في خضم أفكاره المتنافرة تذكر تلك الفتاة السمراء التي ارتطمت به صباحاً وعلى الفور خرجت من فمه سبة لا إرادية وقد فطن الأمر وهو يتحسس بيده موضع الولاعة بجيبه العلوي قائلاً بغضب: يا بنت النشالة

***

كانت حواسها قد بلغت قمة التيقظ بعد أن استجمعت شجاعتها وأخذت جرعات كافية من الجرأة لتواجه ذلك الأمر المجهول، ظلت تقاوم النعاس لبرهة من الوقت لكن الاستيقاظ بشكل متواصل لمدة تقترب من الثمان وأربعين ساعة جعلت قواها تخور فتسقط صريعة النوم على ذلك الكرسي المتأرجح، لا تدري كم من الساعات بقيت على وضعها هذا لكن أول شعاع ضعيف من أشعة الشمس لامس وجنتيها كان كفيلاً بإيقاظها من غفوتها بقسوة فعبس وجهها وكمشت جبينها لا إرادياً وهي تقاوم آلام المفاصل التي اجتاحت سائر جسدها.

لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة صباحاً عندما قاومت النعاس الذي داهمها حين غفلة منها وانتفضت بالقرب من سياج شرفتها تطالع أمراً قد هالها وجعل عيناها تتسع عن آخرهما، أسرعت لمدونتها تخط كلمات معدودة بعد أن ظلت متسمرة لدقائق بمكانها تراقب ما تراه بالأسفل في سكون، عبرت الحاجز الزجاجي الفاصل بين الشرفة والردهة بسرعة شديدة وكأنها تخشى أن يفوتها شيئاً ثم أمسكت الدفتر الخاص بأرقام التليفونات تقلب في صفحاته حتى وجدت غايتها أخيراً فتناولت الهاتف اللاسلكي الأسود اللون من فوق قاعدته الكائنة على الطاولة بجوارها وكونت رقماً من خمسة أرقام على أزراره.

دق الهاتف على الجانب الآخر لعدة مرات متتالية دون أية إجابة فتملكها اليأس وشرعت تغلق زر الاتصال لتقطع المكالمة لولا أن سمعت صوتاً أنثوياً يجيب الاتصال ويبدو على نبراته مظاهر الإعياء، في تلك اللحظة فقط انتبهت لفداحة الأمر الذي أقبلت عليه بأن تتصل بأحدهم في ساعة مبكرة كتلك وترددت للحظات بين أن تجيب محدثتها أو أن تغلق الهاتف لكنها استبعدت فكرة انهاء المكالمة فجأة خشية إثارة المشاكل خاصة وأنه من الممكن أن يكون الطرف الآخر لديه خاصية إظهار رقم الطالب وقد يتعرف إليها ويصيبها نصيباً من الحرج جراء تصرفها هذا.

- صباح الخير .. معلش أنا آسفة يا مدام أن أنا بكلمك في وقت مش مناسب .. بس أنا عايزة أستاذ راجي في موضوع ضروري جداً جداً وميحتملش التأجيل .. أسمى نصار معاكي

شعرت بضيق يعتري النبرات الناعسة لزوجة راجي لكنها كانت على يقين تام بأنها لن تستطيع تجاهل مكالمتها أو حتى إغفالها وصدق يقينها فماهي إلا دقيقة واحدة وسمعت صوت راجي على الجانب الآخر وقد امتلئ بالكثير من الوخم والنعاس

- صباح الخير

قالها وهو يتثاءب بكامل اتساع فمه فردت عليه التحية باقتضاب ثم دخلت في لب الموضوع بشكل مباشر: راجي .. ينفع تجيب كاميرا وأي حد من المساعدين بتوعك وتجيلي في ظرف نص ساعة

استفاقت نبرات صوته على أثر هذا الطلب المفاجئ والغير متوقع منها: نص ساعة .. ليه بس .. خير في إيه؟

ردت بجدية بالغة: مفيش وقت للكلام ده .. هات كاميرتك وانا نص ساعة بالتمام والكمال هتلاقيني واقفالك تحت العمارة

- طب هجيلك على ملا وشي كده .. مش الأول افهم في إيه بس

قاطعته: مبسش .. لما تيجي هفهمك على كل حاجة

أغلقت الهاتف وشعور بالزهو ينتابها على استحياء فقفزت باتجاه غرفتها وأسرعت تبدل ملابسها ثم جلست إلى مرآتها تضع القليل من الرتوش فلا يهم أن تكون بكامل زينتها طالما ستعتمد على نظارتها الشمسية الضخمة في إخفاء الجزء الأكبر من ملامح وجهها.

كان يتقلب في نومه عندما آرقته إضاءة الغرفة ففتح عينيه بصعوبة ليجدها في قبالة المرآة، لم يستطع الاستمرار في مسلسل التجاهل أكثر من هذا فنفض عن عقله آثار النعاس واعتدل في جلسته يسألها عن سر استيقاظها باكراً هكذا خاصة بعد أن تطلع إلى الساعة المعلقة بمنتصف الحائط أمامه وقد أشارت عقاربها إلى تمام السادسة صباحاً

انتي ايه اللي مصحيكي بدري كده يا أسمى؟ ولابسة ورايحة على فين؟-

ردت بلامبالاة وهي ترفع خصلات شعرها إلى أعلى حتى تبدو تسريحته عملية متماشية مع القميص المصنوع من الجينز الذي ارتدته والحذاء الرياضي الذي انتعلته فتبدو بهذا المظهر الصباحي الذي رغبت به: ورايا ربورتاج مهم

رد باستنكار: ربورتاج!!! ربورتاج إيه بالظبط .. إذا كنت انا وطقم الإخراج كله محدش فينا عنده خبر بحاجة زي كده

هزت كتفيها بلامبالاة وقد تقوست شفتها السفلى باتجاه الأسفل قبل أن تستعيد وضعها الطبيعي وتقول ببرود تعمدت أن يكون واضحاً في نبرات صوتها وتعابير ملامحها: ومين قالك ان انا عايزاكو تعرفوا

عقد ذراعيه أمامه قائلاً بحدة: وده اسمه إيه ده ان شاء الله .. في إيه يا أسمى مالك .. أسلوبك مش عاجبني من امبارح

استدارت ملتفته إليه بعد أن انهت زينتها البسيطة وقالت له في تحد: والله يا عاصم انت اللي عملت كده .. يعني لما قولتلك امبارح مهتمتش بالموضوع أصلاً وانا مش هشحت اهتمامك .. خلاص طالما مش فارق معاك سيبني أكمل للآخر لوحدي استشاط غضباً من لهجتها المتحدية: انا بجد معدتش فاهمك .. ساعات تبقي كويسة جداً معايا وتبقى حياتنا في قمة السعادة والناس كلها تحسدنا عليها وساعات تبقي مش طيقاني ولا طيقالي كلمة واحس إن كل اللي حوالينا حاسيين بكده وبيتصعبنوا على حالي معاكي .. إيه يا أسمى .. كل ده علشان الحكاية بتاعة امبارح .. طب بذمتك انتي بتصدقي ان في حاجة اسمها عفاريت .. وبعدين بلاش تيجي عليا بزيادة علشان حاجات متستاهلش .. انتي عارفة ان انا بحبك وان انتي كل حاجة ليا في الدنيا .. بس أنا خايف ازهق .. خايف ييجي عليا اليوم اللي مقدرش استحمل أكتر من كده .. عموماً حقك عليا يا ستي لو كنت زعلتك من غير ما أقصد

لملمت حاجياتها في حقيبتها الخاصة: خلاص يا عاصم .. مش زعلانة وارجوك متزعلش مني لو أسلوبي كان سخيف .. أنا فعلاً اعصابي مش مظبوطة شوية اليومين دول .. نكمل كلامنا بالليل علشان انا لازم انزل حالاً ولما أبقي أخلص هرجع عالاستديو .. أشوفك هناك .. باي باي

عنيدة إلى درجة التعقيد؛ من الممكن أن تتقبل أي شيء إلا المساس بكبريائها حتى ولو حدث ذلك عن دون قصد، لم تهتم بنظرات الضيق التي بدت في عينيه قدر ما شغلها أنه قد بارزها أولاً بهذا الضيق فآلم نفسها به والآن جاء دورها لتبارزه وتنتقل إليه تركتها من الضيق الذي قد أورثها إياها من قبل، لا يهمها أياً من كان؛ قدر ما يهمها أن تشعر أنها قد ثأرت لنفسها ممن سخر منها أو خذلها حتى ولو كان أقرب الأقربين إليها، حقاً على قدر ما تبدي من السلاسة في ظاهرها على قدر ما تخفي من التعقيد في باطنها.

كانت مصرة على ألا تشركه في أياً مما انتوت الإقدام عليه فتشبثت بأسوار العناد وتسلقتها حتى بلغت قمتها ولم تنتظر أن يزيد عليها بكلمة واحدة أو يطرح عليها المزيد من الأسئلة وأصرت على أن تتركه في حيرة بعد أن طرقت الباب خلفها وقد أصابت هدفها بإغراقه في بحار حيرتها فظل ينظر إلى الباب وهو غير مصدق أن ردة فعل تافهة كهذه تجعلها تنتقل من النقيض إلى النقيض وتحول من أسلوب تعاملها معه بهذا الشكل المبالغ في قسوته وعنفه ولا مبالاته.

***

ظلام دامس يلف المكان؛ رطوبة شديدة تنهك الصدور وكأنك تزحزح أثقالاً حين تهم بالتقاط أنفاسك؛ فوضى عارمة تنتشر بالأرجاء؛ بقايا أشلاء حيوانات مذبوحة وأخرى نافقة تجثم على الأنفاس برائحتها العفنة، زجاجات خمر وعبوات معدنية فارغة مبعثرة، بقايا عظام بشرية وجماجم تناثرت أرضاً في كل الزوايا.

استلت كشاف من حقيبتها وسلطته على الأرض أسفلها لتضيء الطريق أمامها خشية التعثر في تلك الفوضى التي تعم جنبات المكان، اطمأنت لخلو الطريق من عوائق السير فرفعت كشافها لأعلى لتجد الجدران وقد غطتها رسوماً غير مألوفة؛ نجوماً سداسية الأضلع، صلبان معقوفة ورؤوس كباش رسمت باللون الأحمر القاني وكأنها اصطبغت بالدماء، انتابها الاشمئزاز من تلك العبارات الشاذة التي كتبت بأحرف لاتينية وتحمل معاني الحرية والثورة والمجد للشيطان سيد الإنسان.

خطت بتؤدة وبخطوات متمهلة مقتربة بكشافها تستطلع أمر كتلة سوداء بدت غير واضحة المعالم إلى أن صارت في مواجهتها تماماً فتبينت كونها عدد موسيقية وسماعات ضخمة توارت في تلك الزاوية من الردهة الفسيحة لذلك القصر.

توقفت بجوار إحدى النجمات السداسية الأضلع المنتشرة على الجدران وانتقت واحدة تبدو كبيرة الحجم نسبياً وواضحة الزوايا ثم استدارت ملتفته إلى مرافقيها

- متهيألي هنا كويس يا راجي

باغته حين كان يتثاءب للمرة المائة منذ أن دلف بصحبتها إلى هذا المكان فقاطع تثاؤبه فجأة ليجيبها في اهتمام: آه هايل جداً .. بصي أنا هبتدي بتصوير المكان naP ftel وبعدين هقطع في نهاية الشوت عليكي يكون الجماعة بتوع الصوت ظبطوا المايكات ونبتدي التسجيل.

أومأت برأسها وتركته يستغرق في عمله بينما عقلها يعيد صياغة الجمل التي أخذت تعدها وترتبها في ذاكرتها منذ أن استيقظت بعد غفوة لا إرادية بشرفة منزلها لتجد مجموعة من الشبان والفتيات يتشحون بالسواد في باحة القصر الخلفية وقد شرعوا يغادروه بسياراتهم ودرجاتهم البخارية.

لم يكن مظهرهم الملفت هو الشيء الوحيد الذي استرعى انتباهها؛ فتواجدهم معاً بهذه الكثافة العددية وفي هذا الوقت المبكر بهذه المنطقة النائية نسبياً والتي تخلو تماماً من وسائل الترفيه التي قد تجتذب شباب من مثل فئاتهم العمرية دليلاً واضحاً وبرهاناً على أن هناك خطباً ما بداخل هذا القصر وهو ما دفعها إلى الإقدام على تلك الخطوة الجريئة باقتحام العالم السري لهؤلاء الشباب من أجل كشف النقاب عن أسراره والفوز بسبق تلفزيوني يرفع أسهمها لدى المشاهدين.

-جاهزة يا مدام أسمى .. الميكروفون معاكي دلوقتي

كان دور راجي في مباغتتها هي هذه المرة وانتشالها من أحلامها بخصوص المجد الإعلامي المرتقب فداعبت أحبالها الصوتية لا إرادياً ومرت بيدها على خصلات شعرها بسرعة قبل أن تومئ برأسها أنها قد صارت على أهبة الاستعداد للانفراد بهذا السبق فأعلن إشارة البدء من خلال العد التنازلي ثم أشار إليها لتبدأ

اندفعت حرارة في وجنتيها وكأن دورتها الدموية كانت متوقفة لبرهة وها هي ذا تستأنف عملها من جديد وشعرت بالنشاط يدب في كافة خلاياها فامتلأت نظراتها بثقة بالغة وهي تواجه الكاميرا أمامها من خلف نظاراتها الشمسية وبدأت جولة جديدة من جولات التوحد مع الأضواء التي تدمنها

أعزاءي المشاهدين .. صباح الخير

طبعاً حضراتكم مستغربين إني بقولكم صباح الخير وبرنامجنا بيتذاع عالهوا كل خميس بالليل .. الجميل في الموضوع إن احنا مش على الهوا وده تسجيل هيتعرض لحضراتكم في ميعاد حلقتنا زي كل أسبوع بس بعد ما نكون كشفنا لحضراتكم الحقيقة الكاملة

كفت لحظة عن الحديث والتزمت الصمت لثوان؛ صمت مدروس تستقطب به خيال المشاهد المترقب.

ماذا يحدث في قصر البارون؟؟

لحظات صمت إضافية تبتز بها خيالات المشاهدين أعقبها أن أحكمت قبضة يدها على الميكروفون وثبتت نظراتها باتجاه الكاميرا محركة يدها الأخرى باتجاه الجدار خلفها وكأنها تقوم باستعراض محتواه أو تلفت الأنظار التي قد تكون لم تنتبه إليه بعد.

قصر البارون أعزاءي المشاهدين مهجور منذ ما يقرب من ستين سنة وملاكه الأصليين مش موجودين في مصر والله أعلم ممكن ميكونوش موجودين في الدنيا كلها ..

القصر ده تحفة معمارية فنية اتبنى سنة ١٩٠٥ لكن الإهمال اللي عانى منه طول السنين اللي فاتت حوله بمنتهى البساطة لخرابة

فين الهيئة العامة للمحافظة على الآثار .. دورهم فين في حماية مكان متميز زي ده

حضراتكم شوفتوا المشاهد اللي اتعرضت عليكو من شوية .. هل يعقل إن يكون مكان مهجور من سنين فيه كمية الفوضى دي .. هل يعقل إن ميبقاش في رقابة ولا حراسة على مكان زي ده

طبعاً حضراتكم أكيد استغربتوا الرسومات اللي على الحيطان زي اللي احنا شايفينها دلوقتي وفي الحقيقة الرسمة دي واحدة من ضمن عشرات وكلهم غير مألوفين لا ليكم ولا لينا احنا شخصياً ..

صمتت مرة أخرى ثم رفعت رأسها باعتداد وهي تقول بحزم مسددة نظرات جريئة وقوية لعدسة الكاميرا أمامها

معاكو دقيقة بدقيقة .. هنرصد الحقايق وهنكشف ستر المجموعة اللي اعتبرت القصر ده وكر ليها واللي من الواضح انها بتقوم بممارسات غير تقليدية وغير مألوفة وقد تكون ممارسات شاذة أو يعاقب عليها القانون .. المجموعة دي زي الخفافيش ليلها نهار ونهارها ليل علشان كده زي محضراتكو شايفين احنا بنتحرك بحرية في المكان بتاعهم وقادرين نرصد مظاهر الفوضى اللي هما نشروها في أرجاء القصر .. تابعونا وهتعرفوا الحقيقة كاملة في الدقايق الجاية

أغلق راجي عدسة التصوير ورفع رأسه إليها مستفهماً فأمسكت بحقيبة يدها التي كانت قد نحتها جانباً وعلقتها بمنتصف كتفها وهي تهم بالرحيل: احنا دلوقتي مش هنعمل حاجة هنا .. انت خدت شوتاتك وطارق أكيد له رأي فيها .. أنا كمان محتاجة اقعد مع فريق الاعداد .. كل حاجة لازم تبقى جاهزة بدري جداً .. لازم

نبقى هنا قبل الولاد دول ما يوصلوا وكويس جداً إن مفيش حراسة على القصر علشان نتحرك براحتنا قبل ميجوا .. الكاميرات لازم تكون متدارية كويس علشان نقدر نصورهم من غير مياخدو بالهم .. متنساش إن لسه في إجراءات تانية زي ان احنا نبلغ وناخد إذن نيابة علشان ميبقاش فيه سين وجيم .. من الآخر يا شباب احنا داخلين على سبق إعلامي محصلش وعندنا احتفال الليلة ولازم كلنا .. كلنا .. نستعدله من بدري

***

حاولت أن تتجاهل كم الإرهاق الذي ينتاب خلايا جسدها ونجحت بالفعل في ذلك بعد أن تغلبت حماستها على تعبها فأجبرت جميع حواسها على التيقظ بفعل عدة جرعات من القهوة تناولت منها الفنجان تلو الآخر فمنحها الكافيين جزءاً من النشاط أو هكذا توهمت مما جعلها تندمج بسلاسة مع فريق العمل من حولها وقد تراصت أمامهم الأوراق والأقلام وتبادلوا الأفكار والآراء مكتوبة ومسموعة متجاهلة صرخات ذهنها الذي ينفطر ألماً من عظم الإنهاك.

لم تكن عيناها اللتان تتقدان حماساً لما هي على وشك نيله تلتفتان باتجاه عينين أخرين كانتا تراقباها في صمت، عينين تتقدان غيظاً لا لسلوكها الجاف معه صباحاً وإنما لإعلامه بما دار في الساعات الأولى من النهار وما انتوت إتمامه بعشية نفس اليوم مثله مثل أي شخص عادي في فريق العمل لا كشريك لها في كل شيء كما اتفقا منذ البداية.

كان يتحرك بآلية شديدة متحاشياً مخاطبتها بينما كانت هي في قمة انشغالها للدرجة التي جعلتها لا تلتفت إلى مخاطبته بل لا تتنبه لوجوده على الإطلاق، كان الجميع بلا استثناء يعمل بحماسة مشتعلة إلا هو كان الفتور يعتري كل تصرفاته وكأن الأمر برمته لا يعنيه في شيء، في الوقت الذي يسابق فيه الجميع الزمن لإنجاز كل ما أوكل إليهم من مهام قبل انقضاء الساعات القليلة التي تفصلهم عن الفوز بهذا السبق الإعلامي كان هو يضيع المزيد من الدقائق في أمور ثانوية متفادياً وجوده في دائرة وجودها.

التفتت حولها تفتش عنه فقد كانت في لحظة انتصار وأرادت أن يشاركها انتصارها كما اعتادا دائماً لكن ذلك لم يمنع رغبتها الجامحة في أن تريه أيضاً كيف كانت محقة فيما ظنت بينما لم يصدقها هو، أرادت أن تريه بالدليل القاطع كيف كان انصياعها لأوامره بتجاهل الأمر سيفوت على الجميع فرصة ذهبية كهذه، لم يكن

ذلك من باب الشماتة لكنها روح التحدي التي تتمتع بها وتجعلها تنسى أو تتناسى كونه زوجها قبل أن يكون زميل مهنة لكنه فوت عليها فرصة نيل التفوق عليه في هذا التحدي حيث أنها لم تجده في مكانه ولا في أي مكان آخر حولها، مسحت المكان بعينيها مرة أخرى فلم تجد له أثراً فانتابها حزن غريب نغص عليها لحظة فرحتها فكيف ستبرر لنفسها أمر أن يشغلها شغفها بالحدث الحالي عن ملاحظة وجوده من عدمه فتركت ما بيدها من أوراق وارتدت حذائها الذي كانت متخلية عنه تحت ستر الطاولة التي اجتمع عليها فريق العمل وقامت تخطو باتجاه الباب لتبحث عنه في الجوار.

انتفضت عندما وجدته أمامها فجأة فأصابته انتفاضتها بشيئاً من الاضطراب جعلته يحدق بها حين صاحت به في انفعال لم تتعمده: إيه يا عاصم انت كنت فين بقالي شوية بدور عليك ومش لاقياك؟؟؟

التوت شفته السفلى رغماً عنه ثم أطلق ضحكة ساخرة: شوية بتدوري عليا؟؟ هوا انا عيل تايه ولا إيه؟؟

التفتت حولها تتفحص العيون التي تتابعهما والتي استفز فضولها ضحكته المفتعلة فقالت في حرج بعد أن خفضت من نبرات صوتها قدر الإمكان محاولة أن تتدارك سقطاتها في جملتها السابقة كي تمتص غضبه الذي بدا على وشك الإعلان عن نفسه وحتى لا تلفت الأنظار إليهما أكثر من ذلك: مش قصدي .. بس احنا خلصنا تقريباً وجيت اشوف انت فين علشان آخد رأيك في حاجة

ضحك مرة أخرى لكن بمرارة: ما بدري يا هانم .. لسه بتفكري تاخدي رأيي دلوقتي .. ولزمته إيه متتعبيش نفسك .. رأيي يدوب تحصيل حاصل .. دانتي حتى مأخدتيش بالك إني بقالي اكتر من ساعتين بره .. لسه فاكرة دلوقتي تشوفي انا فين بعد مخلصتي كل حاجة وبقى عندك وقت فراغ ممكن تشغلي بالك فيه بيا .. متأخر أوي يا مدام أسمى .. متأخر أوي

لولا تلك الأعين الفضولية التي مازالت ترقبهما ولم تحيد بأنظارها عنهما لكانت وضعت كلتا يديها على فمه لتكفه عن الخوض في المزيد فحديثه لن يصب قطرات مرارته على فرحتها ويكدر صفوها فقط لكن الأهم أنه سيجعلها تفقد الجزء الأكبر من تركيزها فيما انتوت الإقدام عليه.

وجدت أن الوقت غير مناسب إطلاقاً للدخول في مهاترات أو التراشق باللوم وتبادل

المزيد من العتاب فاكتفت بأن ثبتت أنظارها على وجهه وأمسكت معصميه تعتصرهما بين أصابع كفيها وكأنها ترجوه وتستحلفه أن يتوقف واصطكت أسنان فكيها وهي تضغط الكلمات من بينهما: مش وقته يا عاصم .. مش وقته أرجوك .. لينا بيت نكمل كلامنا فيه.

قبل أن يعاود حديثه الذي يقطر سخرية قاتمة كانت قد اختفت من أمامه في لمح البصر واستقلت المصعد ليأخذها إلى أسفل قبل أن تتملكه نوبة الغضب مرة أخرى فاختارت أن تنضم للآخرين سريعاً قدر الإمكان وغالت من هروبها من مواجهته بأن استقلت الحافلة التي ضمت فريق العمل والتي ستقلهم إلى مسرح الأحداث وشددت على سائقها أن يرحل على الفور حتى تتحاشى رؤيته بالأسفل وتضطر إلى الاصطدام به مرة أخرى. نظر بلامبالاة إلى الحافلة وهي تبتعد متخذة طريقها إلى موقع التصوير ولم يبالي باللحاق بها سريعاً كما كانت تتوقع وتخشى، أراح ظهره إلى الباب الجانبي لسيارته وأخرج سيجارة من علبة استقرت بجيبه دسها في فمه قبل أن يقوم بإشعالها بولاعته الذهبية التي قد استعادها قبل قليل بعد أن ظن أنه فقدها بالسرقة ولم يتعد الأمر كونها مختفية عن مجال رؤية عينيه بأحد أركان السيارة.

***

قبل أن يوشك قرص الشمس على المغيب كان الكل في موقعه؛ الميكروفونات تم توزيعها في الأرجاء؛ الكاميرات تم إخفائها بصورة احترافية بحيث تكون غير مرئية لزوار الليل حين يأتوا، كل التدابير قد أخذت في الاعتبار ليتم تسجيل كل ما يحدث ليلاً بالصوت والصورة بعد الحصول على موافقة الجهات المعنية لتفادي التورط في مساءلة قانونية محتملة، كل شيء بدا على أهبة الاستعداد، قبع رجال الشرطة في شارع جانبي على بعد عدة كيلومترات من القصر لكن كما كان الاتفاق بأن لن يحدث مداهمة للمكان إلا في غضون ساعة تلي توافد المترددين على القصر حتى يكونوا قد امتلكوا أدلة قاطعة بالصوت والصورة على إدانتهم إن كانت أو براءتهم إن اتضحت.

كان الجزء الأكبر من فريق العمل بجوار السيارة المجهزة خصيصاً لمتابعة التسجيلات التلفزيونية عن بعد والتي اختفت في شارع ضيق على بعد عدة أمتار من السور الخارجي للقصر ولم يبقى بالداخل سوى ثلاثة أشخاص غالوا في مظاهر اختبائهم خشية مواجهة خطر محدق بهم؛ فهم حتى هذه اللحظة لا يعلموا تحديداً الهوية الحقيقية لمن هم على وشك القيام بمواجهتهم.

مر الوقت ببطيء شديد وكاد الملل أن يفتك بهم من طول ساعات الانتظار لكن حياة الظلام لا تبدأ فعلياً إلا بحلول منتصف الليل، بمجرد أن أعلنت عقارب الساعة تمام الثانية عشر بدأ الزحف باتجاه القصر لكن في مجموعات لا تتعدى عدد إحداها أصابع اليد الواحدة خشية إثارة الانتباه أو القيام ببعض الضجيج الذي قد يسترعى أسماع الآخرين في الجوار.

اشرأبت الأعناق واتسعت العيون وازدادت معدلات الذهول لرؤيتهم شباباً وفتيات أعمارهم تكاد تقترب من العشرين اتشحوا جميعهم بالسواد المغالى فيه واصطبغت أظافرهم وشفاههم بنفس ذات الأسود القاتم، سجائر متخمة تتدلى من الأفواه وتحتل الفراغات بين الأصابع، حلى غريبة ومعقدة الشكل تحمل مجسمات لجماجم بشرية وهياكل عظمية تتدلى من الرقاب أو تتوسط الأحزمة التي اعتلت السراويل الجلدية الضيقة، وشوم غريبة تحمل نفس الأشكال المعقدة والشاذة دقت بطول أذرعهم أو على أكتافهم، زجاجات الخمر تلتصق بالشفاه تروي ظمأ شديداً لا يكون إلا لماء عذب في صحراء مقفرة.

بمرور الدقائق وبعد أن بدا للحضور أن عددهم قد اقترب من الاكتمال استأنفت الآلات التي انزوت بأحد الأركان عملها ببث موسيقى صاخبة لا تميز لها نغمة محددة أو لحناً مميزاً؛ فقط إيقاع ثقيل يجثم على الأنفاس قبل الأذان فيجعلها تشعر بالضيق وأعراض انسحاب الروح تدريجياً ولعل تلك النغمات هي ما شجعت هؤلاء الشبان والفتيات على التحرر من أية قيود قد تكبل أرواحهم أو تحد من تفكيرهم فبدأت أجسادهم تتمايل في استسلام وبدأوا يتحركون بعشوائية متناسين حدود الجسد ومتجاهلين كل ما هو مسموح أو غير مسموح به.

وقف أحدهم بالمنتصف وقد أسدل على رأسه قلنسوة سوداء كالتي يرتدونها الرهبان وبجواره شيئاً أشبه بالمذبح غطت أجزاءه السواد وبأعلاه وضعت كأساً زجاجية ضخمة بها بعض العظام البشرية التي تبدو على الأرجح أنها قد تكون مسروقة من أحد المقابر وقد تراصت زجاجات الخمر من حول هذا الكأس الضخم، رفع الشاب يده التي تراصت بها خواتم غريبة الشكل متباينة الأحجام وقد خضب باطن كفه بالدماء ثم تناول خنجراً ضخماً ورفعه إلى أعلى وسط صيحات من حوله فاقترب منه آخر ممسكاً بديك ذو ريش أسود لامع فقام هو بذبحه بنصل خنجره وسكب دمائه بالكأس بجواره وقربه من شفتيه يرتشف منها.

ارتفعت الموسيقى وكأنهم قد أتموا طقوس صلواتهم وبدت حالة الانسجام في أوجها فبدأ الشباب في التمايل الشديد والالتصاق ببعضهم البعض أو بالفتيات المتواجدات

في حركات لا أخلاقية جعلت إحدى السيدات من فريق العمل اللذين يتابعون هذه اللقطات عبر الشاشات الصغيرة في الحافلة بالخارج تدير وجهها خجلاً وهي لا تدري كيف سيقومون بعرض تلك اللقطات على المشاهدين بالمنازل بل ماذا سيكون وضعها هي وباقي فريق العمل إذا تطور الأمر إلى أكثر مما يرونه حالياً فكل ما يعرض أمامهم يشير إلى أن ما يحدث بالداخل بعيد عن كل ما هو أخلاقي وعقائدي فقد كانت الكاميرات بالجانب الآخر ترصد أحد الشبان وهو يقوم بذبح حيواناً ما لم تستطع الكاميرا إدراك تفاصيله لكن كان المشهد واضح لذاك الشاب وهو يقوم بتلطيخ وجهه وجسده بدماء هذا الحيوان بينما رأسه تهتز بعنف.

في تلك اللحظة وقبل أن تتصاعد مجريات الأحداث وتتطور إلى أكثر من ذلك وكأن رجال الشرطة قد استمعوا إلى الأفكار التي دارت بخلد رجال التصوير فداهموا المكان على الفور وقاموا بإلقاء القبض على الموجودين جميعاً في اللحظة التي كادوا أن يوشكوا على اختراق كافة الأعراف والانجراف وراء ممارسات شهوانية شاذة وغير مقبولة وهم يحسبون أنفسهم بمنأى عن الأعين.

وسط الهرج والمرج الذي خلفه اقتحام الشرطة للمكان وبينما كان فريق التصوير يسجل كل ما يحدث بكاميراته حتى لا يفقد أثر أية تفصيله حتى ولو كانت صغيرة؛ كانت هي تستعد لتثبت وجودها الآني في مسرح الجريمة ببعض الجمل المثيرة التي سوف تلقيها تعقيباً على ما سوف يراه المشاهدين في البث القادم ولتحتفظ لنفسها ببراءة اكتشاف جريمة فريدة من نوعها ستظل مصر كلها تتحدث عنها لأيام بل لشهور ومن الممكن أن يستمر الحديث قائماً لسنوات قادمة.

تبخر من مخيلتها كل ما دار بينها وبين زوجها منذ ساعات وتناست أذناها حديثه الذي كان يتميز غيظاً فكل هذا لا يعنيها في تلك اللحظة ولا يساوي أن يتذكر المشاهدين لباقي حياتهم ذلك الوجه الباسم للمذيعة الجميلة الشقراء التي خاطرت بحياتها من أجل أن تكشف الحقيقة للملايين، حتماً سيقترن ذكرها بذكر هذا الحادث كلما جال بخاطر أحدهم.

هكذا أرادت وهكذا تحقق لها ما أرادت فقد كانت هذه الأحداث تسبق وقت حلقتها الأسبوعية بأربعة أيام انكب خلالها فريق العمل أجمع على جمع المعلومات والبيانات والقيام بأعمال المونتاج للمواد المصورة والتي تبعتها بعض التسجيلات تمت في سراي النيابة أثناء عرض المتهمين للتحقيق معهم وقد أثبتت التحقيقات والأدلة والبراهين حداثة عهدهم جميعاً بهذه الممارسات الشاذة التي تعرف عليها أحدهم أثناء سفره إلى الخارج في إحدى الرحلات الصيفية إلى دولة أوروبية حينها

رأي مجموعة من الشباب والفتيات يقومون بهذه الممارسات في أحد النوادي الليلية ويطلقون على أنفسهم عبدة الشيطان فاستهوته الفكرة وأبدى إعجابه الشديد وانبهاره بها فهو بالطبع أحد أبناء الطبقة الشديدة الثراء التي تنشطر مللاً من جراء توافر أي شيء وكل شيء يطمحون إليه فلا يوجد أي نوع من أنواع الإثارة في حياتهم وكيف ستتولد الإثارة ولو أرادوا الذهاب إلى القمر لأتى إليهم القمر طائعاً. بدأ هذا الشاب في بث أفكاره المسمومة بين أقرانه والذين لم تختلف ظروفهم عن ظروفه من حيث رغد العيش والفراغ الذي تعج به حياتهم وسرعان ما انتشرت الفكرة انتشار النار في الهشيم وبقي لهم تحديد مكاناً يجتمعون فيه لممارسة طقوسهم. اقترح أحدهم في البداية أن يقوموا بذلك في فيلا والده بمارينا وبالفعل اجتمعوا هنالك واتخذوا منها مقراً لهم حتى بدأ جيرانهم من سكان الفيلات المجاورة في إعلان تذمرهم من تلك الأصوات الصاخبة التي تؤرق ليلهم فكان لابد لهم حينها من الانتقال بنشاطهم إلى مكان آخر، مكان أكثر اتساعاً ويستحسن أن يكون في منطقة نائية أو منعزلة إلى حد كبير.

قصر مثلاً!!

قالها أحدهم دون مبالاة وهو يشعل سيجارته المتخمة بصنوف النباتات المخدرة فأشعل بها الإلهام لدى آخر ليقترح عليهم على الفور قصر البارون كمقراً لهم، هذا القصر المنيف الذي يبدو بلا مالك كما أن الحراسة من حوله فقيرة جداً لا تتعدى وجود أحد الخفراء وحده والذي من الممكن استقطابه تحت سطوة المال أو تهديده إن لم تزغ عينيه وتخضع لبريق الأوراق النقدية، وبجانب انعدام الرقابة على محيط القصر فإن موسيقاهم الصاخبة ستذوب أصداءها في المساحات الشاسعة حوله ولن تسترعي الانتباه لهم كما حدث من قبل.

حين تأكد لهم أنه قد وقع اختيارهم على المكان الأنسب بدأوا في الإلتحاف بأستار الليل كل مساء والاستعانة بظلمته في إخفاء دبيبهم وهم ينقلون أشياءهم جزءاً بجزء حتى اكتملت كل عناصر الإثارة التي يحتاجونها لتلك المغامرة الليلية اليومية وأصبح هذا القصر وكراً لهم يمارسون فيه طقوسهم التي لم ترتقي لكونها عبادة كما كان يقوم بها هؤلاء الشباب في الخارج إنما هي مجرد تعبير عن التمرد ورفض كل ما هو مفروض فانتفت عنهم تهمة ازدراء الأديان واكتفت المحكمة بإعمال بعض الأحكام المخففة عليهم نظراً لحداثة سنهم وقلة خبراتهم بالحياة.

***

لم يتوقف هاتف المنزل عن الرنين بعد انتهاء الحلقة، الجميع يهنئ ويبارك ويشيد بهذا الانفراد صحيح أن الجرائد اليومية كانت قد أشارت إلى تلك الحادثة قبل يومين على صفحاتها لكن الفرق شاسع بين أن تعايش الحدث صوتاً وصورة وبين أن تقرأه أحرفاً وكلمات على صفحات الجرائد البكماء.

اعتلت صورتها أغلفة المجلات الشهيرة كنصف الدنيا وحواء والإذاعة والتلفزيون مصحوبة بمانشيتات عريضة رنانة من نوعية « أسمى نصار وملفات عبدة الشيطان الخفية» أو «أسمى نصار تكشف أسرار الحياة الخفية لجماعة عبدة الشيطان في مصر»، كانت حديث الساعة مثلها مثل تلك القضية كما أرادت ورغبت؛ حين تذكر قضية عبدة الشيطان يذكر معها اسم أجرأ امرأة في مصر؛ المذيعة الجميلة اللامعة التي اقتحمت هذا العالم دون تردد أو خوف لتزيح الحجاب عن أسراره وتضع هؤلاء الشباب اللذين أرادوا الترويج لفكر شاذ عن مجتمعنا وعقائدنا تحت طائلة القانون ليلاقوا جزائهم ويصبحوا عبرة لكل من تسول له نفسه القيام بمثل هذه الممارسات المرفوضة.

قد تكون بعض المحن منح .. وقد تتحول بعض المنح إلى محن

في وقت اعتلائها درجات سلم المجد لترتقي فيها درجة تلو الأخرى كانت حياتها الأسرية على المحك، كان كبركان خامد على وشك الانفجار، امتدت الأذرع الاخطبوطية للغيرة فأحاطت بقلبه وعقله وسيطرت عليهما فأصبح يثور لأتفه الأسباب ويتهمها دوماً بالتقصير وكانت هي تشعر أن تألقها مؤخراً سبباً في تأرجح العلاقة هكذا بينها وبين زوجها الذي لم يعد شريكاً لها، فالشراكة التي نمت بينهما ذات يوم انفضت دعائمها وها هو الكيان الذي دأبا على إقامته وتدعيمه قد أوشك على الانهيار.

مضى قرابة الشهر على ذاك الحدث وبدأت الأضواء تخبو من حولها رويداً رويدا فيما عدا حلقتها الأسبوعية لا جديد يثار في هذا الشأن، مل الناس الحديث عن تلك القضية وتحولوا عنها إلى قضايا وأحداث أخرى فلم يعد هناك أحاديث صحفية ولا برامج تلفزيونية وعادت الحياة إلى وتيرتها وإلى سابق عهدها؛ عمل وبيت؛ وبيت وعمل؛ لا جديد بينهما سوى أن الفجوة بينها وبينه تزداد اتساعاً.

صار غريباً بينهم؛ يأتي صامتاً ويرحل ولم ينتقص من صمته مقدار أنملة، لم يعد يداعب أطفاله كما كان ولم يعد يغدق عليها من فيض المشاعر كما كان يفعل دائماً، لم يعد صبوراً بالقدر الكافي الذي يحتمل معه تقلبات مزاجها فيحتويها كما كان يفعل من قبل وأصبحت حجته المعهودة أنها تهتم بالعمل أكثر من شئون المنزل

وشئونه الخاصة لذا لا تنتظر منه أن يهتم بها وبأمور المنزل أكثر من نفسه، وزاد من اتساع الهوة بينهما اعتذاره رسمياً عن كونه عضواً في أسرة برنامجها وتقديمه استقالة غير مسببة دون أن يتكلف عناء إعلامها بذلك فتفاجأت بالأمر مثلها مثل باقي زملائهما.

كالقدور الساخنة حين يغلي الماء بها ويفتر بعد حين فتفقد أهم خصائصها ومعانيها، تلك هي مشاعرنا وعلاقاتنا بالآخرين؛ إما أن نحاول إعادة الدفء إليها من جديد أو نتركها حتى تصير باردة تماماً، فالماء الفاتر غالباً لا نفع منه فهو ليس بساخن فنغتسل ونطهر أجسادنا به وليس ببارد فنروي عطشنا منه.

أخذ رصيد محبته في قلبها في التناقص يوماً بعد يوم نتيجة إهماله لها ومعاملته إياها بهذه الطريقة اللامبالية فأصبحت لا تصبر على البقاء معه حتى في فراش واحد وأصبحت تتخذ من حجرة ابنها مبيتاً دائماً لها، تنام بعد أن ينام الجميع وتستيقظ قبلهم جميعاً، لم تغير من روتينها الليلي سوى أنها استبدلت فراشها الوثير بآخر يشاركها فيه ابنها دون أن يدري خلال ساعات نومه العميق، تفعل كما اعتادت أن تفعل كل ليلة تسهر ساعات قليلة بعد أن يخلد أولادها للنوم تقرأ وتعمل أمام هذا القصر الذي تفجر منه مجدها الشخصي وأيضاً مأساة كيان حياتها الأسرية ثم تتسلل على أطراف أصابعها لتختلس من ساعات الليل المتبقية وقتاً مستقطعاً يستريح فيه جسدها من وطأة العمل المتواصل ويكف خلاله عقلها عن التفكير.

شيئاً ما تحطم بينهما، شيئاً ما بينهما لم يعد كسابق عهده ومن المرجح أنه لن يعود، طالت فترات الصمت المطبق واحتلت الجزء الأكبر من فراغ حياتهما، حاولت مراراً وتكراراً وبشتى الطرق أن تذيب جبال الجليد التي امتدت بينهما وسيطرت على حياتهما لكن باءت جميع محاولاتها بالفشل ولم تفلح في إعادة هذا الشيء إلى أصله.

اقترحت عليه قضاء أجازه طويلة مع ابنيهما بالإسكندرية بعيداً عن أجواء العمل وبعيداً عن زحام القاهرة فقابل اقتراحها بالرفض، اقترحت عليه زيارة والدته في مسقط رأسه بالدقهلية والبقاء معها لفترة كما اعتادا أن يفعلا كل حين وآخر كي يتمتعا بهدوء الأجواء الريفية ونقاء الهواء بها وذلك السكون الذي يلف المنازل بعد صلاة العشاء إلى حين بزوغ الفجر لكنه رفض أيضاً وتعلل بأكاذيب لم تستطع إجبار عقلها على تصديقها حتى عيد الأضحى الذي اعتادا لطيلة أعوام زواجهما قضاء الليلة التي تسبقه وأول وثاني أيامه هناك في قريتهم؛ هذا التجمع السنوي المقدس حول الأضحية وإعادة تشكيل الجدران ببصمات الأكف المخضبة بالدماء؛ رفض أن

يكونا جزءاً منه ككل عام مما أثار حفيظة والدته وأخوته بينما التزمت هي المنزل فلم تعتاد الخروج في الأعياد إلا لغرض السفر وقضت مع أبنائها عيداً ليس بعيد. استغلت عيد ميلاده الذي توسط شهر أغسطس فأبقت على ولديها في منزل والديها وحاولت أن تجمع كل الأشياء التي يحبها والتي تغمر روحه بالسعادة فنظر إلى كل هذا بعين لا مبالية ولم يعر كل لمسات الحب والرومانسية التي أضفتها على هذا الاحتفال الصغير بالمنزل أي اهتمام وأدار ظهره بالاتجاه الآخر مسلماً نفسه لنوم عميق يتجاهل فيه كل الحب الذي حاولت أن تمنحه إياه.

صار منزلهما الدافئ بارداً كقطعة ثلج انحدرت من قمم جبال الألب وصار صوت التنافر والاختلاف هو بديل الصمت إن ضاقا ذرعاً بصمتهما وحاولا استبداله بحديث جاف ينتهي عادة بالعراك، حتى ولديهما؛ ضاقا ذرعاً بأجواء المنزل المحمومة ففضلا قضاء أجازتهما الصيفية بعيداً عنهما واختارا البقاء في منزل جديهما ليلتمسا بعضاً من الهدوء والسلام النفسي وهذا بالطبع أتاح لها الفرصة لتلتزم العزلة التي فرضتها على نفسها تجاهه والتي وللغريب والعجيب في الأمر لم تثر حفيظته أو غضبه نحوها ولم يحاول جاهداً أن يبذل أي محاولة ولو بسيطة لاجتذابها نحو عشه مرة أخرى فأدمى كرامتها كأنثى هجرها وليفها دون أسباب وهي التي تدعي في قرارة نفسها هجرانه.

***

أن تختزل أحزانك على أرواح بريئة أزهقت دون ذنب فقط في شريط أسود أعلى ركن من أركان الشاشة فذلك يعني أن قيمة هذه الأرواح لا تتعدى ثمن هذا الشريط، حزنك على الأرواح البريئة يحتم عليك أن تجعل كل أجزاء الشاشة مكتسية بالسواد، الحداد لا يقتصر على التعلق بمظاهره فقط وإنما الأبدي التمسك بالأفعال المترتبة عليه، الحداد يعني أن الحياة لن تستقيم ثانيةً حتى تثأر لهذه الأرواح ممن قام بحصدها ظلماً وعدواناً تمام كأبناء الصعيد اللذين لا يقبلون عزاءاً في قتيل منهم حتى يريحوا روحه بالقصاص وإلا اعتبروا قبول العزاء دون قصاص نوعاً من أنواع العار أما أن تكتفي الحكومات بعبارات الشجب والرفض والتنديد عوضاً عن تقصي أثر المجرمين ووضعهم تحت طائلة القانون بأقصى سرعة ممكنة وإعلان حالة الحداد المزعمة بهذه الشريطة السوداء على شاشاتنا بينما المجرم الحقيقي حراً طليق يعيث في الأرض فساداً فهو درباً من دروب العار.

استفاقت مصر ذات صباح رمادي اللون محمل ببعض الغيوم التي ما تلبث أن تنقشع بمنتصف النهار كباقي أيام شهر نوفمبر على حادثة زلزلت كيان الجميع،

مذبحة بالمعنى الحرفي للكلمة وقعت أحداثها البشعة في تمام الثانية عشر من ظهر ذلك اليوم بمعبد حتشبسوت بالدير البحري بالأقصر فقد قام ستة رجال مسلحون بأسلحة نارية وسكاكين بمهاجمة مجموعة من السائحين العزل وكان هؤلاء الرجال وقت الحادث قد تنكروا على هيئة رجالاً للأمن وقضوا بفعلتهم الخسيسة تلك على ما يقرب من اثنين وستون سائحاً من بينهم أربعة مصريين في غضون خمس وأربعين دقيقة فقط لا غير.

لم تكن الأولى من نوعها فقد كانت الأعمال الإرهابية الإجرامية على أشدها في هذه الفترة وقد سبقت تلك الحادثة بشهرين تقريباً حادثة مشابهة تحديداً في ظهيرة الثامن عشر من سبتمبر حيث استهدفت أتوبيساً سياحياً بميدان التحرير تم تفجيره ونجم عن ذلك مصرع تسعة سائحين لكن حادثة الأقصر رغم أنها ليست الأولى إلا إنها الأشد وطأة وتأثيراً على النفوس لما اتسمت به من عنف دموي شديد ولم يخفى على الجميع أثرها السيء على الأوضاع الخارجية لمصر فوضعتها في مأزق حرج لا تحسد عليه أمام باقي دول العالم.

كانت تقوم بإعداد حقيبة صغيرة تفي بأغراضها لثلاثة أيام مقبلة حين سمعت صوت الباب يطرق بالخارج فعلمت أنه قد دلف إلى المنزل، لم يحرك ذلك فيها ساكناً فمثلهم كساكني الفنادق لا يلتقي أحدهما الآخر إلا على سبيل المصادفة ولا تعني تلك المقابلات العابرة لأحدهما شيئاً.

كان من الواضح أن مزاجه ليس على ما يرام فهو بلا عمل منذ أشهر ولا تدري تحديداً كيف يقضي ساعات النهار خارج المنزل ولا ماهية مصادر دخله منذ أن ترك عمله بالبرنامج معها فذلك لا يثير لديها أي نوع من أنواع الاهتمام فحين تفقد الاهتمام بأحدهم لا يعنيك أياً من شئونه أو تفاصيل حياته مهما بلغت أهميتها.

انتي مسافرة؟-

ألقى السؤال على مسامعها بأسلوب يبدو فيه الكثير من الحدة وكأنه يستنكر حقيقة كونها على أهبة الاستعداد للرحيل رغم أنه يراها قد انتهت بالفعل من تحضير حقيبة سفرها، بدورها لم تلقي بالاً لسؤاله وردت بملامح مقتضبة مؤكدة له ما رآه فوجدته يشتعل غضباً لا تعلم إن كان بسبب لامبالاتها في الرد عليه أم بسبب كونها على وشك الرحيل أم أنه قد أتى محملاً بغضبه من الخارج وأراد أن يفرغ شحناته بها.

فوجئت به يقفز أمامها ويقبض على معصمها بكفه وهو ينظر إليها بعينين اتسعتا عن آخرهما ونبرات صوته قد بدأت حدتها في التصاعد: جرى إيه يا هانم .. هوا البيت ده مالوش راجل ولا إيه ولا انتي خلاص معتش ليكي ظابط ولا رابط .. من إمتي بتحضري شنطة هدومك وتاخدي بعضك وتسافري من غير حتى متديلي خبر قفزت نظرات التحدي من عينيها: من زمان يا عاصم .. من زمان أوي .. انت لسه بتفتكر دلوقتي بس تشوفني راحية فين وجاية منين.. سيب إيدي وابعد عن طريقي لو سمحت

استشاط غضباً وشدد إحكام قبضته على يدها وهو يصرخ فيها من جديد: انتي إيه .. نسيتي إني جوزك وليا حق عليكي .. ولا انتي خلاص كارهاني .. اوعي تكوني مفكرة اني مش آخد بالي إنك كل ليلة بتنامي في أوضة تانية .. أنا مطنش بمزاجي إنما ما تستحليش لعبة انك خلاص كارهاني ومش طايقة العيشة معايا أكتر من كده علشان متشوفيش مني وش تاني يخليكي تزعلي

التمعت عيناها بالدموع وهي تقول في ضعف: أنا مش كارهاك يا عاصم

خفف من وطأة قبضته عليها حين وجد الدموع قد بدأت تشق لنفسها طريقاً في منتصف وجنتيها فشعر بغصة في حلقه كونه لم يرى دموعها هذه منذ سنوات ورغماً عنه أفلت يدها فأفلتت العنان لدموعها تنهمر كيفما شاءت حين شعرت بأن قلبه يرق لحالها فأطلقت سراح الكلمات من أعماقها متخلية عن كل ما تحلت به من كبرياء طيلة الفترة الماضية: أنا عمري مكرهتك يا عاصم ولا يتهيأ لي اني عمري هعرف اكرهك .. أنا بس بكره أسلوبك .. مبكرهكش .. بس بكره تصرفاتك معايا .. انت واحد تاني غير عاصم اللي انا حبيته واتجوزته وربنا رزقني منه بولادنا .. ليه وعلشان ايه انت اتغيرت كده .. انا معرفش .. انا حقيقي مش عارفة انت ليه بتعمل كده معايا .. بس كل اللي انا متأكدة منه ان انا عمري محبيت حد غيرك ومش هعرف أحب غيرك أصلاً .. ولو حياتي متعلقة بوجودي في مكان أو بوجود حد في حياتي .. فالمكان ده هوا هنا في بيتنا .. والحد ده هوا انت .. انت متخيل انا بقالي كام سنة عايشه معاك .. متخيل حياتي لو انت خرجت منها هتبقى عاملة ازاي .. أنا حتى مش فاكره شكل حياتي قبل منك كان عامل ازاي ولا فاكره شكلي قبل ما اعرفك كان إيه .. انا كبرت معاك يا عاصم .. انت فاهم ده .. كان عندي كام سنة يوم محبيتك ودلوقتي بقى عندي كام سنة .. عمر تاني فوق عمري ويا عالم هعيش قده تاني ولا لأ .. أنا حتى لما زعلت منك دورت على حتة تانية اروحها غير هنا ملاقتليش مكان تاني .. ازاي بعد كل ده تقولي ان انا كارهاك.

خفق قلبه ولانت وتيرته لمرأى دموعها فهذه من المرات القلائل التي يراها فيها باكية فهي على الرغم من رقتها كانت شخصية في غاية الصلابة وما أصعب لحظات الضعف على شخص اعتاد القوة.

ضمها في صدره وحاول أن يعتصر رأسها بين أضلعه وعلى عكس ما توقع أن يجدها تنفر من بين ذراعيه كانت مستسلمة لأحضانه تماماً وكأن شوقها لافتقاد ذلك الحضن فاق غضبها وثورتها لإهمال صاحب الحضن لها.

استحضرت دموعها الغالية التي لا تنهمر إلا لأمر جلل شيئاً عظيماً كان تائهاً ومنسياً في أعماقه؛ شيئاً فاقت عظمته محاولاته المستميتة لإقصائها عن قلبه وعقله ومهما حاول قلبه إيهامه أنه قد تحرر من حبها أخيراً فالتجربة العملية خير برهان على تربع هذا العشق في جزيئات فؤاده وتمكنه منها.

ابعدها برفق وقد استفز هذا الموقف عاطفته وجعل عينيه تلتمع بنظرة غريبة عنها ودموع تغالبه لتقفز من مقلتيه أسفاً على تلك الفترة الماضية لكنه قاومها بكل ما أوتي من قوة وتمالك نفسه وهو ينظر إلى أعلى ثم عاود النظر إلى عينيها طويلاً وكأنه كان يفتقد ذلك العمق بهما ويريد أن يعوض ذلك الفقدان دفعة واحدة. ضمها إلى صدره مرة أخرى وكأنه يريد أن يصدق أنها في أحضانه أخيراً ثم ما لبث أن أبعدها برفق ونظر إلى عينيها مرة أخرى قائلا في حنان: يلا يا أسمى علشان متتأخريش على طيارتك .. لما ترجعي بالسلامة عايز اقعد معاكي كتيييير اوي علشان عندي ليكي كلام كتيييير اوي .. حاسس ان زي ميكون بقالي سنين محكتش معاكي مر بأنامله على وجنتيها الناعمتين وكأنه يتأكد أنه لا يوجد دموع أخرى قد تجرأت لتبقى وتقاوم تلك الابتسامة الساحرة على ثغرها العذب والتي تولدت إثر جملته الماضية فتحرى الصدق في كلماته وهو يكاد يقسم لها لتصدقه: اوعدك يا أسمى .. وحيااااة أسمى عندي .. وحياة أسمى اللي معنديش أغلى من حياتها علشان احلف بيها إن عاصم بتاع زمان هيرجع زي زمان وأحسن من زمان كمان .. اوعدك إني هنسيكي كل الفترة اللي فاتت دي ولما هفكرك بيها هتلاقي نفسك ناسياها بجد

قفزت الفرحة من عينيها: عاصم .. بحبك اوي

نظر إليها كيوم رآها أول مرة؛ تلك النظرة التي لا تفتأ تتذكرها فتثير في نفسها نفس النشوى، نظرة العاشق الولهان الذي لا يريد أن يحيد ببصره عن معشوقته حتى ولو لثواني ومر بأنامله على شفتيها يتحسسها في هيام: وانا كمان بحبك اوي وبموت فيكي وبعشق كل حاجة فيكي

ارتمت في أحضانه مرة أخرى فضمها بكافة جوارحه وهو يود ألا يضطر إلى التخلي عنها في لحظة كتلك لكنه يعلم كيف أن للعمل أولوية في حياتها ولن يغفر لنفسه إن أصبح سبباً لتعطيلها عن أكثر شيئاً تحبه وتتقنه في الحياة فربت على ظهرها في حب ثم اقترب بشفتيه من أذنها هامساً: حبيبتي انتي كده ممكن تفوتك الطيارة .. مش عايزك تتأخري عن شغلك لما ترجعي لازم تاخدي اجازة طويلة أوي نسافر فيها أنا وانتي وبس

اختطف قبلة سريعة من شفتيها الناعمتين قبل أن تملأ ابتسامة رضا شفتيه وتنير وجهه كله: أنا عايزك تاخدي بالك من نفسك أوي وأول متوصلي تكلميني .. ضروري يا أسمى أنا هقعد استنى مكالمتك ومش هخرج غير لما اتطمن إنك وصلتي بالسلامة

أومأت برأسها وابتعدت تلملم بعض الأشياء المتناثرة على الفراش وهمت تحمل الحقيبة بعد أن أحكمت إغلاقها فاقترب يحملها عنها قائلاً: على مهلك يا حبيبتي .. انا هاجي معاكي اوصلك المطار

خطت باتجاه الردهة وهي تقول في سرعة وقد تنبهت إلى انفراط الدقائق المتبقية على موعدها سريعاً؛ أسرع مما توقعت: متتعبش نفسك يا حبيبي خلي الشنطة هنا البواب هيطلع ياخدها .. زمان عربية الشغل على وصول

أومأ برأسه في استسلام حين لمس في نبرات صوتها إصراراً على ألا يرافقها وحمل الحقيبة إلى الردهة في انتظار حارس العقار ليخبرها بوصول الحافلة التي ستقلها إلى المطار فوجدها تلتفت إليه في دلال وابتسامتها تضئ وجهها قائلة: هوحشك؟؟

هم بفتح فاهه حين قاطعته طرقات متتالية بالباب معلنة أن وقت الرحيل قد آن بالفعل فرفع كفيه في مستوى كتفيه وتنهد في حرارة قائلاً بحزن حقيقي: انتي ابتديتي فعلاً توحشيني من دلوقتي

***

لأول مرة بعمرها تراودها فكرة أن عملها قد يقف حائلاً بينها وبين استمرارها بحياة أسرية هادئة كتلك التي نعمت بها طوال الخمسة عشر عاماً الماضية، لا تعرف تحديداً لماذا تلح عليها هذه الفكرة بجنون ويتعالى صخب تكرارها في باطن حوارها الصامت مع نفسها، أيكون افتقادها لزوجها في هذه اللحظة هو سبب استحضار تلك الفكرة في عقلها، أتكون تلك النظرة التي رأتها في عينيه أثناء إنزال

الحقيبة؛ النظرة التي كانت ترجوها وتتوسل إليها ألا تتركه لحاله وترحل؛ نظرة باحت بالكثير حتى وإن توارى حديثه في رداء الصمت أمامها؛ نظرة كانت ستجعلها تتخلى عن سفرها في اللحظة الأخيرة من أجل أن تستكين في أحضانه لساعات بل لأيام إن أمكن ذلك.

أطلقت تنهيدة حارة من أعماق صدرها؛ آن الأوان لتعترف لنفسها أنها قصرت في حق زوجها وأولادها كثيراً، آن الأوان لتعترف أنها كانت تضع نفسها وعملها في المرتبة الأولى في قائمة أولوياتها ليأتوا هم بالمرتبة التالية؛ واليوم تجني ثمار هذا الترتيب الجائر الذي جعل علاقتها بزوجها تنجرف إلى هذا المنحدر الخطير بعد أن صارت أواصرها واهية وربما علاقتها بأولادها تأول هي الأخرى إلى ما آلت إليه علاقتها به.

تنهدت في ألم؛ أيكون ثمن الإبقاء على حياتها هو التخلي عن أحلامها، منذ أن تزوجت كانت كل صباح تنظر إلى نفسها بالمرآة وتردد مقولتها المأثورة التي تدعم بها حالها

لا تتخلي عن أحلامك من أجل زواجك، ولا تجعلي أحلامك تهدد زواجك

كلاهما حياة

زواجك حياة؛ ولكي في أحلامك حياة أخرى

لكن الحق والحق يقال إن أحلامها التي بلغ عنانها حد السماء جعلت حياتها قيد التهديد وها هي اليوم مطالبة إما بموازنة الأمور أو بالتخلي عن إحدى الحياتين من أجل الإبقاء على الأخرى، اختيار صعب بل أنه في غاية القسوة كيف تقارن الماء بالهواء، كلاهما أساسي ليبقيها على وجه الحياة فعشقها لأحلامها كالهواء الذي تتنفسه لكن حضن زوجها كالماء الذي يروي ظمأ تتقطع له ويروي عروقها التي انفطرت شوقاً لهذا الحضن طيلة الأشهر العجاف الماضية.

اللي واخد عقلك يتهنى بيه-

انتفضت رغماً عنها حين قاطع صوت طارق أفكارها المتضاربة وانتشلها من أعماقها فضحك قائلاً: لا دانتي مش معانا خالص

ردت بحرج: آسفة يا طارق مخدتش بالي خالص .. انت كنت بتقول حاجة

ضحك مرة أخرى: عمال أقولك الطيارة هتتأخر ساعة كمان اجيبلك حاجة تشربيها .. وأقول وأعيد .. وأعيد وأزيد .. وانتي باصة في الكتاب اللي في إيدك ولا انتي هنا أصلاً

انتبهت لكون الرواية مازالت في يدها منذ أن اختارت هذا المقعد لتجلس إليه في انتظار الطائرة وبدلاً من أن تعيش أحداث الرواية لتنفصل بها عن الواقع كما تحب أن تفعل دائماً انفصلت عن الرواية بأحداث واقعها التي شغلتها عن كل ما يحيط بها من أحداث.

لمس انشغال عقلها فاقترب يجلس بالمقعد المجاور لمقعدها قائلاً في تبسط ينم عن صداقة عميقة تتعدى حدود زمالة العمل: مالك يا جميل؟؟

تنهدت: مفيش

ابتسم في ود: لا يا شيخة تصدقي انا كده صدقتك

صمت للحظة منتظراً ردها ثم ما لبث أن قال بجدية بعد أن وجدها لا ترغب في المزيد من الحديث: انتي مش عجباني يا أسمى .. بقالك فترة مش في اللون وانا شايف وعارف بس مش عايز اتقل عليكي واسألك مالك وبقول سيبها يا واد لما تحب تحكي هتحكي بس حق العشرة والسنين اللي بيننا والعيش والملح اللي أكلناه سوا إني لما أحس إنك بتدبلي قدامي وانتي كنتي زي الوردة المفتحة اشوفك فيكي إيه .. مش دي أسمى اللي كان كلها نشاط وحيوية وتدخل الاستديو تهزر مع ده وتضحك مع ده وتقلب كيأننا كلنا في كلمة ونص .. مالك يا أسمى ومتقوليليش مفيش علشان مش هصدقك ولا هتخيل عليا كلمة مفيش

تنهدت مرة أخرى وقد شعرت أنها مضطرة آسفة للخوض في حديث شائك لا ترغب في التطرق إليه لكن صدرها قد ضاق بالفعل بما فيه ولابد لها من الإفصاح عما يعتمل بنفسها عل ذلك يخفف عنها الإرهاق النفسي والحيرة التي تعاني وطأتهما على أعصابها ولو بقدر قليل.

-زهقت والله يا طارق

-زهقتي من إيه بالظبط؟؟!!

كان يسألها بنبرة يملأها القلق فردت وصوتها يرتعش؛ يكاد يوشي بها وبعدم اقتناعها بما عقدت العزم عليه بينها وبين نفسها في اللحظات الماضية: زهقت من الشغل ومن الضغط العصبي اللي الواحد عايش فيه طول الوقت والبهدلة اللي انت شايفها دي .. كل يوم في حتة وكل يوم في بلد .. حاجة آخر لخبطة .. ليلي نهاري ونهاري ليلي

لحظات صمت أرادت أن تستطلع خلالهم ردة فعله على كلماتها السابقة فلما لم يجبها منه إلا الصمت اغتصبت ضحكة مفتعلة قائلة: مخبيش عليك يا طارق بفكر جدياً في الاعتزال

- نعمممممممممم ؟؟؟؟؟

صاح باستنكار شديد ثم اندفع يستفسر منها مرة أخرى كونها تتحدث بجدية أم أن الأمر لا يعدو مجرد مزحة.

ردت بتحد شديد بعد أن استفزها الاستنكار الذي تشبعت به لهجته: لا مبهزرش يا طارق وفيها إيه يعني لما ييجي عليا اليوم اللي أفكر فيه إني ارتاح شوية واتفرغ لبيتي وجوزي وولادي

انتفضت عروقه من جانبي جبهته العريضة وقطب حاجبيه الكثيفين واتسع محيط عينيه بالرغم من ضيقهما: فيها كتير يا أسمى .. فيها إن مصر فيها ستين مليون نصهم ستات قاعدين في بيوتهم متفرغين لأجوازهم وعيالهم بس مفيهاش غير أسمى نصار واحدة بس .. والستين مليون دول بستاتهم ورجالتهم وعيالهم بيتلموا حوالين التلفزيون كل أسبوع علشان يتابعوا برنامجها ويشوفوا الجديد عندها هيا وبس .. طب بذمتك انتي كام حلقة عملتيها كسرت الدنيا ومصر كلها مكانش ليها حكاية غيرك وغير الحلقة بتاعتك آخرهم الحلقة بتاعة العيال بتوع عبدة الشيطان اللي كانت من كام شهر .. طب فاكره الحلقة بتاعة أكثم بتاع زلزال ٢٩ اللي فضل عايش اسبوع تحت الأنقاض .. فاكره الحلقة دي كسرت الدنيا ازاي والتلفزيون عادها كام مرة ولا فاكره سلسلة الحلقات بتاعة حرب العراق والكويت والمصريين اللي راجعين من الكويت بهدومهم اللي عليهم بعد ما سابوا شقا عمرهم هناك ونفدوا بجلدهم من الموت .. ولا حلقة الست اللي قتلت جوزها وقطعته حتت ورمته في اكياس الزبالة دي برضه قلبت الدنيا .. وغيرها وغيرها .. تاريخ طويل مينفعش تيجي في يوم وليلة ومن غير أي مقدمات تهديه كله وتمسحيه بأستيكة

أطرقت برأسها أرضاً ولم تستطع التفوه بأي كلمة قد تعارض ما ألقاه على مسامعها منذ قليل فقد كان محقاً في كل حرف تفوه به لكنه لن يتفهم حقيقة وضعها ولا يستطيع حتى أن يتخيل مقدار الصراع الذي تحيا والذي حتى هذه اللحظة لا تدري كيف ستحسمه ولصالح من.

أكمل بنفس الانفعال: نسيتي كلامك .. مش انتي اللي كنتي بتقولي إن الإعلاميين آداه رقابة على مؤسسات الدولة مش آداه في إيدها .. نسيتي كلامك إن احنا صوت الضمير اللي المفروض يوعي الناس ولو حد سكت الصوت ده أو كتفه أو خلاه ينطق لصالحه هو .. الناس ساعتها هتبقى مغيبة والحقيقة هتضيع والحق هيضيع والبلد كلها هتضيع.

كانت الدموع تهم بأن تنسكب من عينيها عند سماعها لثوابتها التي آمنت بها طوال عمرها وهو يعيد إلقاءها على مسامعها بعد أن كادت تكفر بها وتتناسها في لحظة لكنها قاومت الدموع بضراوة فلم يطق صبراً لتحمل صمتها أكثر من ذلك والذي وإن دل على شيء سيدل على عدم صدقها مع نفسها وعدم امتلاكها الحجج القوية التي قد تدفعه هو أو غيره للنظر إلى قرارها الأهوج من منطلق أنه صواب

-هوا عاصم هوا اللي اقترح عليكي الاقتراح ده؟؟!!

أسرعت بالنفي: عاصم مالوش دعوة بالموضوع ده يا طارق .. أنا اللي حاسة إني تعبت ومش قادرة تاني أركز في أكتر من حاجة

خبط ساقه بكف يده وهو يقول بنبرة مستنفرة: أنا كنت عارف .. كنت عارف إن في مشاكل هتحصل بينكم .. أنا كنت متأكد ان البهدلة اللي كنتي فيها الفترة اللي فاتت دي بسبب أنه ساب البرنامج

اغتاظت لكونه مصراً على تجاوز كافة الخطوط الحمراء التي تحيط بها سياج حياتها الشخصية وبفضلها تحجب تفاصيلها عن الجميع حتى عن أقرب المقربين إليها

-مشاكل إيه اللي انت بتتكلم عليها يا طارق .. أنا وعاصم عمر ما كان في بيننا مشاكل الحمد لله .. وأظن احنا بقالنا كام سنة اصحاب قبل ما نكون زمايل شغل وميتهيألش ان احنا من النوعية اللي حياتنا كلها مشاكل زي غيرنا

كانت تلمح لخلافاته المتكررة مع زوجته؛ لم تكن تستهويها هذه الطريقة على الإطلاق لكنها لجأت إليها لمنعه من الخوض بالمزيد، فكما تحب ألا يتدخل أحد

فيما لا يعنيه من شأنها وشأن عائلتها لا تحب أيضاً أن تكون لها عيناً ثاقبة تنقب بها عن عيوب غيرها ومشاكله ونقاط ضعفه لتكشفها له أو تحتفظ بتفاصيلها لتواجهه بها في موقف كهذا، لكن إصراره المستميت على الولوج إلى منطقة شائكة والتحدث عن أزمة أسرية عظيمة بالكاد تحاول هي أن تمرق منها بسلام استفز كافة نزعات الشر بداخلها لتميل كفة الحديث باتجاهه عله يكتفي لكن حتى هذه المحاولة لم تفلح إلا في استفزاز المزيد من مواطن الفضول لديه محاولاً دفع طاقاتها الاستفزازية لترتد إلى صالح نفسها بدلآ من أن تقوم بتوجيهها إليه.

-يا ستي صدقيني .. أنا راجل زيي زي عاصم وعارف يعني إيه أبقى من غير شغل والست بتاعتي هيا اللي بتشتغل وتصرف عليا .. والأخيرة دي بالذات كفيلة انها تقيد البيت حريقة وتخليه يحس .....

لم تمهله الفرصة ليستكمل حديثه الذي تجاوز به كافة حدود المسموح؛ فهبت واقفة تحمل كتابها الذي تخلت عنه قبل دقائق منذ أن خاضت معه في مهاترات لا جدوى من الاستمرار بها وقاطعته بلهجة تعمدت أن تكون مستفزة إلى أقصى الدرجات وتحمل في طياتها الكثير من الزهو والخيلاء: شغل إيه يا طارق .. انت مفكر إن الملاليم بتاعة التلفزيون هيا اللي معيشانا في المستوى اللي احنا عايشين فيه ده .. انت ناسي عاصم مين وعيلته تبقى مين .. العزب والأطيان اللي في بلدهم كلها ملك عيلة عاصم .. تفتكر انه هيسيب كل ده وهيبص لمرتبه اللي بيقبضه كل آخر شهر .. لا يا طارق .. دول يدوب الفكة ومش عاصم فريد اللي يعضله أنه يسيب حتة وظيفة لا راحت ولا جت.

على الرغم من أنها أصابت هدفها كما بغت ورأت الدماء تغزو عروق وجهه أخيراً وشعرت بحركة أسنانه وضروسه تصطك بعضهما البعض في غيظ إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تكون في قمة الانفعال وهي تغادر موضعها أمامه للدرجة التي شعرت معها أنها لم تعد تستطيع السيطرة على رعشة خفيفة سرت في أناملها.

هو الذي قام باستفزازها إلى هذا الحد؛ هو الذي دفعها إلى اللجوء إلى الكذب كوسيلة للدفاع عن النفس ضد هجمات الآخرين، صحيح أنها قالت نصف الحقيقة لكن النصف الآخر عار تماماً من الصحة، فعاصم بالفعل من عائلة ميسورة الحال بالدقهلية وجميع أعمامه يملكون من الأراضي الزراعية وحدائق الفاكهة والموالح مئات الأفدنة لكن أبوه كان شخصاً مزواجاً وكان لا يجد غضاضة في بيع أرضه الفدان تلو الآخر لأحد أخوته من أجل أن ينفق عائد بيعها على زيجاته المتعددة حتى انتهى به الأمر إلى امتلاك قطعة أرض صغيرة جداً تركها إرثاً بعد وفاته لعاصم

ومعه سبعة من الأخوة والأخوات معظمهم غير أشقاء.

تباً للفضول، تباً للفضوليين اللذين لا يؤمنون بمساحات الخصوصية في حياة غيرهم، تباً للذين يعطون لأنفسهم مساحات في فراغ حياتك يشغلونها لمعرفة كافة تفاصيلك الشخصية دون وجه حق، يفتشون في أعماق انطباعات ملامحك بحثاً عن دلائل تشير إلى حقيقة شعورك الداخلي ويبدأوا في تتبع الخيط الذي أدلت به تعبيرات وجهك ليستنبطو من خلاله ما يدور بخلدك، ينتابك شعور عارم بالنفور منهم وكأنهم يقومون بالتفتيش في أغراضك الخاصة ولو كان الأمر بيدهم لجردوك من ملابسك ليطلعوا على عوراتك حتى يكونوا على علم بكل ما قد ستر عن أعينهم، يمرون في حياتك صدفة فينهالوا عليك بكم من الأسئلة الدقيقة يتفقدون بها مسار حياتك منذ أن تركوك آخر مرة وحتى لحظة اللقاء هذه فتشعر في وجودهم أنك في حضرة أحد وكلاء النيابة أو أحد أعضاء هيئة المحلفين ويقوم بالتحقيق معك واستجوابك على أعلى مستوى من أجل بلوغ الحقيقة والحقيقة فقط فهم لن يقبلوا سواها حتى تخور قواك وتنهار وتعترف بكافة تفاصيل حياتك الشخصية التي لم تكن تود البوح بها.

غلبها النعاس رغماً عنها على مقعد قصي اختارته نائياً وبعيداً عن الجميع حتى لا تضطر إلى الاحتكاك بطارق مرة أخرى أو غيره ممن يعتنقون الفضول كمذهب سلوكي مفضل لهم، أيقظتها يداً حانية فانتفضت وهي لا تدرك أنها قد ذهبت في غياهب النوم وأسلمت نفسها إليه لقرابة الساعة فلم تشعر بكل ما يدور من حولها إلا حين اقتربت منها سميرة التي تعمل معها في فريق الإعداد الخاص بالبرنامج، هزتها في رفق عندها فقط انتبهت ونظرت إليها بعينين منزعجتين فوجدتها تقول في خجل: معلش أنا آسفة مكنش قصدي أخضك بس شركة الطيران لغت رحلات النهاردة وأول طيارة هتبقى فجر بكرة

قالت في جزع: الفجر!! .. ليه طيب في حاجة حصلت؟؟

أسرعت تطمأنها: متقلقيش خير .. كل الحكاية إن مطار الأقصر على آخره علشان الطيران اللي بينقل السياح من هناك بعد اللي حصل فوقفوا الطيران الداخلي ولغوا كل رحلات النهاردة وأول رحلة هتبقى الفجر

تململت في جلستها وتغيرت كل ملامح وجهها وامتلأت أسفاً: يادي المصيبة .. يعني بيرحلوا السياح .. يادي الكارثة .. يا ربي .. هيا البلد ناقصة .. منهم لله .. حرام كده والله هوا احنا كفرة .. بيعملوا فينا كده ليه .. يروحوا يفجروا نفسهم في اسرائيل

ويحاربوا الإرهابيين الكفرة اللي بجد اللي بيدبحوا العزل والأطفال اللي هناك انما إحنا ذنبنا إيه .. أتوبيس يفجروه ومدارس يضربوها ويطلعوا بالرشاشات كمان على ناس ملهاش أي ذنب

ربتت سميرة على كتفها وهي تقول مهونة عليها: لا حول ولا قوة إلا بالله .. هنعمل إيه بس .. آدي الله وآدي حكمته .. ربنا يلطف بينا ويبعد أذاهم عنا وعن ولادنا وعن بلدنا كلها

انتبهت لأثر تبعات الموقف الراهن عليها؛ فبهذا التأجيل ستضطر للبقاء لساعات إضافية على هذا المقعد البارد، كما أن عاصم مازال بالمنزل منتظراً مكالمتها لتطمأنه على بلوغها وجهتها كما وعدته قبل أن ترحل عنه.

-مفيش تليفون قريب من هنا؟؟

-متهيألي في كابينة ميناتل في آخر الممر اللي هناك

قالتها وهي تشير بيدها بالاتجاه الآخر فخطت أسمى تجاهه ثم عادت أدراجها سريعاً تسألها على استحياء: أنا نسيت إني مش معايا كروت أصلا .. انتي معاكي طيب كارت ميناتل أو رينجو

هزت رأسها نافية فبدت خيبة الأمل على وجهها: يا ربي .. طب وبعدين .. وطبعا مفيش ولا تليفون واحد عملة في المطار كله .. طبعا ما هو من ساعة مركبوا الكباين دي لغوا كل التليفونات اللي كانت شغالة بالعملة

رفعت سميرة كتفيها ثم قالت لها: تحبي أشوفلك كارت مع أي حد

قبل أن تهز رأسها موافقة قفزت إلى رأسها فكرة: هيا الساعة في إيدك كام؟

-تمانية إلا ربع

طرقعت بإبهامها ووسطاها في ظفر: طب أنا تاعبة نفسي ليه ونص ساعة من هنا أبقى في بيتي .. أنا هشوف أي حد نازل البلد أركب معاه يوصلني ولو مفيش هاخد تاكسي بس خلي شنطتي معاكي .. أطمن عاصم بدل ما هو حابس نفسه في البيت مستنيني أكلمه واقعد معاه حبة وبعد كده يبقى يجيبني لهنا بعربيته.

قبل أن تهم سميرة بفتح فاهها معلقة قالت لها مستفسرة: انتي معاكي رقم بيتي؟؟

هزت رأسها نافية فقالت لها في سرعة وهي تخشى أن تضيع الساعات القادمة في تلك الوقفة التي لا طائل منها ولا فائدة: طب طلعي ورقة وقلم وأمليهولك .. لو حصل أي حاجة كلميني وحياتك يا سميرة ولو لأي ظرف من الظروف السفرية اتلغت إدي الشنطة بتاعتي للسواق وهوا يبقى يعديها على البواب وهوا هيطلعهالي .. ماشي يا سميرة اوعي تمشي وتسيبيها علشان فيها حاجتي

***

وجدت علامات الحب السبع الطريق إلى شفتيها ووجنتيها وخفقات قلبها وكيانها كله من جديد، فترت مشاعرها تجاهه بعد أن ضمهما بيتاً واحداً لسنوات؛ فالشعور بالامتلاك يقتل بداخلك الشعور بالشوق والاحتياج، فهل كان لابد لها من خوض تجربة إمكانية خسارته حتى تحيي شوقها واحتياجها له مرة أخرى ولتستشعر بنفسها مدى تعلقها البالغ به وعشقها له الذي يبلغ حد الجنون.

غابت عنها تفاصيل الطريق وقد أخذت ترسم سيناريوهات عدة مختلفة لهذا اللقاء وتمعن في تخيل وقع المفاجأة عليه حين يجدها أمامه بينما تعيد استرجاع تلك النظرة التي رماها بها وهي بجوار الباب قبل أن ترحل منذ ساعات، تخيلت مدى الشوق الذي سيغمرها به وتلك القبلات التي سيمطرها بها وأخذت تمني أذنيها بسماع كلمات الحب وعبارات الهيام التي اختزنها بقلبه طوال الفترة الماضية وآن له أن يستخرج مخزونه من المشاعر الدافئة ويغدق به عليها.

شكراً لتلك الظروف التي تفاجئنا بالانضمام إلى صفوفنا من أجل بلوغ أسباب السعادة وأي سعادة تلك التي تعادل اللحظات المختلسة من الزمن فهي سعادة من نوع خاص كسعادة مراهق اكتشف لتوه الحب واستعد لمقابلة حبيبته للمرة الأولى بحياته بحديقة غناء وافرة الأفرع فاراً بها بعيداً عن كل الأعين.

تخيلت الكثير والكثير وتوقعت الكثير والكثير لكن الشيء الوحيد الذي لم تتوقعه بعد أن تسللت إلى الداخل على أطراف أصابعها هو أن تفتح باب غرفة نومهما لتجده جالساً في منامته على الكرسي المقابل للتسريحة وأمامه على طرف الفراش جلست فتاة في العشرينات من عمرها شعرها الغجري منسدلاً على كتفيها يلامس أعلى منتصف ظهرها بقليل وترتدي قميصاً للنوم من النوع الرخيص وقد أبدى من مفاتنها الكثير.

جمدت الصدمة أطرافها وأوقفت الكلمات في حلقها بينما تيبست ملامحه الجزعة

ينظر إليها وقد ارتسمت معالم الرعب على قسمات وجهه، أيضاً هذه الفتاة كان لها نصيباً وافراً من الجزع الذي انتقل إليها بالتبعية وحملته جزيئات الهواء بتلك الغرفة من حولها لتستنشقه وتعكس ملامحها سريانه في دمائها، توقف الوقت لثوان لا يدري ثلاثتهم من سيكون صاحب مبادرة التحدث أو من ذا الذي سيقوم باتخاذ أول ردة فعل مناسبة لهذا الموقف الذي شل تفكيرهم جميعاً.

اعتصر الألم قلبها وهي تدير عينيها بينه وبينها محاولة استيعاب الموقف للمرة العاشرة على الأقل علها تكون مخطئة أو اختلط عليها الأمر ودلفت إلى شقة أخرى غير شقتها لكن حتى وإن أخطأت عيناها لن يخطأ قلبها ذلك الإعصار الذي اجتاحه منذ قليل، إنه حقاً هو؛ هو من كانت لأجله ستضحي بكل شيء وبأي شيء؛ هو وبجواره أخرى غيرها؛ في عنفوان شبابها تبدو مقارنة بها كتفاحة طازجة سقطت لتوها من على غصن بان لشجرة مزدهرة مترامية الأطراف بينما هي تعاني تيبس ثمار شجرتها وذبول أوراقها ووشوكها على التساقط.

قاومت دمعة تجاهد لنيل حريتها لكن الصدمة جمدتها في مقلتيها وفتحت فاهها أكثر من مرة محاولة التحدث بأي شيء، أي شيء مهما كان تستبين به واقعية هذا المشهد من كونه خيالاً هزلياً، حاولت مراراً وتكراراً حتى تمالكت رابطة جأشها أخيراً وشرعت تسأله ببطء وكأنها ترغب بألا تلقي عليه هذا السؤال وترغب أيضاً بألا تجد لديه أي إجابة تفجعها وتقهر روحها

-مين دي يا عاصم؟؟

أطرق رأسه أرضاً ولم يجبها وأطل الخزيان واضحاً من نظراته

-مييييين .. دي .. يا .. عاصم؟؟؟؟؟

قالتها متقطعة وهي تصطك الكلمات بين أسنانها وتضغط أحرفها بقسوة ومازالت تلك الدمعة الشقية تعافر في قنواتها الدمعية لتسجل لنفسها ميلاداً

-دي مراتي يا أسمى

كذبت أذنيها؛ أخبرتها أنه لم يحرك شفتيه بعد، كذبت عينيها التي تأرجحت نظراتها يميناً ويساراً تعيد التأكد من أن ذلك المنزل هو منزلها وتلك الحجرة هي حجرة نومها وذلك الرجل هو زوجها وتلك الفتاة هي .....

-مراتك .. مراتك !!!!

شرعت ترددها بانهيار وصوتها يتقطع غير مصدقة أنه لفظها هكذا بمنتهى السهولة محطماً كل جسور الثقة الممتدة بينهما وكل سنوات حياتهما معاً؛ فقط بكلمة واحدة

-لما دي تبقى مراتك!! .. أنا أبقى ميين؟؟

قالتها بصوت هادر يقطر ألماً ولوعة ولم تشعر إلا والأرض تميد بها وتدور وتتأرجح من تحت قدميها أعقبها لحظات شعرت أنها قد دلفت لتوها في أداة للخلط تدور بها في سرعة جنونية فاختلطت فيها آلامها مع صدمتها مع دموعها التي تقاومها ببسالة فتعاود مهاجمة مقلتيها مرة أخرى بشراسة ولم تدر أو تشعر بما يدور حولها حين اصطدم رأسها بالباب من خلفها بعد أن فقدت السيطرة تماماً على وعيها الذي قرر أن يعالج هذا المشهد المريع أمامه بأن يفر من مواجهته فغابت نفسها وتاهت منها في أعماق تلك الحفرة السحيقة التي اختلط بباطنها هذا المزيج المرير من طعم العلقم ومذاق الصبار.

***

السادة ركاب طائرة مصر للطيران الرحلة رقم ٣١٢ المتجهة من مطار القاهرة إلى مطار الأقصر برجاء الالتزام بمقاعدكم وربط أحزمة الأمان من فضلكم .. شكراً

انطلق هذا الصوت بجانب أذنها فأيقظها من أحضان نوم عميق، ارتعدت لمسمعه في البداية ثم ما لبثت أن تفقدت الأمر بنصف عين مفتوحة فوجدت نفسها على متن الطائرة التي ستقلها إلى الأقصر حيث مكان الحادث الذي هي بصدد أن تغطي وقائعه وتبعاته.

فتحت كلتا عينيها على اتساعهما ببطء واسترجعت الساعات الماضية بتمهل، إذن ما رأته لم يعدو كونه حلماً، تنفست الصعداء يا له من كابوس مزعج كادت روحها تزهق من وطأة انفعالها به.

فجأة وقبل أن تشبع صدرها بتنفس الارتياح انتابت الطائرة من حولها حالة من الذعر والهرج والمرج وسمعت صوت المضيفة مرة أخرى يصرخ في هيستيريا أن الطائرة على وشك السقوط بسبب حدوث عطل مفاجئ في المحرك الأمامي بها.

انهارت حواسها تماماً وتحطمت رباطة جأشها؛ إذن ستموت في غضون دقائق؛ ستتحطم عظامها وتتناثر أشلائها وتختلط بحطام تلك الطائرة، لن ترى زوجها الغالي ولا ولديها الحبيبين، لن ترى أبويها ولن يكحلوا أعينهم برؤية ابنتهم الوحيدة مرة أخرى، لن يجد قبرها لها جسداً ليحتويه ولن يبكي أحبائها ويتباكوا أمام شاهده على ذكراها، لن يتبقى منها شيء، لن يتبقى منها سوى لا شيء وذكرى في مخيلة المقربين منها، لا شيء فقط ولا أكثر من اللاشيء.

حاولت أن تصرخ بكل ما أوتيت من قوة عل صرختها تجد لها صدى في السماء فتحدث المعجزة الإلهية ويتوقف سقوط الطائرة الذي بدا أسرع عن ذي قبل لكن صوتها احتشر في حنجرتها فأخذت تتحسس موضع أحبالها الصوتية بيدها لتحفزهم على الاستجابة، التفتت من حولها تستغيث بأحد ليلهمها القدرة على مواصلة الصراخ بصوت مسموع فوجدت طارق في المقعد المجاور لمقعدها، كيف لم تلحظ وجوده منذ البداية بل كيف يبدو هادئاً هكذا والطائرة على وشك التحطم.

نظرت نحوه تستجديه عطفاً بنظراتها المرتعبة كي يخفف عنها وقع هذه الصدمة ولو بكلمة واحدة فوجدته ينظر إليها في تشفي ويضحك في سخرية، حاولت التحدث من جديد ومرة أخرى تجد الكلمات تعلق بحنجرتها بل إنها حتى لا تجد في نفسها القدرة على تحريك شفاهها.

وجدته فجأة يتوقف عن الضحك ليجذبها من شعرها في قسوة ويميل على أذنها يهمس بها: كنتي عارفة ومتأكدة طول الوقت إني بحبك .. من زمان أوي كنتي عارفة وبتعملي نفسك مش عارفة ومش فاهمة .. كنتي عارفة ومع ذلك فضلتيه عليا واختارتيه هوا وأنا لأ .. ليه يا أسمى .. ليييه ؟؟.. حبتيه يا أسمى !!.. حبتيه !!.. يلا بأه ادفعي تمن الحب ده .. حياتك يا أسمى .. حياتك

قال تلك الجملة في شراسة وهو يجذبها من شعرها بشدة للخلف ليجعل رأسها ترتطم في قسوة بالمقعد خلفها كل ذلك ولا أحد يلتفت باتجاههما فمازالت حالة الهرج تسود الطائرة من حولهما ومازال جسم الطائرة المعدني الضخم يواصل السقوط ويهوي إلى الأسفل بأقصى سرعته ومازال حلقها يختنق بالكلمات التي لا تستطيع التحرر من حوزته إياها

***

ملأ الضجيج عقلها واجتاح ألم شديد مؤخرة رأسها بينما أسراب من النمل تزحف

من مقدمة رأسها في الاتجاه المعاكس حتى ضاقت ذرعاً بدبيبها الذي لا ينقطع عن رأسها فتململت ضجراً قاطبة ما بين حاجبيها في ألم.

شعرت أن طارق مازال يقبض على شعرها بقسوة ورأسها يواصل الارتطام في عنف لم يتوقف ولو للحظة وإلا لما كل هذا الكم المرعب من الصداع الذي يهاجم رأسها ويكاد يشطرها إلى نصفين.

لكن أليس من المفترض أن تكون الطائرة قد هوت بهم جميعاً؛ أهكذا يكون الموت؛ تقرأ دوماً أنه ظلمة ووحشة لكن ما تشعر به الآن دفء وألفة، أتكون المعجزة قد حدثت وأنقذتها الأقدار الرحيمة باللحظات الأخيرة، لكن كيف وهي قد شاهدت بنفسها الطائرة وهي تنزلق إلى الأسفل دون توقف، ما حجم هذه المعجزة التي قد تنقذ أرواحاً بينهم وبين الموت قيد ذراع أو أقل وقد انتهى زمن المعجزات وولى.

فجأة انتبهت لشيئاً غاب عن تفكيرها؛ هل من المعقول أن يكون كل ما مرت به على متن هذه الطائرة مجرد حلم ليس أكثر؛ لكن إذا كان سقوط الطائرة حلماً فهذا يعني بالتأكيد أن ما سبق ذلك كان حقيقة.

دار رأسها مرة أخرى واختلط عليها أمر الواقع بالخيال، أيهما تريده واقعاً وأيهما تتمنى ألا يتعدى كونه أضغاث أحلام، أي الموتين أحب إلى نفسها وأقرب، أن تموت وتلقى حتفها على متن تلك الطائرة وتستحيل جثتها أشلاء أم أن تموت وهي مازالت على قيد الحياة وقد وجدت الإنسان الوحيد الذي وثقت به وأحبته وأسلمته قلبها وروحها وعقلها وجسدها وأمنت نفسها شر الحياة بجواره وقد استحال هو مصدراً للشر في حياتها؛ وأي شر أعظم من شر الخيانة.

الخيانة؛ يا لها من كلمة مريرة، بل مفجعة، ترى أيهما أشد قسوة على النفس؛ الموت أم الخيانة، أن يقتلك أحدهم أهون أم أن يغدر بك ويسقيك مرارة الخيانة بيديه.

القتل فعل تقوم به مرة واحدة ويمتد أثره على ضحيته للحظات معدودة ثم ينتهي فوراً وبلا عودة؛ أما الخيانة فهي فعل مستمر حتى ولو انقضت أحداثها وانتهت يظل إحساسها المرير عالقاً بجوف ضحيتها فيعذبه ويقتله في الليلة آلاف المرات حتى ولو بقي على قيد الحياة لمئات الأعوام يظل إحساس الموت حياً لزاماً لنفسه.

يا ليتها كانت ماتت كما ظنت كان أهون عليها بكثير من مواجهة الحقيقة التي يرفض عقلها وقلبها استيعابها حتى هذه اللحظة، الموت هو الخيار الأفضل والأهون

إذا ما قورن بفكرة أن يكون زوجها قد فضل عليها امرأة أخرى وأعطاها كامل الحق ومطلق الحرية في أن تشاركها إياه ولعلها قد نجحت في الاستحواذ عليه للأبد وجعلته يلفظها هي من قلبه بلا رحمة.

على ذكرها لزوجها فتحت عينيها ببطء فقد استنشقت شذى عطره في الأرجاء حولها وعلى عكس ما كان يثير في قلبها الشوق إليه وجدت ذلك العطر ثقيلاً خانقاً يجثم على روحها قبل أنفاسها ويستفز الغثيان من أعماق جوفها.

ثمة زغللة تسيطر على بصرها لكن بمجرد أن استقرت نظراتها وجدته جالساً بطرف الفراش يمسك بكف يدها يعتصره بين أصابعه ومظاهر الإعياء بادية على وجهه، تبينت حين لمحت نظرات الندم تطل من عينيه جلية أيهما الحلم وأيهما الواقع فالحلم الذي أرادته واقعاً رغم قسوته ليس إلا حلماً والواقع الذي رغبت بأن يكون حلماً هو ذات الحقيقة العارية التي يجب عليها ابتداءاً من هذه اللحظة مواجهتها.

شكراً لتلك الظروف التي تفاجئنا وتبهرنا حين تكشف لنا الستار عن حقيقة الأشخاص الذين وثقنا بهم وعشقناهم بصدق بكل ذرة في كياننا، شكراً لها رغم كل قسوتها لأنها وبالرغم من قسوتها البالغة فهي أشد عطفاً وحناناً مقارنة بجحود وغلاظة قلوب هؤلاء اللذين خدعونا بحبهم وإخلاصهم الزائف لسنوات طويلة.

انتزعت يدها من بين أصابعه بقوة وبالرغم من كل الوهن الذي تشعر به كانت تسدد إليه نظرات في غاية القوة جعلت لسانه ينعقد عن كل المرافعة التي أعدها في الساعات التي تلت إغماءتها حتى يدافع بها عن نفسه حين تعود إلى وعيها.

-أسمى .. أنا عايز أقولك

اعتدلت في جلستها برغم كل الإنهاك الذي أصابها وقاطعته في حدة: تقولي إيه بالظبط؟؟ .. هتقول إيه بعد اللي انا شفته بعينيا!! .. بأنه وش هتبصلي وتبررلي وجود زوجة تانية في حياتك!! .. وريني كده هتدافع عن نفسك تقول إيه .. وريني

أجاب بلهجة أقرب إلى البكاء: غلطة وحياتك .. وندمت عليها أشد الندم .. وكلمتها النهاردة تيجي علشان أنهي كل حاجة بيني وبينها واقطع الورقة اللي بيننا .. ورحمة أبويا ده اللي حصل وما كان هيحصل غير كده لولا إن انتي جيتي فجأة كان زمان كل شيء انتهى وراح لحال سبيله

نظرت إليه باستخفاف: لا يا شيييخ .. أمال لو مكنتش داخلة عليكم الأوضة

وشايفاها بقميص النوم على السرير ده

كانت تضرب الفراش بجوارها بانفعال فأسرع يدافع عن نفسه: انا طلعت البلكونة اولع سيجارة قبل مفاتحها في موضوع تقطيع الورق رجعت لقيتها مغيرة هدومها .. وحياة ولادي هوا ده اللي حصل .. وحياة أسمى عندي

صرخت به: بس متنطقش اسمي على لسانك مرة تانية

صمتت للحظات وكأنها تستوعب مفاد جملته السابقة: يعني كنت متجوزها عرفي .. دعارة مقننة يعني!! .. لأ بجد حاجة تشرف .. أنعم وأكرم يا ابو العيال ياللي بتحلف بحياة العيال

نظرت إلى السقف مذهولة، لا تصدق أن هذا الحوار يدور بينها وبينه هكذا فنظرت باتجاهه مرة أخرى: بص انا مش هاسألك امتى ولا فين ولا ازاي علشان كل ده بالنسبالي ماعادش ليه أي لزمة ولا أي معنى ولا هيفرق معايا في حاجة ولا هيغير أي حاجة من اللي حصل .. أنا عايزة اعرف حاجة واحدة بس.. لييييه؟؟؟

اقتربت منه وأمسكت بياقات منامته وعيناها قد اتسعتا عن آخرهما وغضب العالم كله قد استعر فيهما واتقد، أكملت حديثها بلهجة أقرب إلى الصراخ: ليه يا عاصم اتجوزتها عليا؟؟؟

تحاشى مواجهة عيناها ورنا بنظراته إلى الأسفل قائلاً في خجل: علشان ضعفت

ثم أخفض من نبرات صوته وهو يكاد يبتلع الكلمات في جوفه خشية أن ينطقها: حبيتها أو اتهيألي إني بحبها

اشتعلت كل نيران العالم بأجمعها في أعماقها وأوقدت منها جحيماً مستعراً تصطلي روحها ناره وجعلت صوتها يختنق بالعبرات المكتومة التي لن تضحي بإسقاطها على وجنتيها من أجل شخص ضحى بحبها واستبدله بآخر حتى لو ظنه في البداية حباً واكتشف لاحقاً أنه ليس بحب.

-حبيتها ؟؟!! .. حبيت دي !! .. الجربوعة دي !! .. واتجوزتها عليا أنا .. أنا .. أسمى نصار .. أنا يا عاصم .. دانا كنت في ثانية هبيع كل حاجة علشانك .. كنت هضحي بكل اللي وصلتله علشان اللي بيني وبينك بس ما يتهزش .. تصدق بإيه .. أنا بجد كان أهون عليا أموت ولا إني كنت اسمعك بتقول إنك حبيتها .. أمشي اطلع بره يا

عاصم وورقة طلاقي توصلني لحد عندي .. ولا اقولك متطلعش بره انا اللي هسيب البيت علشان لما ارجعه تاني مرة ألاقيك شيلت كل قصقوصة تخصك فيه .. فاهم .. مش عايزة أشم ريحتك في أي حاجة في البيت .. مش عايزة افتكرك ولا افتكر أي حاجة تفكرني بيك .. فاهم يا عاصم ولا مش فاهم

كان الاستمرار في الحوار هكذا بلا جدوى فقام منسحباً من أمامها يجر أذيال الخيبة والخزيان والعار وقد أيقن أن الجرح الغائر الذي تسبب لها فيه لن يندمل أبد الدهر.

***

الصدمة ببساطة وعن دون عمد أو تقصد قد تخلق منك شخصاً آخر؛ قد تستخرج من باطنك معجزة وتجعل منك إنساناً آخر غير الذي عرفته واعتدته طيلة حياتك أو قد تحيلك إلى حطام إنسان، الصدمة لكمة توجه إليك على حين غفلة وإما أن تتلقاها فتتحطم أو تتفاداها فيختل توازنك لبعض الوقت ثم تعود لاحقاً لتقف شامخاً صامداً من جديد.

يرى الكثيرون أن الأشخاص الأكثر قوة أشد احتمالاً للصدمات بينما لا يدركون أنهم كالأوتاد إذا ما هاجمها الريح تصمد قدر ما تصمد لكن ريحاً عاتية قد تقسمها أو تقتلعها من جذورها اقتلاعاً، عكس كل ما هو لين ينحني مع الريح وليس ضده فتمر به الصدمة مرار الكرام يأخذ ردة فعل طبيعية لكنها عادية ويستيقظ باليوم التالي ناسياً ما مر به من آلام، بينما كل ما هو صلب لا يستطيع الانحناء للريح أو الانحناء معها لذا يظل عمره كاملاً يحمل بصمة تلك الرياح على عاتقه في حالة إذا أسعده حظه ونجا من براثنها لم يكن هناك من هو أكثر صلابة منها لذا قسمتها صدمتها في شريك عمرها وفي شراكتها معه وشطرتها نصفين، بئس الخسارة؛ أفلست شراكة العمر وأعلنت نهاية الجولة برصيد خال تماماً من أية مشاعر إيجابية والأكثر من ذلك أنها مضطرة الآن لتحمل خسائر شراكتها معه وحدها فهي مهما حدث لن تزج بأولادها ليشاركوها تلك الخسائر ولن تغامر بقص ما حدث وما كان وما سيكون على مسامعهم فهو والدهم في نهاية الأمر حتى ولو لم يعد زوجها منذ تلك اللحظة، والدهم الذي تنصل من وعده لها باقتسام الإخفاقات سوياً كما هو اقتسام النجاحات؛ فالإخفاق صار من نصيبها وحدها أما هو فلديه حياة أخرى مع زوجة جميلة تنبض شباباً وإشراقاً وحيوية وتصغرها بما لا يقل عن خمسة عشر عاماً ومازالت في مقتبل طور الأنوثة.

لذا مهما أبقت على علاقته بأولادهما ومهما حاولت تزييف الحقائق وإخفائها فلن تقبل أن يضمهما بيتاً واحداً بعد الآن فابنتها صارت من النضج لتستوعب فكرة انفصال والديها وابنها يوماً ما سيكبر وينضج تفكيره ولن يلومها وقتها لأنها لن تحرمه من وجود والده في حياته لكن شريطة أن يكون ذلك الوجود بعيداً أقصى ما يكون عن الاحتكاك بها

-ادخل

قاطعت أفكارها طرقات متمهلة على باب غرفتها بمنزل والديها فقد لجأت أخيراً إلى تلك الغرفة التي ضمتها في سنوات طفولتها المبكرة وشبابها بعد سنوات من رحيلها عنها عروساً شابة إلى بيت زوجها الخائن، أرادت أن تقتطع لنفسها وقتاً من الراحة النفسية بعيداً عن مسرح الجريمة التي ارتكبت بحقها وأيضاً لتمنحه وقتاً كافياً ليجمع كافة أشيائه ومتعلقاته الخاصة فقد اتخذت قراراً نهائياً بتغيير كافة معالم المنزل بمجرد أن يرحل عنه وقبل أن تعود إليه حتى تفوت على نفسها فرصة استرجاع أياً من الذكريات.

-ده أنا يا أسمى

ألجمتها المفاجأة فقد توقعت أنه أحد أبويها لكنها لم يراودها أدنى احتمال أن يكون هو الطارق فهبت من مجلسها بانفعال وأسرعت الخطى لتتركه وحده بالغرفة، أمسك بيدها قبل أن تعبر باب الغرفة ليحول بينها وبين الرحيل عنه فانتزعت كفها من قبضته بعنف

نظر إليها بشحوب وهو يستعطفها أن تبقى: يا أسمى أرجوكي .. طب حتى اديني فرصة ادافع فيها عن نفسي حتى لو انا غلطان .. ده ربنا بيسامح ويغفر

رمته بنظرة متقدة وارتفع صوتها قائلة: أفندم .. متهيألي الكلام ما بيننا خلص .. أنا لا عايزة أسمع اللي انت جاي تقولهولي .. ولا عندي كلام أقولهولك

أطل الانكسار من عينيه: يا أسمى والله أمي عيانة بقالها كام يوم وهتموت وتشوفني وانا مش قادر انزلها البلد طول ما انا حاسس أن في حاجة غلط ومش عارف أصلحها عمال أؤجل اليوم ورا التاني وأقول لنفسي استنى لما تهدي يمكن نقدر نتكلم .. اللي بيننا مش قليل يا أسمى .. اللي بيننا كبير أوي .. أكبر من أنه يتهد .. أكبر من أنه ينتهي ببساطة كده حتى من غير ما نقعد مع بعض ونتعاتب

ابتسمت في سخرية محملة بالكثير من المرارة: ما هو علشان اللي بيننا كبير أوي انت صنته أوي ومفرطتش فيه

أسرع يهتف: يا أسمى أقسملك بإيه دي كانت غلطة .. نزوة مش أكتر .. الشيطان ضحك عليا وهيألي حاجات .. وحياتك عندي أنا ندمان وعندي استعداد ادفع عمري كله علشان نرجع لبعض ونبتدي صفحة جديدة من أول وجديد

ضحكت بعصبية: صفحة جديدة .. انت بتحلم يا عاصم .. انت بوظت كل حاجة بيننا .. قضيت على بواقي الحب اللي كانت جوايا .. آخر فتفوتة حب كانت في قلبي ليك دوستها انت بجزمتك وانت بتقولي ببساطة إنك حبيت واحدة غيري .. ما سبتش لقلبي ولو حتى فرصة واحدة يدافع فيها عنك قدامي

صمتت تلتقط أنفاسها ثم عقدت حاجبيها وكأنها تذكرت أمراً مهماً: وبعدين في سؤال هاموت واسألهولك .. لما انت طول الفترة اللي فاتت دي لا شغلة ولا مشغلة جبت فلوس منين لجوازه تانية

حاول أن يتجاوز لزوعة كلماتها وأسلوبها الفظ فأطرق برأسه أرضاً مغمغماً في خجل: اتصرفت

-اتصرفت ازاي يعني؟؟

-اتصرفت زي ما اتصرفت وخلاص

اقتربت منه وقد مالت نظراتها إلى الشراسة: منين بتقولي اسامحك ونبتدي صفحة جديدة ومنين بتلف وتدور عليا .. انا عايزة اعرف حاجة واحدة بس .. انت اتصرفت ازاي

لم يقو على مجابهة نظراتها وهو يقول بنبرة تقطر أسفاً وندماً وخجلاً على حدٍ سواء: بيعت نصيبي في ورث أبويا لسالم أخويا

ألجمتها الصدمة للحظات ثم استفاقت تصرخ فيه غير مصدقة: بعت أرضك علشان تتجوز الجربوعة دي .. ده انت معملتهاش أيام جوازنا يا أخي .. ولا صحيح أنا بلوم عليك ليه .. من شابه أباه .....

ابتلع مرارة الإهانة وظل متجمداً في مكانه يتلقى كلماتها التي أشد قسوة على نفسه من أعنف الصفعات فوجد نفسه تدفعه ليتأملها في صمت ولا يملك سوى أن

يترك للندم الفرصة ليعتصر قلبه كما يشاء ويشبعه تعنيفاً وصفعاً وركلاً لقد أوشك أن يخسرها للأبد أو هو بالفعل قد خسرها بلا عودة؛ خسر حياته كلها؛ ذكرياته العذبة وحاضره الهانئ ومستقبله المشرق؛ خطأ واحد فقط سيدفع ثمنه من باقي سنوات عمره ولن يستطيع أن يكفر عنه مهما استغفر أو قدم القرابين إلى مذبح حبهما.

تنهد بحرقة وهو ينظر إلى عينيها مقاطعاً بكلماته جملة قالتها ولم يسمعها جيداً: كل اللي انتي بتقوليه ده مش فارق معايا

اتسعت عيناها وشرعت تفتح فاهها لتهاجمه من جديد ليس على فعلته فقط وإنما على شروده وعدم مبالاته بغضبها وانفعالها أيضاً

- أنا اللي فارق معايا حاجة واحدة بس .....

صمت للحظات ثم نظر إلى أعماق عينيها مكملاً: إنك وحشتيني

التقت نظراتهما فأكمل هامساً: أوي .. أوي

شعرت أنها فقدت القدرة على النطق إثر سماع كلماته التي أصابت جزءاً من الحنين في قلبها في مقتل فخفق رغماً عنها، حتى وإن كذبت أذنيها حديثه لن تقوى عيناها على تحدي تلك النظرة التي أطلت من عينيه وعانقت نظراتها في شوق، وحتى لو اتحدت أذناها مع عينيها ووقفا صفاً في مواجهته لن يصمد قلبها كثيراً أمام تلك الحرارة التي انبعثت من كلماته وهذا المزيج من العشق والحزن والألم والندم الذي ذاب في بوتقة واحدة وتصاعدت أدخنته من نيران الشوق المطلة من عينيه؛ قلبها الذي خان كل عنادها وهزمه بخفقة واحدة جعلتها تشعر أن جميع الموازين اختلت وتأرجحت رغماً عنها فبعد أن وضعت كبريائها وكرامتها والجرح الغائر الذي تسببت به خيانته لها في كفة جاءت تلك النظرة الدافئة من عينيه لتحتل الكفة المقابلة والتي مالت بقوة وأوشكت أن تحسم النزاع لصالحه هو. مر بأنامله في رفق على شعرها يتحسسه ثم جمع خصلات رقيقة منه واقترب حثيثاً وقربها من أنفاسه يتشممها في حب، افتقد عبيرها لمدة لا تزيد عن عدة أيام فقط لكنه يشعر بها كأنها سنوات طوال، أطبق عينيه على الحنين الذي ملأهما وكأنه يخشى أن يذرف الدموع متأثراً بوخزات شوقه التي أنهكت قلبه حين أدرك الحقيقة المؤسفة أنها بين آن وآخر لن تصبح ملكه ولن يحق له حتى الاقتراب منها قدر هذه المسافة أو لمس خصلة واحدة من شعرها كما يفعل الآن، لم يدري أنها في تلك

الأثناء كانت غائبة عن الإدراك تماماً كالمنومة مغناطيسياً تتحرك تجاهه لا إرادياً وكأن قوى عليا تجتذبها بعنف نحوه وتتعرض في هذه الأثناء لهجوماً ضارياً من شذى عطره مختلطاً برائحة سجائره ونسيم أنفاسه الذي تميزه من بين آلاف الروائح فوجدت نفسها لا تبالي بدفء أنفاسه الذي لفح خديها وتركته يطمع في المزيد من الاقتراب حتى فوجئ بها تدفعه بعيداً عنها في قسوة وتجتذب نفسها إلى الوراء وقد استفاقت أخيراً بعد أن تنبه قلبها على استغاثات من عقلها ليفيق من سباته في تلك اللحظة التي لامس فيها شفتيها وكادت هي أن تبلغ أدنى درجات الضعف البشري وتسلم أمرها كلياً إليه.

ظلت أنفاسها تتلاحق كونها غير مصدقة أنها بالفعل كادت أن تستسلم لأحضانه تحت وطأة المشاعر الجارفة ناسية ومتناسية وضاربة بكل ما جاشت به نفسها من مشاعر عرض الحائط وظهرت كنمرة شرسة أعلنت التمرد والعصيان على وليفها بلا رجعة: مش عايزة أشوف وشك تاني من هنا لحد ما أموت .. ولو مت .. مش عايزة أي مكان يجمعني بيك حتى لو كان القبر اللي هتدفن فيه.

***

أخذ يمشط الطريق بناظريه وهو بالكاد يلمح معالمه، كلٌ يعبر من أمامه ولا يشكل ذلك في مجال رؤيته أي انتباه، انشغل عقله لدرجة التوقف وتجمد تفكيره عند نقطة واحدة؛ نقطة انهيار كل قيمة وكل شيء بحياته، لم يعد كما كان وإحقاقاً للحق هو على يقين أنه لم يعد باستطاعته العودة لما كان عليه من قبل، وهل ينفع جمع شظايا البلور بعد أن تناثرت جزيئاتها.

شعور التغير الطارئ الذي هاجم شخصيته يؤرقه منذ شهور لكنه لا يجد في نفسه القدرة على مقاومته بل بالعكس يجد نفسه منساقاً ومستسلماً بشكل تام لذاك التغيير الجارف في أسلوبه وطريقته ومشاعره، لا يدري حقاً إن كان الملل والروتين هما الدافعان لتلك التغيرات المفاجئة أم أن الأزمات التي تتالت تباعاً بحياته هي المسئولة عن ذلك ابتداءاً من شعوره الداخلي بأن زوجته تنظر إليه نظرة دونية إلى أن وصل معها إلى لحظة الانشقاق والصدام الحقيقي بينهما.

لقد ظل طيلة حياتهما معاً يتجاهل كونها صاحبة اليد العليا في الإنفاق ويرفض وبشدة أن يمد يده إلى أموالها في الوقت الذي كان فيه على دراية تامة بأنها تنفق الكثير والكثير في الخفاء، يكفيه أكياس الفاكهة والطعام التي يحملها كل مساء ليشعر أنه رجل البيت ويتغاضى عن باقي المصروفات الأخرى التي تستطيع

أن تلتهم دخله لشهور في أيام معدودات بداية من اشتراكات النادي ومصاريف التعليم الباهظة ومتطلباته وانتهاءاً بمصروف جيب أبنائهما، يتغاضى عن كونها هي من تنفق بسخاء على ذلك المظهر الاجتماعي المميز الذي تظهر به أسرتهم أمام الآخرين، لكنه ضجر حين وجدها تتعامل معه من هذا المنطلق أو هكذا هيئ إليه، أيضاً التفاف الجميع من حولها واحتفائهم بها وبنجاحاتها المتكررة في الوقت الذي لا يحصد هو سوى الإخفاقات المتتالية عزز ذلك الشعور بداخله وجعله يحيل ليله نهاراً لا يهنئ له به جفناً؛ وحياته جحيماً لا يتبسم له بها ثغراً.

قد لا تكون عملاقاً لكن شعورك أن من حولك يرونك قزماً سيهزم أي شعور يتنامى بداخلك بأنك لست كذلك، قد لا تكون ناجحاً لكن نظرة من حولك واتهامهم إياك بالفشل حتى ولو لم يتفوهوا بها صراحة سيقتل بداخلك أية رغبة في النجاح، قد لا تكون لامعاً براقاً لكن تجاهل الأنظار لك تطفئك وتجعلك تنزوي عن الجميع حتى تذبل.

كانت نجمة لامعة براقة وكان يستمد لمعانه منها كأشعة الشمس المضيئة حين تنعكس على سطح القمر المعتم فيعتقد كل من يراه أنه ينير ظلمات الليل بضوئه لكن مهما غمرت الشمس القمر بأشعتها لن ينفي عنه حقيقة كونه سطحاً بارداً ومعتماً، هكذا هو في حياتها وفي حياة كل من يحيط بهما ويعرفهما، هي الشمس التي تسطع فيناله قدراً يسيراً من سطوعها طالما يحافظ على دورانه في فلكها، لكنه ضاق ذرعاً بهذا الوضع ومهما تكبد العناء ليتبسم في وجه نجاحاتها الساحقة ويوهمها ويوهم الجميع بالزهو كونه شريكاً لها فيه لن يغير ذلك من حقيقة كونها وحدها صاحبة الفضل في هذا النجاح، أما هو فعلى المستوى الشخصي لم يستطع أن يصيب نجاحاً بعينه حتى ولو كان متواضعاً وإنجازه الوحيد الذي يستحق أن يوصف بأنه انجازاً حقيقياً هو أنه قد فاز بالاقتران بها والزواج منها.

كيف استطاع أن يتخطى ذلك طيلة السنين الماضية؛ هو حقاً لا يعرف؛ بل لا يدري إن كان قد احتمل أكثر مما تمتلك نفسه من القدرة على الاحتمال فكانت النتيجة أن انفلتت زمام الأمور منه وزلزل كيانه انفجاراً مروعاً أصاب مشاعره المكبوتة طيلة السنوات الماضية وأطاح بكل ما جمعهما خلالهم، حتى أولاده؛ لا يستطيع أن ينكر أن معاملته لهم قد تغيرت واهتمامه بهم قد فتر وشوقه إليهم قد خبت وكأنه يحاسبهم كونهم نتيجة شراكته المزعومة معها وآن الأوان ليفض دعائم هذه الشراكة ويهبط إلى أرض الواقع بعد أن أضاع عمره متوهماً بوجود تلك الشراكة الزائفة.

كانت تلك الأفكار تراوده كثيراً لكنها صارت تطارده في شراسة منذ ذلك اليوم الذي استيقظ فيه باكراً ليجدها تتخذ زينتها إلى خارج المنزل وقد أصرت على ألا تخبره إلى أين كانت وجهتها، وازداد الموقف تعقيداً بظهيرة نفس اليوم حين وجد مخرج البرنامج يبلغه بأمر التشغيل كباقي أفراد العمل وأعرب عن دهشته عندما وجده قد تفاجئ بالموضوع الأمر الذي جعل نظرة غريبة تطل من عينيه؛ نظرة تحمل في طياتها مزيجاً من السخرية والشماتة والتشفي والاستخفاف، نظرة سخيفة أتبعها بعبارة أسخف منها ألقاها على مسامعه وهو موقن أنها ستصيب هدفها.

«هوا الزوج آخر من يعلم ولا إيه!!!؟؟؟»

كان محقاً في سخريته منه وكانت تلك الجملة الصائبة مائة بالمائة بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير الذي تحمل لخمسة عشر عاماً دون أن يبوح بمكنونات غيرته ففر من أمام نظرات طارق التي تجرده من أي ساتر قد اتخذه لنفسه ليخفي وراءه غيرته الجنونية من نجاح زوجته، نظرات طارق لم تجعل ذلك الساتر ينقض فقط وإنما جعلته يتعرى أمام نفسه ويشعر بتلك الضآلة التي يشعر بها دوماً ويتجاهلها.

فر إلى أسفل وكان يود لو كان باستطاعته أن يفر من العالم أجمع فنظرات الجميع من حوله تحمل ذات الانطباع الذي تركته نظرات طارق في نفسه، كاد أن يتعثر وهو يتفقد الأعين التي يصادفها بالطابق السفلي بالرغم من أنهم لا يعرفونه ولا يعرفهم إلا أنه شعر أنهم جميعاً ينظرون إليه ويشيرون بأصابعهم في الخفاء؛ ها هو المغفل الذي جعلت منه زوجته أضحوكة للجميع.

ارتطم بها وسمع صوتها يخترق أذنه معتذراً للمرة الثانية، إنها نفس الفتاة التي ارتطم بها من قبل وكان نتيجة هذا الارتطام فقدانه لولاعته الذهبية الأنيقة، ترى ما الذي استولت عليه هذه المرة، وجد نفسه لا إرادياً يقبض على شعرها ويجذبها إلى الخارج، لم تكن الولاعة تعني له الكثير لهذه الدرجة خاصة بعد أن فقد ولعه بمن أهدته إياها ذات يوم لكن بركان الغضب الذي تفجر في أعماقه جعله يبحث عن ضحية يفرغ بها شحنات غضبه المتقد قبل أن يقضي عليه كتمانه.

كانت الفتاة تصرخ في ألم وهي لا تدري ما الذي يفعله أو لأي ذنب يجذبها هكذا في قسوة إلى الخارج، تجمع بعض العاملون على صوتها فما كان منه إلا أن صرخ بالجميع متهماً إياها بكونها لصة سرقت منه ولاعة ذهبية ثمينة ولن يتركها إلا إذا أدلت بالمكان الذي أخفتها فيه ومن بعد سيسلمها إلى رجال الشرطة لتتلقى

العقاب المناسب جزاء فعلتها المشينة.

حاول الكثير منهم إثناءه عن ذلك لكنه كان مصراً وبشدة ولما كان شخصه معروفاً لهؤلاء الرجال الذين يشرفون على بوابات مبنى الإذاعة والتلفزيون كما أنهم جميعاً يشهدون له طوال فترة معرفتهم به بالأدب الجم والأخلاق الحميدة لم يقم أياً منهم باعتراض طريقه خاصة أن مظهر الفتاة يدل على أنها تنتمي لطبقة متدنية من المجتمع ولم يكن أياً منهم يحمل سابق معرفة لشخصها.

تجاهل دموعها وتوسلاتها إليه كي يرحمها وهي تقسم بأغلظ الأيمان أنها بريئة مما ينسب إليها، حين وصل إلى سيارته كانت لا تزال تبكي في انهيار فاستدار وبكل غضب الدنيا الذي اشتعلت جذوته في أعماقه ورفع كفه إلى أعلى ثم هوى بها على وجهها ساباً إياها في سخط.

لم يكن ذلك سلوكه ذات يوم لكن موجات الكراهية التي تولدت في أعماقه لابد لها من مستلم يتلقى إشاراتها وإلا قضت عليه على الفور.

ألقى بها في المقعد المجاور له واستدار ليجلس في مقعده خلف مقود السيارة عندما لمح جسماً صغيراً يلمع بالأسفل، لم يحتاج إلى الكثير من الذكاء ليدرك أن تلك هي ولاعته التي من الواضح أنها سقطت منه في اليوم السابق سهواً واندست في ركن السيارة دون أن يلفت أنظاره ذلك.

أسقط في يده وهو لا يدري حقاً ماذا ستكون ردة فعل تلك المسكينة التي اتهمها ظلماً على مرأى ومسمع من الجميع والأكثر سوءاً أن يده قد امتدت إليها بالأذى وأهانها بشكل بالغ، كيف ستغفر له كل هذا مهما قدم إليها من مبررات وأعذار.

كان يشعر أن دلواً من الماء المثلج قد انسكب على رأسه في ليلة من ليالي الشتاء الزمهرير، هداه تفكيره إلى أن ينحني بجذعه ليدس الولاعة أسفل مقعده فيخفي أثرها عن الأعين حتى لا تكتشف الفتاة كونه أسرع في اتهامها وغالى في إهاناتها دون وجه حق.

-اسمك إيه؟

تعمد أن يكون أسلوبه فظاً حتى تنطلي عليها خدعة أنه لا يزال مرتاباً بأمرها

-فريال

رغم مظاهر الانهيار البادية عليها إلا أنها أجابته على الفور بصوت يتخلله النشيج بينما يدها لم تتوقف عن تحسس موضع كفه على وجهها في أسى، استمر في إلقاء وابل التهديد على مسامعها إمعاناً في إتقان الدور الذي يؤديه أمامها ولا يجد لنفسه حقاً نقطة مقنعة يتوقف عندها كي لا يراود نفسها شكاً تجاهه.

كان نحيبها لا ينقطع ممزقاً نياط قلبه بينما ضميره لم يتوقف عن جلده في قسوة، ظل يجوب بها الشوارع بسيارته باحثاً عن مخرج له من هذا المأزق الذي وضع نفسه به بتسرعه في اتهامها وعدم البحث عن أشياءه المفقودة أولاً قبل أن يلقي بتهمه على الآخرين

فجأة توقف بالسيارة في أحد الشوارع الجانبية واستدار ينظر إليها متعمداً أن تكون كلاً من نظراته ونبرات صوته في غاية الجفاء: وانتي يا فريال بتمدي إيدك عالحرام ليه .. فكرك إنك مش هتتكشفي .. طب آديكي اتكشفتي وريني هتعملي إيه لما نروح القسم

انهارت عند ذكر قسم الشرطة وانحنت تقبل يده وهي تصرخ في لوعة: يا بيه أبوس إيدك أنا معملتش حاجة .. أنا يتيمة وغلبانة ومالیش حد .. يا بيه ورحمة أبويا أنا ما سرقت منك حاجة .. ورحمة أبويا أنا ولا شوفت ولاعة ولا عمري همد إيدي على حاجة مش بتاعتي

إذن هي يتيمة مثله، يتيمة وفقيرة، أشبعتها الحياة شقاءاً وبؤساً ليأتي هو اليوم ليزيد شقاءها شقاءاً وبؤسها بؤساً، اتخذ قراراً نهائياً بأن يتوقف فوراً عن استكمال تلك التمثيلية الهزلية التي شرع في أدائها منذ أن اكتشف أن ولاعته لم تكن مسروقة وقرر أن يرأف بحالها أخيراً ويكفيها ما نالته منه لكنه عقد العزم على ألا يعترف لها بأنه قد وجد ولاعته فهو لن يتحمل سماع كلمة لوم واحدة من فم أي شخص على ظهر الأرض، يكفيه ما يعتمل في نفسه فليس بحاجة إلى المزيد من الصراعات في هذا اليوم تحديداً.

حاول أن يبدو عليه مظاهر الاقتناع أخيراً وأبدى تعاطفاً بالغاً مع حالها وهو يخبرها أن حدسه يخبره أنها صادقة فيما تزعم لكن غضبه في البداية لفقدان تلك الولاعة الثمينة كان دافعه الأول والأخير في اتهامه لها لكن طالما أفضى هذا الاتهام إلى لا شيء فهو لن يتمادى وسيقنع بنهاية الأمر ببراءتها من ذاك الاتهام المنسوب إليها.

هدأت وتيرة دموعها قليلاً وبدأت مظاهر الارتياح تتسلل إلى ملامح وجهها فأدار

محرك السيارة معتذراً لها عن هذا الموقف السخيف وعن كونه قد عطلها عن أداء مهام عملها ووعدها ألا يتسبب في تعطيلها أكثر من ذلك ولذا سوف يقلها عائداً إلى مبنى التلفزيون بأقصى سرعة.

انهالت دموعها على وجنتيها مرة أخرى بغزارة وهي تخبره ألا فائدة ترجى من عودتها فمن المحتم أن الخبر قد انتشر ووصلت أصدائه إلى السيدة التي تعمل لديها وبالطبع لن تقبل عودتها للعمل معها وقد ثبت عليها كونها لصة.

شعر بفداحة الموقف لكنه قاوم صراخ ضميره به، أسرع يعرض عليها المساعدة وطلب منها أن تصطحبه إلى تلك السيدة كي يشرح لها سوء الفهم الذي تعرض له لكنه فوجئ بها ترفض بشدة معللة ذلك بكون ربة عملها تمتلك قدراً عظيماً من النوايا السيئة إذ تتمتع بطبيعة بشرية متشككة بأمر الجميع وإن هي وجدته يدافع عنها هكذا بعد أن قام باتهامها بالسرقة فلسوف يتسلل إلى نفس تلك السيدة الشك بشأن سلوكها وستفترض وقوع أمراً ما بينهما جعله يتغاضى عن واقعة السرقة وإلا فلما يتراجع عن اتهامه إياها بهذه البساطة وبذا لن تجلب لها صحبته إياها إلا المزيد من الفضائح.

ازداد جلد ضميره له فهو لم يهنها ويتهمها بالباطل فقط وإنما تسبب لها أيضاً في فقدان مصدر رزقها الوحيد والذي من المؤكد أنها تحتاج إليه وبشدة

-طب وبعدين هتعملي إيه؟

انسابت دمعة ساخنة على خدها: ولا قبلين .. لينا رب اسمه الكريم .. هدور على شغلانة تانية بس على الله اللي حصل النهاردة ميقفليش زي اللقمة في الزور بيني وبين أي باب رزق ألاقيه

مرة أخرى حاول أن يتماسك حتى لا تضعف نفسه ويعترف لها بخطأه طالباً منها الصفح والغفران: طب انتي قوليلي بتعرفي تشتغلي إيه وانا اساعدك

-يا بيه متشغلش بالك بيا ده الرزق بتاع ربنا

-لا أرجوكي قوليلي أنا بجد حاسس بالذنب نحيتك علشان انا السبب في قطع عيشك

أدارت الكلمات في رأسها للحظات وقامت بموازنة الأمر في عقلها؛ طالما هو المتسبب في فقدانها مصدر رزقها فيتوجب عليه المساعدة حتى تجد غيره، ألقت عليه نظرة

متفحصة شملت ملامحه الجذابة الوسيمة ومظهره الأنيق وملبسه الفاخر الذي يدل على تيسر حالته المادية: بص يا بيه .. هوا اسم الكريم إيه الأول .. متشرفناش

-عاصم

-بص يا عاصم بيه .. أنا بعرف أخيط .. اشتغلت من كام سنة في مشغل بس سيبته علشان صاحب المشغل كان راجل كبير وعينيه زايغة .. ومن يوميها وانا بقلب عيشي .. نوبة اشتغل في البيوت .. ونوبة اشتغل في أي ورشة خياطة .. ونوبة زي ما انت شوفتني كده بشتغل لبيسة لواحدة شغالة في التلفزيون .. هيا مش ممثلة مشهورة من اللي بالك فيهم .. حاجة كده نص لبة بس هعمل إيه هوا أنا لقيت غير كده وقلت لأ

-طب عال أوي حيث إنك بتعرفي تخيطي أنا ليا واحد صاحبي عنده مشغل في وسط البلد وتحت إيده بنات كتير زي حالاتك اللي بتطرز واللي بتخيط واللي بتسرفل لو كده هقابلك بيه بكرة وياريت يبقى ليكي نصيب معاه .. صاحبي ده أصله عشرة سنين وعمره ما هيرفضلي طلب

التمعت عيناها في ظفر: كتر خيرك يا بيه معلش هاتعبك معايا

-تعبك راحة متقوليش كده .. قوليلي بس أوصلك على فين دلوقتي وبكرة الصبح نتقابل زي متفقنا

حين نزلت من السيارة تودعه استدارت بجسدها نحوه والتفتت تلوح له وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة تحمل في طياتها حلاوة وعذوبة ودلال وأطلت من عينيها نظرة رجاء ألا يخلف وعده لها الذي تعلقت بحبائله؛ نظرة مجسمة لضعف واحتياج أنثى افتقد لوجودها في حياته منذ سنوات، أنثى تحتاجه جوارها لا تحتاج إلى أن تكون بمفردها لتثبت له أنها قادرة على أن تحيا به أو بدونه، أنثى اللغة الأولى في حياتها هي الدموع ومصدر قوتها هو ضعفها واستكانتها، أنثى تشعره أنه الرجل الذي يتولى القيادة ويتقدم الصفوف دائماً وأنها دوماً في احتياج إلى أن تكون تحت قدميه رهن إشارته وطوع بنانه، أنثى من المؤكد أنها دخلت حياته بمحض وتدبير من الصدفة البحتة لكنها لن تخرج منها أبداً فقد تحرك شيئاً ما في أعماق قلبه تجاهها.

***

-بابا هوا لسه كتير .. أنا تعبت أوي

لم ينتبه كون ابنه الصغير القابع بالمقعد الخلفي للسيارة قد غفى واستيقظ أكثر من مرة وقد أضناه الملل وأعياه التعب والإرهاق بعد يوم شاق افتتحه بصفوف المدرسة وقبل أن ينال أي قسط ولو يسير من الراحة فوجئ بوالده يصحبه ليستقل معه السيارة وقبل أن يستوعب الأمر وجد نفسه يسلك طريق السفر، ولولا ظروف مرض والدته الذي أرقدها بالفراش فأرسلت في طلب أبناءها لعلها تكون رقدتها الأخيرة ما كانت سمحت له أسمى باصطحاب أبنائهما معه بتلك الرحلة وهي لم تنل حريتها بعد من قيد ارتباطها به.

لم يجبه أملاً منه في أن يستسلم للنوم مرة أخرى، التفت إلى ابنته فوجدها قد أسبلت جفنيها محاولة الاستغراق في النوم لتلتمس قدراً من الراحة بعد يوماً طويلاً شاقاً لم يختلف في تفاصيله عن يوم أخيها.

حاول أن يكتسب بعضاً من الطاقة الإيجابية مبدداً المناخ الحزين السائد داخل السيارة فقام بفتح زجاج النافذة الأمامية للسيارة المجاور له مباشرة والخلفي المجاور لابنه بينما ترك المجاور لمقعد ابنته موصداً فقد أزكمتها الإنفلونزا ولا داعي لأن يزيد أعباء نفسه بثقل عبء مرض أحد أبناءه.

ضم ولاعته بأصابع مرتجفة من فرط الانفعال الذي لم تنجح تيارات الهواء المتجددة التي ملأت الأجواء من حوله في أن تهدئ منه ولو قليلاً فحاول هو السيطرة بنفسه على انفعالاته قدر الإمكان حتى تكف أنامله عن الارتعاش ويستطيع إشعال سيجارة ينشط بها منابع الذاكرة في عقله التي استيقظت من سباتها رغماً عنه ودأبت تسترجع أحداث شهوراً ماضية دفعة واحدة.

***

وقتها كان قد قرر الهروب من همومه الخاصة بإغراق نفسه في هموم غيره وكانت هي الشخص الذي وقع عليه الاختيار بعد أن أدى دوره على أكمل وجه كهمزة وصل بينها وبين صديقه الذي لم يرد أن يحرج موقفه أمامها وقام بتشغيلها على الفور في مشغله الخاص، يومها رأى سعادة الدنيا كلها في عينيها وانهالت عليه بكلمات الشكر والإطراء.

لكم افتقد الشعور بأن أحدهم ممتناً إليه، افتقاده للعديد من المشاعر واحتياجه إليها جعله يتردد بشكل يومي على مشغل صديقه هذا وتعددت حججه في ذلك

وبالطبع في كل مرة كان ينتظرها حتى تنهي أعمالها ويعرض عليها أن يقلها إلى المكان الذي تعيش فيه مع فتيات أخريات لهن ظروفاً شخصية تشبه ظروفها ولا يختلف حالهن عن حالها، ولما كانت تغدق عليه دوماً بشعورها اللامتناهي لاحتياجها إليه واحتياجها بشكل عام لوجود عنصر ذكوري في حياتها فكان يشعر في حضرتها أنه البطل المنتظر الذي أنقذها من الضياع بجميل معروفه.

أدمن احساس البطولة وأدمن تلك النظرات المنبهرة التي تقفز من عينيها في كل مرة تطالع فيها مظهره الأنيق الجذاب، كان بالنسبة إليها كقمر عال فوق قمة برج عاجي من المستحيل بلوغه أو الوصول إليه حتى النظر إليه في مكانه القصي يعتبر ترفاً لا يستحقه أمثالها لذا عندما تنازل القمر وتواضع وترفع عن مكانته طالباً الارتباط بها واقترح الزواج العرفي كإطاراً شرعياً لذاك الارتباط لم تدخر حتى ولو وقتاً ضئيلاً للتفكير، جنونها وطيشها وعنفوان اندفاعها جعله يستعيد شباباً كان على وشك الضياع منه في طور الحياة الأبوية الأبدية فاستشعر أنه يسرق من الزمن ويستعيد من رصيد عمره المنصرم ما لا يقل عن خمسة عشر عاماً هي عمر زواجه الذي كان يظنه سعيداً حتى أصبح بالأيام الأخيرة عبئاً يحاول التخلص من التزاماته. كان للزواج مصروفاته بينما هو قد صار شبه معدماً حتى ولو ارتضت العروس الجديد بأقل القليل فلابد من استئجار عشاً للزواج السري ولابد من وجود الطعام وبعض مستلزمات الحياة اليومية في ذلك العش وبما أنه قد ارتضى دور البطولة فلن يتنازل عنه تحت وطأة الأعباء المالية فاستوجب عليه الأمر بيع نصيبه من إرث والده لأخيه.

استأجر شقة صغيرة وقام بتأثيثها لتكون عشهما سوياً يأتلفا فيه مع بعضهما البعض بعيداً عن الأعين وأبقى مبلغاً من المال يتعايش به مع زوجته الجديدة حتى يجد مصدراً ثابتاً للدخل إمعاناً في اتقانه دوره البطولي الذي لن يتنازل عنه مهما حدث. كانت الأيام تسير على وتيرة واحدة يقضي نهاره معها يستقي حبها ثم ما ليبث أن يعود إلى فراشه البارد ليلاً حتى لا يثير شكوكاً حول مسلكه المتغير، الأمر الذي لم يكن يتوقعه مطلقاً أن مشاعره تجاه زوجته لم تتبدد كما ظن وإنما كانت في حالة خمول ليس إلا؛ خمدت قليلاً تنتظر شرارة البدء لتعاود الاشتعال من جديد وكانت شرارة البدء هي تلك الدموع التي انهمرت منها في لحظة ضعف.

لحظتها فقط شعر بفداحة ما أقدم عليه من جرم في حقها وحق نفسه وحق الإنسانة التي ارتبط بها، لكن فيض حبها الذي انهمر من جديد جعله يوقن أنه مهما كان المأزق الذي أورط نفسه به فلابد له من مخرج مهما كان الثمن أو كانت

العواقب التي ستعود عليه من جراء انهاء تلك الزيجة التي لم يكن ليزج بنفسه بها لولا اعتقاده بانهيار العلاقة بينه وبين زوجته إلى الأبد واستحالة تعديل مسارها لسابق عهدها مهما حدث لكن الحقيقة أن ما خرج عن مساره كان تفكيره الذي دفعه لاتخاذ هذا القرار الأرعن بناءاً على توهمه الوقوع في الحب، صحيح أنه شعر بأحاسيسه تتحرك صوب تلك الفتاة لكنها فعلياً لم تكن أكثر من مجرد إعجاب، حتى الإعجاب لم يكن بها أو بشخصها وإنما كان للطريقة التي تتعامل معه بها، فأعجب بضعفها واستسلامها وخضوعها واحتياجها المستمر له.

لذا اتخذ قراره بإنهاء تلك العلاقة بنفس اليوم الذي تأكد فيه من أن مشاعره تجاه زوجته وإن خمدت نيران شوقها فهي لم تنطفئ وفي كل الأحوال لن تنطفئ فها هي تلك الأزمة تهاجم حياتهما وتهدد كونهما معاً لكنه يجد نفسه مستعداً للتضحية بكل شيء حتى حياته من أجل الاحتفاظ بها.

تنهد في حرقة وهو يتذكر الجزع الذي انتابه حين سقطت أسمى مغشياً عليها؛ جزع جعل الدموع تقفز إلى مقلتيه خوفاً أن يكون قد أصابها مكروهاً جراء تلك الصدمة وأخذ يحتضنها محاولاً إفاقتها بشتى الطرق لكنها لم تستجب لمحاولاته فهب واقفاً يستدعي طبيباً كي يطمأنه عليها ليجدها على الجانب الآخر ترقبه في وجوم، هي التي أقحمتها الظروف في حياته أو لعله هو من يدعي ذلك على الظروف بينما هو من أدخلها حياته عن عمد ومع سابق الإصرار والترصد.

رآها شاحبة صفراء اللون وقد ارتدت ملابسها في عجالة في الوقت الذي لم يعد يلحظ وجودها من عدمه وحين لحظه أخيراً استدار إليها وبكل ما يعتمل في نفسه من مشاعر متضادة ألقى عليها اليمين محرراً نفسه وإياها من ارتباط ادعوا شرعيته بينما لم يعدو كونه مجرد تقنين لوضع الزنا في إطار يقبله المجتمع على مضد.

اندفع بكل غضبه الذي انصب في نفسه على شخصه هو ليس سواه والتقط ورقتان أخفاهما بعناية في أوراقه الشخصية ومزقهما إرباً مفرغاً كل طاقات الغضب والانفعال في جزيئاتهما التي تناثرت من حوله في عشوائية بينما كتمت هي شهقاتها وأسرعت تفر من أمامه وهي تكاد يغشى عليها هي الأخرى وتتمدد بجوار أسمى ولولا ثقتها أن ذلك لن يحرك فيه ساكناً لرقدت إلى جوارها علها ينوبها من اهتمامه نصيباً حتى ولو ضئيل.

شعر أن روحه قد ارتدت إليه بعد أن طمأنه الطبيب على أسمى وأخبره أنها بخير وأن ما أصابها لا يتعدى كونه انهياراً أصاب جهازها العصبي إثر تعرضها لصدمة

وستزول أعراضه بمفعول الحقنة المهدئة التي سرت محتوياتها في وريدها؛ إذن هي بخير وهذا ما يهم في الأمر وليس أي شيء آخر.

ظل يتأملها الساعة تلو الأخرى وأنفاسه متعلقة بأنفاسها الواهنة يرقبها شهيقاً وزفيراً وهو يرتب الكلمات التي سيبرر بها موقفه الذي لا مبرر له حتى استفاقت وضربت بكل مبرراته الواهية عرض الحائط حتى قبل أن يجرؤ ويتفوه بها، هي عنيدة وهو لا يقوى على استفزاز عنادها أكثر من ذلك خاصة لو اتحد عنادها مع كبريائها وكرامتها الجريحة وكونوا تحالفاً معاً ضده لحظتها تكون قضيته خاسرة مهما أبدى فيها من بسالة واستماتة في الدفاع عن نفسه، لذا استسلم وبكامل إرادته لرغبتها في تركها المنزل ممهلة إياه الفرصة ليلملم أشياءه ويرحل عن عشهما الذي شهد زواجهما وحبهما ووقف شاهداً أيضاً على نهاية هذا الزواج وذلك الحب.

-يا بابا لسه كتير .. أنا تعبت أوي .. أنا عايز أروح عند ماما وجدو

ارتفع بكاء الصغير ولم يفطن هو لكونه يبكي ويمطره بالأسئلة منذ دقائق في الوقت الذي كان عقله غارقاً في صراعه مع ذكرياته وجامات غضبه التي يصبها على نفسه اللعوب التي أودت به إلى ذلك الحال البائس.

التفت بكل ما يعتمل في نفسه من حنق وقام بإفراغ كل شحنات ضيقه وندمه في ولده الصغير الذي اتسعت عيناه عن آخرهما مفاجأةً ورعباً من ذاك الشخص المتحول أمامه ينظر إليه بغضب الدنيا كلها وكأن الشيطان قد تربع بين عقدة حاجبيه وأخذ يملي عليه أوامره وينفث دخانه المسموم في نبرات صوته التي ارتفعت وغلظت وهو يوبخ طفله وينهره في شدة حتى أنه لم يصدق كون أبوه يخاطبه على هذا النحو لأول مرة بعمره فانفجر باكياً ولمعت عينا الابنة التي استيقظت من سباتها مفزوعة بدموع خوف لم يهاجم قلبها من قبل وهي التي لم يسبق لها وأن شاهدت والدها بتلك الحال المفزعة.

لم يشفع بكاء الطفل المتواصل لديه لكنه استنفر جنونه إلى أقصى حد فاستدار بجسده ليهوي بكفه على كتفه وذراعه عله يصمت ويكف عن البكاء لكن ذلك فجر لدى الطفل طاقات هائلة من الصراخ الهستيري طالباً الدعم والنجدة من أمه التي ليست معه بأي حال فجعله ذلك يسلم للأمر الواقع أنه لن يكف عن البكاء هكذا ربما لساعات قادمة.

زفر في ضيق وتململ في جلسته وهو يستدير مواجهاً مقود السيارة مرة أخرى عندما فوجئ بإضاءة مبهرة لسيارة تعترض طريقه وصوت نفيرها المتواصل يطن في أذنيه بجنون فلم يدر بنفسه إلا وهو يدير المقود في الاتجاه المعاكس بأقصى ما يملك من قوة ويطأ مكابح السيارة بقدمه رويداً رويداً لكن ذلك لم يخفف من صوت صرير عجلاتها الذي صار مسموعاً بشكل مخيف فازداد تعرق جبينه وازدادت حرارة جسده وارتفعت معدلات ضربات قلبه ولم يتوقف بكاء ولده الذي شاركته فيه أخته الكبرى بالصراخ الهستيري فحاول التخفيف من سرعة السيارة بالضغط على المكابح بكلتا قدميه و ..... توقف الصراخ.

***

-قهوتك بردت يا مدام

لم تنتبه كون فنجان القهوة قابعاً إلى جوارها منذ قرابة الساعة بل هي بالأساس لم تلمح الخادمة وهي تضعه على الطاولة منذ برهة؛ حتى رائحة البن المحمص الفواحة وكم الكافيين المنبعث من دخانها لم ينجحا في استفزاز حاسة الشم لديها فتتنبه خلايا المخ لذلك وتعلن تمردها وحاجتها الماسة إلى هذا الفنجان الذي يحمل اكسير الحياة بداخل أعماقه.

طوت صفحات الكتاب المفتوح بين يديها منذ ساعات دون أن تتحرك وريقاته ونظرت إليها شاردة وهي تسألها فنجاناً آخر غير ذاك الذي لم يعد يصلح إلا كوديعة في سلة المهملات حين قاطعها صوت والدها قائلاً في أدب: خليهم اتنين من فضلك يا أم شوقي

-حاضر عينيا .. روقي كده يا مدام أسمى والله دي عين وصابتكم

كانت تنظر إليها بتأثر وهي ترى ريحانة المنزل العامر اليانعة وقد ذبلت وانقطع عبير عطرها عن الأرجاء

-بلاش نعلق ذنب كل حاجة وحشة بتحصلنا في رقبة الحسد .. ذنبنا في رقبة نفوسنا اللي أصلاً مش كويسة .. الحسد موجود آه بس وجوده مش معناه أننا نتهمه أنه المسئول الأول والأخير عن كل مشاكل حياتنا

انسحبت السيدة الأربعينية في صمت بينما سحب هو مقعداً من الخيزران وأدناه منها، وسيم دب الشيب في أنحاء رأسه وغزى شعره الكثيف فزاده وقاراً ووسامة،

ظهرت عينيه البنيتين من خلف منظاره الطبي ذو الإطار العاجي الأنيق بينما انتصب كتفيه وقامته في اعتداد ينم عن صحة جيدة لصاحب هذا الجسد الرياضي رغم تقدمه بالعمر فيما عدا ذلك البروز الطفيف بمقدمة بطنه والذي لا يظهر إلا عند جلوسه مشيراً إلى أنه أصبح يميل للراحة بالآونة الأخيرة.

تأملها في صمت منتظراً أن تأخذ المبادرة لفتح أي حوار معه كما تفعل دائماً حين تراه فتمر الساعات بينهما كوشاح حريري ناعم ينفلت من بين أيديهما؛ لكنها لم تفعل، لم تعد هي؛ لم تعد ابنته ينبوعاً متجدداً للنشاط والحيوية، تلك الفتاة التي رزقه الله بها فسبح بحمده وشكره على عطيته الغالية واعتبرها ابنته وأمه وأخته وصديقته ومكمن أسراره ومصدر قوته وسنده وملاذه، ما أقسى هذا الشعور أن يجد سنده وملاذه بحاجة إلى من يلوذ إليه ولا يقوى على التصريح بذلك، الجدار الذي يستند إليه بعد أن بلغ به العمر أرذله أوشك أن ينقض ولا يملك أن يقيمه من جديد فكيف لإنسانة أحبت ووثقت وأسلمت أمرها وعمرها كله إلى إنسان فلفظ ذاك الإنسان كل هذا أن تلملم شتات نفسها الممزقة وتعود لسابق عهدها هكذا ببساطة

-على فكرة طارق وكذا حد من زمايلك اتصلوا بيكي وكانوا عايزين ييجو يزوروكي بس انا قلتلهم إنك لسه تعبانة ومش هتقدري تقابلي حد دلوقتي

أومأت برأسها موافقة على كلامه دون أن تتفوه وعاد الصمت ثالثهما من جديد فقرر جذب انتباهها بطريقة اعتاد مراوغتها بها وهي طفلة وهو موقن أنها لن تخيب معها

-فاكره يا أسمى حكاية ملك أرض البحور والجنية أم الشعور اللي كنت بحكيهالك وانتي صغيرة

عقدت حاجبيها وقد نجح فعلاً في استفزاز اهتمامها: أبو البحور وأم الشعور !! .. انت عمرك ما حكيتلي حكاية زي كده قبل كده

ابتسم في ظفر وقد أدرك أنه أصاب حين اختار تلك الطريقة ليدفعها الفضول لمجاذبة أطراف الحديث معه على الرغم من عدم رغبتها به: افتكري كويس انتي اكيد عارفاها

هزت رأسها نفياً وقد التفتت تنظر إليه فأيقن أنها ستصغي إلى ما سيقصه على أسماعها باهتمام: ازاي مش فاكراها .. فاكره لما كنت بحكيلك إن كان في بلاد بعيدة

اسمها أرض البحور وكان ليها ملك حبته جنية بحر اسمها الجنية أم الشعور ومن عشقها ليه سخرتله البحر كله تحت أمره فكان لما ييجي يصطاد سمكة تطلعله ألف سمكة .. كان شعب أرض البحور سعيد بملكه لكن الملك عمره ما كان سعيد ورغم أن هوا كمان حب الجنية أم الشعور زي ماهيا حبته إلا أنه كان دايماً حزين لأنه حاسس أن ملكه مالوش قيمة قصاد ملكها .. هيا اللي سخرتله البحر وهيا اللي سخرتله السمك .. فضل على الحال ده لحد ما في يوم كان حزنه على حاله هيموته فركب مركبه وقعد يقدف بيها بكل قوته لحد ما خدته تيارات البحر لمكان بعيد عن أرض البحور .. لما رسيت المركب على الشط لقى بنت جميلة بتعيط .. طبطب عليها وعرض عليها مساعدته فلقاها بتسأله لو ممكن يساعدها بأنه يصطادلها سمكة لأن أبوها مريض واخواتها الصغيرين جعانين ومتملكش المال علشان تجيبلهم أكل ولا هيا بتعرف تصطاد ورغم إن دي يمكن كانت أصغر سمكة اصطادها في حياته إلا أنها كانت أكبر سمكة تشوفها البنت الجميلة ومن يوميها وهوا هجر مملكته في أرض البحور وقرر يعيش ملك من غير مملكة أحسن ما يكونله مملكة ومش هوا ملكها الحقيقي.

ألتفت إليها فوجد ملامح وجهها تنم عن الغضب والضيق الشديدين فابتسم يداعبها: وتوتة توتة فرغت الحدوتة .. حلوة ولا ملتوتة

لوت شفتيها في امتعاض وهي تهتف: انت قصدك إيه يا بابا؟؟ .. قصدك إن أنا السبب!! .. أنا اللي خليت عاصم يتجوز عليا واحدة جربوعة من الشارع!!

نظر في عينيها وهو يبادرها بجملة اعتراضية في صيغة سؤال لم تكن لتتوقعه: يعني لو كانت بنت أصول كان هيفرق معاكي وكنتي هتتقبلي الموضوع بصدر رحب !! أدارت وجهها وهي لا تجد ما تجيبه به فأكمل: بصي يا أسمى الخيانة خيانة مش فارق فيها هي إذا كانت واحدة من الشارع ولا ملكة جمال العالم .. فارق فيها بس إن الشخص اللي وثقنا فيه وصدقناه وآمنا له طلع ميستحقش الثقة دي .. بس قبل ما نسن السكاكين ونعلق المشانق للشخص ده من حقه علينا ومن حق عشرتنا بيه إن احنا نقف دقيقة مع نفسنا ونسأل روحنا هوا ليه عمل كده

اندفعت تجيبه في حدة: علشان زي كل الرجالة .. عينيهم فارغة .. ولما بيكبروا عينيهم بتبقى فارغة أكتر واكتر .. والواحد منهم مبيبقاش عايز يعترف لنفسه أنه كبر خلاص فبيدور على أي عيلة صغيرة يعيد بيها أمجاده

نظر إليها معاتباً فقامت عن مقعدها وقبلت منتصف جبهته في أسف: أنا آسفة يا بابا .. انا مقصدش طبعا .. أنت غير كل الرجالة دي.. انت راجل محترم بجد

-وعاصم كمان راجل محترم

تبدلت ملامح وجهها فاستكمل حديثه: آه يا أسمى .. عاصم راجل محترم .. عاش وسطنا أكتر من خمستاشر سنة عمر ما طلعت من بقه العيبة ولا شوفنا منه حاجة وحشة .. حتى يوم مفكر يعمل حاجة من وراكي .. اتجوز .. معملش حاجة في الحرام

ابتسمت في سخرية: وهوا الجواز العرفي بقى حلال دلوقتي!!

-أهو جواز والسلام ويمكن يكون متجوزهاش رسمي لأنه كان واثق إنها نزوة وهتروح لحال سبيلها ومحبش ان يكون في بينه وبينها ارتباط أكبر من كده

-يا بابا ما تبررلوش غلطه

-أنا مش ببرره غلطه بس عايزك تعرفي إنك كمان مشتركة معاه في الغلط ده

-أنا!!؟؟

قالتها باستنكار فأومأ برأسه مستكملاً: آه غلطانة .. غلطتي في حقه وفي حق نفسك لما قررتي تعملي فيها أب وأم ومديرة منزل .. غلطتي لما بقى ولادك كل ما يعوزوا حاجة يطلبوها منك انتي وما يطلبوهاش من ابوهم .. ومش طلباتهم وبس .. حتى لما بيعوزوا يخرجوا أو يلعبوا بيستأذنوكي انتي وكأنه هوا ضيف شرف في حياتهم .. غلطتي لما حسستيه بشكل مباشر أو غير مباشر أن شغلك أهم من شغله .. لما حسستيه إن شغلك أهم حاجة في حياتك .. ده إن مكنش أهم حاجة في الدنيا كلها .. كل يوم كنتي بتلمعي عن اللي قبله هوا كان بينطفي لحد ما بقت وظيفته في الحياة إنه جوز الأستاذة .. كان لازم ييجي عليه اليوم اللي يزهق فيه .. كان طبيعي يدور على ناحية تانية يكون فيها هوا المسيطر الأول والأخير .. هوا اللي بيصرف .. هوا اللي بيقرر .. هوا اللي بيقول آه أو لأ .. من الآخر هوا راجل البيت

انحدرت الدموع من عينيها وقد ارتسم على وجهها تعبير بالغ الأسى: يااااه يا بابا .. أنا مكنتش أعرف إن أنا وحشة أوي كده .. بأه طلعت أنا السبب في كل اللي حصل ده

ربت على كفها ورفعها إلى فمه يقبل باطنها في حنان أبوي: يا أسمى متزعليش مني أنا مقصدش أزعلك .. أنا بس عايز أقولك ان انتي كنتي عايزة كل حاجة في نفس الوقت ومحدش بياخد كل حاجة .. لازم حاجة قصاد حاجة .. انتي جميلة وزي القمر وربنا رزقك ببنت وولد ربنا يحميهم وجوزك ابن حلال وطيب وبيموت فيكي ومشهورة والناس كلها عارفينك وليكي معجبين بالألافات بس كل ده في كفة وأول متدخلي بيتك إنك تبقي زوجة وأم وبس .. ده في كفة تانية خالص .. مش لازم تفضلي متقمصة شخصية النجمة حتى وانتي جوه البيت .. أنا ربيتك علشان تبقي شخصية بس شخصيتك دي كان لازم تتنازلي عن شوية منها قصاد جوزك أو على الأقل توحي ليه بكده .. الرجالة كلهم سهل يتضحك على عقلهم بالكلام وكلمة حاضر وطيب ونعم بتريح العقل قبل القلب .. إنما انتي طول الوقت راسك براسه وبتمشي كلمتك في النهاية وهوا علشان بيحبك بيمشيلك اللي انتي عايزاه بس مينفعش بره وجوه البيت يحس إنك ريسة عليه

عقدت ذراعيها أمامها في وضعية اعتراضية وقالت بنفاذ صبر: والمطلوب يا بابا معلش؟؟

ربت على كتفها: سامحيه يا أسمى معلش .. لو مكنش علشانك يبقى علشان البيت والولاد

اتسعت حدقتاها عن آخرهما: ولو أنا اللي كنت مكانه كان هوا هيسامحني؟؟!! .. كنت حضرتك هتسامحني؟؟!! .. كان في أي حد في الدنيا ممكن يسامحني أو حتى يبقى عنده الجرأة انه يقعد معاه ويقنعه يتغاضى عن النزوة دي علشان خاطر بيته وولاده؟؟!! .. هوا ليه الخيانة حق مكتسب لأي راجل في حين انها جريمة لا تغتفر لأي ست .. في النهاية كلنا هنقف قدام ربنا ويحاسبنا على غلطنا بغض النظر احنا رجالة ولا ستات .. ده حتى ربنا في كتابه العزيز قال الزاني والزانية مقالش الزانية والزاني يعني قدم الراجل على الست في العقاب وساوى بينهم بنفس نوع العقاب .. ليه بتقدموا اللي يصح واللي ميصحش على الحلال والحرام .. ومتقوليش هوا ما عملش حاجة حرام .. لأ عمل يا بابا .. حتى لو كان اتجوز جواز رسمي على سنة الله ورسوله كان هيبقى برضه حرام .. هوا مين اللي قال إن الغدر مش حرام .. وهوا مغدرش بيا باللي عمله ده .. طب فرضاً إن أنا سمعت كلامكم وسامحت علشان بيتي وولادي .. أنا هيبقى وضعي إيه .. ممكن آءمنله ازاي انه ميغدرش بيا تاني .. هعيش معاه ازاي تحت سقف واحد وانا حاسة أنه ممكن يضربني بسكينة في ضهري في أي لحظة .. طالما عملها مرة ممكن يعملها تاني وتالت وعاشر .. ده

واحد كان عايش طول عمره بياكل أكل نضيف وفجأة نفسه هفته على الزبالة .. رمى الأكل النضيف وقبل على نفسه يمد إيده في الزبالة وياكل منها .. أيه اللي يضمني ان الأكل النضيف هيملى عينه ومش هيحن لأكل الزبالة مرة تانية

كان بصدد استكمال حديثه حين قاطعه صوت رنين الهاتف المتواصل فنظر إليها محاولاً جذب اهتمامها: ده ترانك على فكرة

أشاحت بوجهها بالاتجاه الآخر وكأنها تخبره أن أياً من كان فلن يعنيها في شيء، فقام من مجلسه وقد امتلأت نفسه بمشاعر الأسف والحزن على ما آل إليه حالها والتقط سماعة الهاتف التي لم تستقر في يده لأكثر من ثوان معدودة قبل أن تسقط لترتطم بأرضية الردهة في عنف.

***

كان كل ما حولها يتحرك بسرعة فائقة، نظرات الهلع والاضطراب تقفز من المقل التي تحيط بها وأصوات الصخب تملأ الفراغ من حولها وتشبعه ضجيجاً، التفتت لتجد أبيها بجوارها وقد تجمدت نظراته وصاحبها تعبيراً مبهماً غير واضح المعالم سيطر على ملامح وجهه كلها.

إنه حتماً كابوس؛ كابوس تعيشه بكامل تفاصيله؛ كيف يمكن أن يكون الكابوس واضح التفاصيل إلى هذه الدرجة، تمر الكلمات بجوار أذنيها مرور الكرام فلا ينالها من استيعاب محتواها ولو قدر بسيط، كلما انفتح باباً وجدت عيني والدها وقد تعلقت به فيعبر منه أحدهم إلى الخارج أمامه دون أن يقوى هو على استيقافه وكأنه يخشى أن يسأله فتكون إجابة سؤاله صادمة، لمحت أمها بالزاوية وقد انكمشت على نفسها في أحد المقاعد المعدنية المنتشرة في أروقة المستشفى قابضة على مصحف صغير بكلتا يديها وهي تتمتم بآياته وعيناها لا تتوقفان عن ذرف الدموع.

كل ما حولها يشع فزعاً ويقطر خوفاً ولا تستطيع دفع الدقائق والساعات لبلوغ تلك اللحظة التي سيعم السلام فيها نفسها حين تأتيها الأنباء التي تثلج قلبها وتطمأنه على سلامة أبنائها وزوجها، زوجها؛ إذن مازال يحتل تلك المكانة بقلبها وإلا لما كل هذا القلق البالغ حيال أمره؛ يكفيها قلقها على أولادها الذي يكاد يفتك بعقلها وينهش في قلبها بضراوة لكنها لا تستطيع انكار أن له نصيباً من ذاك القلق وكأن وجوده على حافة الخطر قد محى كل ما أقدم عليه وارتكبه في حقها من

خطايا فأسقطت ذاكرتها في تلك اللحظة كل ما مر بهما وتوقف الدهر صانعاً فجوة زمنية ارتبط معبرها بحركة الباب الخاص بغرفة العمليات فقط لا غير؛ فأصبح كل شيء سبقها زمنياً بلا قيمة ولا وجود له.

مرت أكثر من ثلاث ساعات غلبها خلالهم النعاس أو لعلها نامت لتراوغ قلقها الذي لا يعرف للرحمة طريقاً فوجدت يداً حانية تربت عليها وتهمس باسمها، انتفضت مفزوعة وهي تأمل أن تجد نفسها في فراشها أو على أقل تقدير في غرفتها بمنزل والدها ويكون كل ما مرت به حلماً عابراً لكن برودة المقعد المعدني التي نخرت عظامها جعلتها تتدارك الموقف في ثوان فوجدت والدها ينظر إليها بإشفاق وهو يخبرها أن الأمور أفضل من ذي قبل فقد خرجت ابنتها من حجرة العمليات بعد أن خضعت لجراحة دقيقة في عمودها الفقري وستظل إثرها تحت الملاحظة لأيام لتدارك تداعيات الموقف، كما أن زوجها غادر غرفة العمليات لتوه بعد أن مر بجراحة هو الآخر استهدفت منطقة الحوض بجسده والتي تعرضت للتهشم إثر انقلاب السيارة بهم لأكثر من مرة، أما طفلها فهو الوحيد الذي لم يخضع لجراحة فقد قفز جسده الضئيل من النافذة بجوار مقعده بالخلف والتي كانت مفتوحة عن آخرها في تلك اللحظة فلم يتأذى من تهشم الزجاج بجواره إنما لفظته السيارة أثناء أول انقلاب لها بعيداً فتكوم جسده على بعضه البعض بعيداً عن آثار تحطم الصاج الخارجي لها وانبعاجه لكنه سقط في غيبوبة من أثر ارتطام رأسه بالطريق وسيظل على إثرها تحت الملاحظة للأربع والعشرون ساعة القادمة قبل أن يبت الأطباء في أمره.

انهارت باكية بالرغم من أن والدها قد بذل مجهوداً خرافياً ليبدو في غاية التماسك وأيضاً ليضفي على لهجته المزيد من الطمأنينة لكن حركة عينيه الزائغة جعلتها توقن أن الأمور ليست على هذا النحو من الاستقرار الذي يحاول أن يوحي به إليها.

ضمها في صدره بحنان محاولاً مقاومة دموعه التي تغالبه: احمدي ربنا يا أسمى .. كله خير ان شاء الله .. هيقوموا بالسلامة وربنا هيطمننا عليهم كلهم .. أنا عايزك بس توعديني بحق الأزمة اللي انتي فيها دي إنك تسامحي جوزك .. كفاية أوي اللي حصله .. أنا عارف ان ده ممكن يكون ذنبك .. بس الولاد ملهمش ذنب في ده .. وغلاوة ولادك عندك انسي كل اللي حصل ومتتخليش عنه في أزمته دي علشان ربنا يطمنك عليه وعلى ولادك

أومأت برأسها من وسط نحيبها وقد أوجع حديثه ضميرها بشدة فمنذ تلك اللحظة التي جاءهم فيها اتصالاً من هذه المستشفى يخبرهم بوقوع الحادث وبأن زوجها

طلب ممن نقلوه إلى هنا أن يقوموا بالاتصال على هاتف منزل والدها قبل أن يسقط مغشياً عليه وهي تشعر أن ويلات غضبها وحقدها عليه الناتج من ظلمه إياها هي المتسبب الرئيسي بهذه الحادثة؛ حتى ولو لم تكن قد توجهت إلى الله لطلب الانتقام والثأر لنفسها فقد تمنت ذلك رغماً عنها، تمنت أن يعض بنان ندمه على فقدانها، تمنت أن تكون تلك الأخرى التي فضلها عليها لصة تسرقه أو خائنة تطأ شرفه واسمه الذي منحه لها بحذائها البالي مع آخر، تمنت أن يكتشف أنه باع الذهب مقابل أردئ أنواع المعادن وأرخصها، تمنت أن تتشتت حياته وتنقلب رأساً على عقب من جراء فعلته تلك لكنها لم تجرؤ أبداً على تمني الموت أو حتى الأذى له فما بال الأذى قد طال أفراد عائلتها الصغيرة فرداً فرداً وأزكمت رائحة الموت الذي يزحف بالقرب منهم أنفها وجعلتها لا تقوى على رفع رأسها لمواجهة ذلك المجهول الذي تنتظر حلوله في غضون الساعات القادمة.

هل تكون هي السبب في هذه المأساة التي تعيشها، هل يكون هذا هو انتقام الله لها لغدرة زوجها بها، لكن حتى وإن انتقم الله لها منه ما بال أولادها يصبحون طرفاً في هذا الانتقام الذي لا ناقة لهم فيه ولا جمل.

يااااارب

قالتها وهي تتنهد بحرقة وقلبها يلهج بالدعاء قبل لسانها أن يرأف الله بها وبحال أسرتها ولا يريها فيهم مكروهاً وقد عاهدت الله في تلك اللحظة على نبذ كل الخلافات جانباً والإقدام على التضحية بكرامتها وجرح قلبها الغائر كقربان في ضريح التسامح من أجل أن يغفر الله لهم جميعاً وتمر تلك الأزمة بسلام

-مدام أسمى .. ممكن دقيقة من فضلك

قاطع ذلك الصوت تمتماتها المتصلة بالدعاء فرفعت عينيها ببطء لتجد أمامها شاباً في منتصف الثلاثينات حليق الوجه ارتسمت الجدية على ملامح وجهه الدقيقة وغطى عينيه البنيتين منظاراً طبياً رفيعاً زاد من وسامته وصنع مع ذلك المعطف الناصع البياض شراكة معلنة توحي للرائي أن هيئة هذا الشاب لا يمكن أن تكون سوى لطبيب واعد

كانت نظراتها شاردة لكن شرودها لم يمنع علامات الاستفهام من أن تقفز إلى ملامح وجهها حين طلب التحدث إليها فضربت الحمرة طرفي أذنيه خجلاً لذلك التعبير المرتسم على وجهها خاصة أنها لم تستجيب لطلبه ولم تجيبه بأياً من الكلمات لذا

تنحنح في حرج وهو يعيد صياغة طلبه مرة أخرى: أنا آسف يا مدام أسمى بس أنا عايز حضرتك في موضوع شخصي على انفراد

التفتت إلى والدها ثم أدارت وجهها مرة أخرى باتجاهه: اتفضل يا دكتور محدش غريب ده والدي

انتابه الإحراج الشديد فتلعثم: أصل الموضوع يافندم يتعلق ب.....

قبل أن يكمل جملته التقط والدها إشارات الخجل من لهجته المتعثرة التي تبعثرت فيها الكلمات على طرفي شفتيه والتمس إصراره على محادثتها وحدها فقام عن مقعده قائلاً: خد راحتك يا دكتور .. أنا أساساً كنت قايم علشان اتطمن على عاصم والولاد

ربت على خدها بحنو بالغ ليطمئنها ويخبرها بشكل غير مباشر أنه سيظل إلى جوارها حتى لو ابتعد وأن كل شيء سيصير على ما يرام

كان يحاول أن يبث في نفسها طمأنينة هو في أمس الحاجة إلى من يمنحه ولو قدراً ضئيلاً منها، اقترب من زوجته وشريكة حياته يلتمس منها القليل من هذه الطمأنينة التي يحاول أن يوحي لابنته بامتلاكها فوجدها لا ترفع عينيها عن المصحف وكأنها تشعر أن خارج الأسطر المقدسة لا أمان قد يصادف قلبها فجلس إلى جوارها ورفع رأسه باتجاه ابنته فوجد الطبيب لا يزال يتحدث إليها في اهتمام.

حاول أن يقصي عن عقله محاولة التكهن بطبيعة ذلك الأمر الذي جعل الطبيب يتمسك بعدم الحديث به إلا حين ابتعد هو فتشاغل عن التفكير في ذلك بأن فرد ذراعه حول كتف زوجته وضمها إليه بحنان ثم طبع قبلة حانية على جبهتها فالتقطت هي بدورها كفه بيدها وانحنت تقبلها وفي عينيها نظرة امتنان تبدو غير متناسبة مع الموقف من حولهما فأومأ برأسه متفهماً سبب تلك النظرة وكأنه يخبرها أنه وحده يعلم لما هي ممتنة إليه في تلك اللحظة تحديداً.

ابتعد قليلاً وحملته أقدامه إلى نهاية الردهة حين اصطدمت بكتفه ممرضة شابة تركض في فزع، خفق قلبه رغماً عنه وشعر أن تلك النظرة التي رآها في عينيها تنبئ بأن هناك خطباً ما وتأكد حدسه حين تبعتها أخرى تركض هي الأخرى دون أن تنتبه لوجوده في طريقها فمال بجسده حتى يتفادى الارتطام بها، رأى رجل في أواخر الأربعينات غزا الشيب مفارق الشعر في أعلى رأسه يضع كفه في جيب معطفه والكف الأخرى يطوحها يميناً ويساراً وهو يمشي في خطوات مسرعة باتجاه تلك

الغرفة التي سبقاه إليها الممرضتان الشابتان.

وجد نفسه يتبع ذلك الطبيب لا إرادياً وكأن نداءاً خفياً يدفعه إلى ذلك بينما أخذ قلبه يرجف في انفعال وقد بات يشعر أن حدسه سوف يتأكد ما بين آن وآخر فهو لا يتنبأ بشيء ألا وأصاب تنبؤه، فراسة امتلكها منذ الصغر وها هو يود لو لم يكن ليمتلكها يوماً حين رأى الجسد الصغير وقد امتدت الأيدي لتعبث به وتقوم بانتزاع القميص الأزرق اللون عنه بينما أمسك الطبيب بكتلتين معدنيتين متوسطي الحجم تم توصيلهما بأسلاك كهربائية امتدت إلى جهاز ضخم تراصت على سطحه العديد من الأزرار والمفاتيح.

اقترب بهاذين الجسمين الباردين من الجسد الصغير ولامس بهما صدره لأقل من ثانية فانتفض الجسد يقفز في الهواء حين سرت الموجات الكهربائية فيه وانتقلت عبر السطح البارد إلى جسده ثم عاد واستكان مرة أخرى بالفراش فأعاد الكرة من جديد وسط هرج ومرج استفز فضول كل من بالخارج حتى أسمى نفسها وذلك الطبيب الذي كان بصحبتها قطعا حديثهما وقفزا باتجاه الغرفة بقلوب وجلة في الوقت الذي كان يعيد فيها الطبيب الأربعيني الكرة للمرة الثالثة بعد أن أمر الممرضة بزيادة مقدار التيار الكهربائي الذي يسري في تلك الصدمة فأدارت المؤشر إلى اليمين ممتثلة إلى أوامره لكن القلب الصغير أبى أن يمتثل لمحاولاتهم المستميتة لإنعاشه فانتفض الجسد في الهواء بشدة ثم عاد ليستكين في أحضان الفراش فكانت الانتفاضة الأخيرة والاستكانة الأبدية فقد نحى الطبيب معداته جانباً وشرع يجذب الغطاء ويسدله عليه والتفت ناظراً بأسى إلى المحيطين به وهو يقول بحزن عميق: البقية في حياتكم

ارتفعت أصوات العويل والصرخات وانهمرت الدموع من أعين جميع الواقفين لكن هي لم تبكي ولم تصرخ كان صوت صراخها يترنح في أعماقها وهي تتساءل في جنون لماذا تهاجمها الكوابيس ليلاً ونهاراً هكذا، ألن ينعم القدر عليها ويجعلها تهنئ بليلة واحدة دون كوابيس قبل أن تموت كمداً وحسرة.

لكن هذا الكابوس تحديداً هو أسوأهم على الإطلاق وأكثرهم بشاعة.

شعرت بيد والدها تمتد إليها لتضمها إلى صدره فدفعت يده بعيداً وكأنها تنهاه عن تأكيد حقيقة الكابوس وواقعيته ثم .....

سكتت الأصوات كلها تماماً وأظلمت الحياة من حولها

تصيبك الابتلاءات الواحد تلو الآخر؛ فتصبر نفسك بكل مرة أن ذلك هو أعظمهم ومهما صادفك من بعده لن يكون بمقدار صعوبة هذا الابتلاء فتفاجئ أن الابتلاء الذي يليه أشد قسوة وصعوبة فتحاول التمسك بأقرب طوق نجاة لتفر من هجماته قبل أن يفتك بك وبمجرد أن تطأ قدميك شاطئ الأمان وتهم بالتقاط أنفاسك تفاجئ أن رسوك على هذا الشاطئ تحديداً هو أعظم ابتلاءاتك على الإطلاق فتشعر حينها أنك لا تملك رفاهية الاختيار ما بين البقاء على شاطئ انت هالك على أرضه لا محالة وما بين العودة إلى البحر الذي سيبتلعك وتهلك بأعماقه بلا شك.

كان ذلك اليوم الذي عادت فيه إلى منزلها ووجدت أخرى بغرفتها بداية لسلسلة ابتلاءات عظيمة افتتحتها بانهيار جسور الثقة التي امتدت بينها وبين زوجها لقرابة الخمسة عشر عاماً ثم تلك الحادثة المريعة التي تمنت لو كانت بينهم وقت وقوعها فتتلقى نصيبها من الابتلاء عل آلام بدنها تخفف من وطأة آلام نفسها؛ فوجودها طريحة الفراش إلى جوارهم أفضل من الانضمام إلى صفوف المتفرجين؛ تشاهد أحبائها يتعذبون ولا تملك حيال عذاباتهم شيئاً سوى أن تغدق عليهم بالمزيد من الحزن والشفقة.

تلك اللحظة التي أخبرها فيها الطبيب أن ولدها قد فارق الحياة مثلت بالنسبة لها حد السيف ما بين التعقل والجنون، ظلت تعاني من نوبات انهيار شديدة لا تفرغ منها إلا حين تسري المهدئات في أوردتها فتستسلم للنوم إجبارياً لكن عقلها يبقى متيقظاً يجلدها بلا هوادة وكأنه يؤكد لها فكرة أنها السبب في ما آل إليه حال أسرتها فقد أخبرها الأطباء أن ابنتها ستظل رهينة المقعد المتحرك لباقي سنوات عمرها أيضاً زوجها سيخضع للعلاج الطبيعي ربما لسنوات قبل أن يستطيع السير على قدميه بصورة طبيعية دون اللجوء إلى مساعدة عكازه الخشبي الذي صار يلازمه منذ أن خرج من المستشفى، حتى أمه التي تزامن وقت وفاتها مع التوقيت الذي أعقب الحادث لم تسعفه حالته الصحية في أن يلقي عليها النظرة الأخيرة ولم يستطع تشييع جثمانها إلى مثواه الأخير ولا حتى أن يتلقى في فقدانها العزاء.

أما عنها فقد استأنفت حياتها بنصف عقل ونصف قلب؛ موت ولدها شطرها نصفين؛ نصف يحيا على الأقراص والعقاقير المهدئة ونصف وارى التراب محتضناً جسد ابنها ومتلحفاً بأضلعه الصغيرة الفانية، انقلبت حياتها رأساً على عقب؛ تركت العمل الذي كان كل حياتها وما العجب في أن تترك حياتها وقد سبقتها الحياة وتركتها، حتى ابنتها التي صارت في أمس الحاجة لاهتمام خاص ورعاية نفسية لم تستطع أن تمنحها ما تحتاج إليه لتعبر تلك الأزمة فاستضافاها جديها في منزلهما

وتكفلا برعايتها حتى تستعيد ابنتهما كامل صوابها والتي بدورها قد أصرت على العودة إلى منزلها لا من أجل شيء وإنما من أجل أن تبات كل ليلة في فراش صغيرها كما كانت تفعل طيلة الفترة الأخيرة قبل أن تجتاح الصدمات حياتها فقد اعتادت مشاركته الفراش لتتلاحم أنفاسهما وتتعانق يومياً، لكن صاحب الفراش لم يعد موجوداً، صار الفراش بارداً وصارت أنفاسها لا تجد لها صداً ولا تجد لها رفيقاً تعانقه وتستأنس به من وحشة الأيام.

أصر زوجها ووالديها على دفعها للتردد على الطبيب النفسي لكنها كانت تراوغ وتتهرب من زياراته فهي لا تجد في نفسها الرغبة حقاً في الخوض بالحديث عما يثقل قلبها بالأحزان يكفيها إغلاق قلبها على ما به ولا داعي لنبش جرحها ونكأه كل حين فحتى لو فاضت بكل ما يعتمل به قلبها هل سيخفف ذلك من وطأة أحزانها شيئاً؛ هل سيعيد لها ما فقدته؛ بالطبع لا؛ فلو كانت الدموع تعيد شيئاً لأعادت نفسها إلى العيون ولو كان الحديث عن الأحزان يخفف منها لحيا الناس بعضهم وتصافحوا بأحزانهم لا بكلماتهم علهم يخففوا عن بعضهم البعض.

أسدى إليها الطبيب معروفاً حين وصف لها بعض المهدئات والمنومات فأصبحت تهرب من آلام الواقع على متن تلك الأقراص وتستسلم لفراغ ذهني يخلو من أية تفاصيل، تستيقظ يومياً فيراودها شعوراً قوياً أن ابنتها في حاجة إليها وبيتها في حاجة إليها وعملها في حاجة إليها ووالديها في حاجة إليها لكنها ليست في حاجة إلى أياً من ذلك، حاجتها الوحيدة تتمثل في مراقبة سقف الغرفة لساعات أو الجلوس على مقعدها المفضل في الشرفة ترقب القصر الملعون أمامها لساعات، هي أيضاً أصابتها لعنته منذ أن وطأته بأقدامها وانقلبت حياتها رأساً على عقب منذ ذلك اليوم؛ وكأنه ما حل ضيفاً عليه إلا ونال نصيبه من لعنته وها هي ذا يؤول بها الحال بعد سنوات المجد والانطلاق والسعادة المفرطة إلى قنوات مظلمة مسدودة تتجمد فيها حياتها عند نقطة معينة فيصير حالها كحال تلك التماثيل الصماء البكماء المنحوتة على جدرانه فتقضي معظم أوقاتها تتطلع إليهم وقد صارت تتشارك معهم شعور الجمود وأعراض الانسحاب من الحياة وصمتها المطبق الذي لا يقطعه سوى نهيج أنفاسها التي جل ما ترغب فيه أن يخمدها الله إلى الأبد لتنتهي كل آلامها.

تعاقبت الشهور خلف بعضها مصطحبة في إثرها أياماً لا تختلف في تفاصيلها عن بعضها البعض سوى في مقدار الأحزان، قيدتها أحزانها وشلت تفكيرها تماماً حتى عن التفكير في علاج لابنتها التي صارت قعيدة وهي مازالت في عمر الزهور، ساءت علاقتها بأبويها حتى شارفت حد الهجران، تغلفت روحها بالوحدة حتى الأوقات

التي يتواجد فيها زوجها بالمنزل تفضل فيها الاستسلام للحزن كفريسة سائغة له عن محاولة التشبث بتلك الخيوط الواهية التي تعلقها بالحياة.

لم يشق سكون حياتها التي تغيم عليها ظلال الكآبة سوى عدة طرقات بباب منزلها ذات صباح، قررت أن تتجاهلها في البداية علها تكون إحدى الهلاوس السمعية التي أصبحت تراودها في الأيام الأخيرة واشتكت إلى الطبيب أمرها وأمر تلك الخيالات التي تتراءى أمام بصرها فأرجع هو ذلك إلى حالة الاكتئاب الشديدة التي تعاني منها.

تجاهلت الطرقات للمرة الثالثة حتى توقفت أخيراً فتناست أمرها وظلت على حالة الجمود هذه لساعة أخرى حتى ألح عليها العطش وجعلها تتخلى عن مقعدها بالشرفة رغماً عن إرادتها لتتوجه إلى المطبخ بعد أن استحلفها جفاف حلقها بالتماس القليل من الرحمة لأجله حتى لا يتشقق من فرط الجدب.

صادفت عينيها في طريقها إلى المطبخ مظروفاً أصفر اللون استقر طرفه أسفل الباب وكأن هناك من حاول زجه عن عمد ليصلها بعد أن تعمدت هي إغفال الطرقات التي أزعجت سكونها صباحاً، قررت أن تتجاهله تاركة أمره لزوجها لحين عودته من الخارج لكن شيئاً ما بداخل أعماقها دفعها لتفتح الباب أمامها فلم تجد إلا الفراغ، انحنت تلتقط المظروف المتخم وقبل أن تغلق الباب أو تحاول فض محتواه كانت العديد من الصور الفوتوغرافية الملونة تتساقط منه أرضاً بعد أن تمزق جزءاً من غلافه بسبب دسه في الفراغ الضيق أسفل الباب عنوة.

مالت بجسدها الذي صار هزيلاً وازداد نحوله عن ذي قبل تلتقط تلك الصور من فوق البساط الحريري أسفل قدميها لتصطدم عينيها بصورة لزوجها يضع يده على كتف فتاة تعرفها جيداً وتعرف ملامحها وتلك النظرة في عينيها وذلك الشعر الغجري الذي خضع لحرارة السيشوار ليصير ناعماً منساباً هكذا؛ لم تراها إلا لدقائق ولمرة واحدة فقط بحياتها لكن ملامحها انطبعت في ذاكرتها وحفرت تفاصيلها في أعماق وتلافيف عقلها.

الملفت للأنظار في هذه الصورة لم يكن تلك الفتاة ولا احتضان زوجها إياها ولا حتى أطنان السعادة العارمة التي غمرت نظراتهما وضحكاتهما المشرقة لكن الأكثر اجتذاباً للأنظار كان ذلك الكيان الصغير الذي التفت حول جسده الشراشف البيضاء بإحكام سامحة فقط بهوة صغيرة يطل منها رأسه الصغير على العالم من حوله معلناً ميلاده.

ظلت تجول بناظريها في ذهول تتفقد باقي الصور في عشوائية ثم انطلق الصراخ من أعماق حلقها مفرغاً كل ما اعتمل في نفسها من طاقات الحزن والغضب.

فقدت ابنها فلم يشعر بفجيعتها أحد؛ فقدت ابنها بسبب خطأ غير مقصود من زوجها فكافأه الله بآخر يعوضه عن فقدانه إياه وحرمها هي منه إلى الأبد، حرمها رؤية ابنتها تسير على قدميها مرة أخرى وحرمها تلك اللحظة التي تحلم بها أي أم وهي أن ترى فتاتها الصغيرة وقد كبرت وارتدت الثوب الأبيض تخطو به برشاقة وتؤدة مختالة بحسنها بين الصفوف.

هل جزاءها أنها جددت ثقتها به ومنحته وإياها فرصة أخرى بعد أن كانت مصرة على الانفصال، هل جزاءها أنها لم تعني كثيراً بكونه قد يعيش الباقي من عمره مستنداً إلى عكازه حتى من الله عليه بالشفاء بعد امتثاله لفترة علاج لا بأس بها تحسنت عقبها حركة قدميه واستغنى عن عكازه الخشبية إلى الأبد، هل جزاءها أنها غفرت له غدره بها وخيانته لها وأقنعت نفسها أنه لن يقدم على ذلك مرة أخرى ولن يقوى عليه بعد أن لمس بنفسه كيف آذاها بفعلته تلك وكيف كان من الممكن أن يفقدها إلى الأبد فتوهمت أنه لن يجرؤ على تخيل خسارتها مرة أخرى وأنه سيحفظ نعمة وجودها بجواره بكل ما أوتي من قوة، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان كيف يكون جزاءه الغدر والنكران، كيف واتته الشجاعة على فعلها مرة ثانية وكيف اطمأنت نفسها إلى أنه لن يغدر بها من جديد.

دار شريط حياتها من حولها حاملاً صوراً من شبابها كان هو فيها إلى جوارها يبثها عميق حبه وكانت هي تؤمن بأن هذا الحب لن تهزه أو تزعزعه أعاصير الدنيا، صوراً كان بها صنوف النساء والفتيات من حولهما لكن ثقتها به كانت أقوى من أن تظن به ولو مجرد ظن فقد كانت تؤمن أنه لا يرى سواها كما هو حالها معه لا ترى سواه، صوراً كانت هي بها نجمة لامعة تعتلي أعلى قمة مجدها ونجاحها وكان هو إلى جوارها لا يرقى إلى نجوميتها أو نجاحاتها ومع ذلك لم يغير ذلك من نظرتها له في شيء فقد كان دائماً فارسها النبيل واليوم فقد الفارس نبله وتخلى عن كل صفات الفروسية، هي أيضاً فقدت كل شيء؛ أي شيء وكل شيء؛ وبلا عودة.

صرخت مرة ثانية وقد انتابها شعوراً طاغياً أن صنوف الظلم بالعالم أجمع قد تجمعت سوياً وأوقد عليها صهريجاً حتى انصهرت جزيئاتها والتحمت ببعضها البعض لتتجرعها هي في جوفها وحدها ويسكب الباقي منها مشتعلاً على روحها التي أنهكها الغدر ووأد بداخلها كل مظاهر الرغبة في الحياة، صرخت مرة ثالثة ورابعة وخامسة وامتدت يداها على الأشياء من حولها تركلها وتصفعها وتحطمها

تحطيماً وتصب جامات غضبها ولعناتها عليها.

***

بصباح اليوم التالي استيقظت مصر على خبر أحزن الجميع وأفزع الأوساط الفنية والإعلامية وباقي الجماهير المصرية على حد سواء فقد كانت الجرائد الرسمية جميعها تحمل عنواناً جانبياً في الصفحات الأولى كتب بخط عريض مشيراً إلى أن باقي تفاصيل الخبر قد فردت لها الجريدة زوجاً من الصفحات الداخلية لها وكانت العناوين تحمل في مجملها عبارات قاتمة مقتضبة انحصرت في كلمات تباينت صياغتها لكن لم يختلف مضمونها

«مصرع المذيعة اللامعة أسمى نصار بعد أن أقدمت على الانتحار»

«أسمى نصار تلقى حتفها بالسقوط من شرفة منزلها بالدور السادس بعد إصابتها بالاكتئاب الشديد»

«أزمة نفسية حادة تقضي على حياة أسمى نصار»

«انتحار المذيعة اللامعة أسرار وتفاصيل تجدها هنا»

***

(٣)
داليدا

نحن لا نملك رفاهية اختيار من نبقى معهم ومن نتركهم .. فأما من بقي معنا فهو قدرنا .. وأما من تركنا فلم يكن يوماً لنا

نوفمبر ٢٠١٥

- يعني حضرتك شايفة إن الوضع كده طبيعي ومفيهوش أي حاجة تقلق؟؟!!

قالتها وأنظارها بالاتجاه الآخر تعبث بحقيبة يدها قبل أن تجد غايتها أخيراً؛ أخرجت يدها من الحقيبة ممسكة بعلبة سجائر مربعة لها إطاراً ذهبياً وتحمل على سطحها علماً للولايات المتحدة الأمريكية، أمالت العلبة باتجاهها بعد أن دست سيجارة نحيلة بنية اللون بين شفتيها وقامت بإشعالها بالقداحة الواقعة بطرف العلبة العلوي وبمجرد أن فرغت من ذلك اتجهت بأنظارها مرة أخرى إلى تلك الجالسة في قبالتها والتي ظهرت عليها علامات الضيق وهي تحدج السيجارة بنظرة تنم عن عدم الرضا أعقبتها بأن رنت بطرف عينيها إلى المستطيل الذهبي الأنيق الذي علق بزاوية الجدار وحفرت عليه عبارة gnikomS oN بأحرف بارزة أعلى رسماً مصغراً لسيجارة تتوسط دائرة حمراء ويقطعها خطاً بنفس اللون مشيراً إلى كون التدخين بهذا المكان تصرفاً غير مقبول وغير مسموح به نهائياً.

انتبهت لهذه اللافتة لأول مرة منذ أن ولجت إلى المكان لينتابها الحرج الشديد لإجفالها ذلك وتجاهله عن غير قصد رغم وقوع عينيها عليه لأكثر من مرة لكن الشرود كان يمتطي عقلها آنذاك فرأتها مرات ولم يستوعب عقلها مفادها.

أسرعت تبحث عن منفضة تودعها تلك السيجارة التي اشتعلت سريعاً لتلقى حتفها أسرع مما توقعت لنفسها فلم تجد على المكتب أمامها ما يفيد بأن أحدهم قد جرؤ على الإقدام على هذا الفعل من قبل فتملك منها الحرج أكثر حتى أجبر عقلها على التوقف عن التفكير لحظات قصيرة قبل أن ترفق بها محدثتها وتقدم إليها طبقاً صغيراً من الفخار بعد أن أنحت فنجانه عنه لتقوم هي بدورها بإخماد نار سيجارتها ودفن إحراجها معاً على سطحه الأملس.

-أنا متأسفة .. مخدتش بالي فعلاً

-محصلش حاجة .. نرجع لكلامنا بخصوص كريم .. أنا كأخصائية نفسية .. أقدر أطمنك إن معظم ردود أفعاله إلى حد كبير عادية جداً ومفيهاش أي حاجة تقلق .. كريم محتاج مجرد احتواء مش أكتر

نكزت تلك الكلمة شيئاً ما بأعماقها فحادت باتجاه الحوار عنها لتجعل هذا الشيء الذي بدأ ينتفض بداخلها يلزم السكون مرة اخرى.

-طب وموضوع الكدب يا دكتور؟؟

ارتفعا حاجباها في دهشة قبل ان تخفضهما بابتسامة علت شفتيها: كدب !!! .. أنا فعلاً بستغرب لما بلاقي أهالي كتير بيظلموا ولادهم اللي لسه البراءة مليانهم ويتهموهم بالتهمة البشعة دي .. الأطفال كائنات لسه على الفطرة لا يعرفوا الانتفاع ولا المصلحة ولا حتى يعرفوا النفاق علشان يتعمدوا يكذبوا .. في فرق كبير بين الكدب وتعمد إخفاء الحقيقة والتضليل .. وبين اختلاق حكايات من محض الخيال .. الأولانية دي مبيوصلهاش الطفل إلا إذا كان بيتعرض لإرهاب وبيستخدم ضده عنف أو وسائل عقاب مبالغ فيها وده شيء مرفوض من أساسه في أساليب التربية لأن احنا كده بنشوه شخصيته مش بنقومها .. بنخلق إنسان بيعمل الغلط عنداً في اللي حواليه وبينكر الغلط ده برضه عنداً في اللي حواليه .. إنما حالة كريم دي حالة خيال واسع .. طفل بيحاول يخلق لنفسه عالم مش موجود في الحقيقة والعالم ده بيعيش فيه شخصيات بيحبها وبتحصل فيه أحداث تفاصيلها بتبسطه وتفرحه .. وأحياناً بيكون في العالم ده شخصيات برضه مبيحبهاش لأنه عالم متكامل بكل تفاصيله.

صمتت لحظات ثم أكملت: في معظم الأحوال الظاهرة دي بتبقى ظاهرة إيجابية لأن معناها إن الطفل ده موفور الذكاء وعنده ytivitaerc عالية بس للأسف برضه في حالات تانية بيبقى ده مؤشر لحاجة مش كويسة وهيا الهروب من الواقع أو عدم الرضا عنه ولو قارننا ده بحالة عدم الاحتواء اللي حاسس بيها كريم ممكن جداً يكون الحالة اللي هوا فيها دي هروب من واقع هوا مش حابه ومش عايزه

أسقط في يدها ووجدت أنه لا جدوى من المراوغة وتجاهل هذا الصوت الذي يوقظها يومياً من سباتها ويقوم بتعنيفها دون توقف.

ترددت قليلاً قبل أن تذعن بالقول في النهاية: يعني تفتكري يا دكتور إن موضوع انفصالي عن بابا كريم ليه علاقة بحالته؟

أومأت برأسها لتؤكد لها شكوكها وأكثر المخاوف إيلاماً لنفسها: أكيد آه .. ومش كده وبس موضوع إنكم نقلتو من البيت اللي كنتوا عايشين فيه والمدرسة اللي كان فيها .. ده برضه .....

قاطعتها قبل أن تلقي بالمزيد من اللوم على رأسها: بس موضوع البيت ده حضرتك مش متخيلة انا أد إيه راعيت أنه يكون مبسوط بالقرار ده أكتر مني أنا شخصياً ..

البيت فيه بلكونة كبيرة ومكان واسع علشان يقدر يلعب بالاسكودر بتاعه .. حتى أوضته خليت ديكورهاsrac gnicar زي ما طلب بالظبط .. ولعبه القديمة جيبتله غيرها لعب تانية كلها .....

قاطعت سرد حديثها: بدون مقاطعة لكلام حضرتك .. كل ده جميل بس مش معناه ابداً أنه راضي عن كل ده بالعكس الطفل كائن بسيط لسه نفسيته متملتش بالتعقيدات اللي ملتنا إحنا الكبار واللي سببها الأساسي الطموح والتطلعات.. إنتي ممكن تجيبي لابنك لعبة قيمة جداً وتلاقيه مش فرحان بيها ومتعلق بلعبة تانية قديمة ومكسورة بس بيحبها .. ممكن تخرجيه في مكان مبهر جداً بس ميتبسطش فيه زي مبيتبسط لما بيروح جنينة عادية مفيهاش أي عنصر جذب أو إبهار غير أنه حاسس بحريته فيها .. لاقي سعادته فيها .. كذلك بالنسبة للبيت والأوضة والمدرسة .. حضرتك حاولتي تعوضيه عن موضوع الانفصال بس بشكل مادي بحت .. لكن في الحقيقة التعويض ده عمله pag في نفسيته لأنك ببساطة خلعتيه من جذوره .. كريم بعد عن كل حاجة بيحبها وبيلاقي سعادته فيها بداية من باباه لحد أوضته ولعبه وسريره واصحابه في المدرسة واستبدل كل ده بحاجات تانية أفضل من وجهة نظرك انتي بس .. إنما من وجهة نظره هوا كطفل كلها حاجات مش بتاعته وغريبة عنه.

أسندت جبهتها إلى كفها وهي في حيرة حقيقية من أمرها فالتمست هي حيرتها وأرادت تهوين الأمر عليها: مدام داليدا .. الموضوع بسيط ومش محتاج منك التعب ده كله .. ابن حضرتك محتاج حد يحتويه .. يمكن باباه وهوا جنبه يكون قادر على كده .. بدون تدخل مني في تفاصيل شخصية أنا بستأذنك لو تقعدوا مع بعض وتحاولوا تتفقوا على مواعيد ثابتة كل أسبوع يقدر كريم يشوفه فيها ويقضي معاه أوقات طبيعية زي اللي بيقضيها أي طفل في سنه مع باباه .. هل ده ممكن في الوقت الحالي؟

هزت رأسها في حيرة وفركت جبهتها بأناملها: للأسف لأ .. باباه بعد الانفصال ساب مصر ونقل شغله لبلد تانية ومش منتظر يرجع تاني خلال سنة ويمكن أكتر

لاح الأسى على وجهها شفقةً بهذا الطفل الذي من الواضح أنه يتكفل سداد قيمة فاتورة خلافات والديه: حقيقي أنا مش عارفة اقولك إيه .. طب والدة حضرتك ووالدك موجودين؟

أومأت برأسها فلاح الأمل في ابتسامة محدثتها ذات الملامح الهادئة والوجه الخال من أية مساحيق للزينة والتمعت عيناها من خلف منظارها الطبي وهي تهتف: هايل .. طب ليه حضرتك متستقريش معاهم لفترة من الوقت لحد ما الولد يتعود على عدم وجود باباه .. توفريله جو أسري حتى ولو بشكل تدريجي يعني ممكن تبتدي بإقامة يوم أو يومين بعدها زيارة يومية لمدة كام ساعة وبعد كده ...

لم تمهلها الفرصة لتكمل عرض اقتراحاتها فقاطعتها بأسلوب مقتضب: معلش أنا آسفة يا دكتور بدون الدخول في تفاصيل الوضع في بيت والدي ميسمحش إن أنا أقعد معاهم .. الموضوع ده عمره مهيبقى ليه أثر كويس على كريم بالعكس أنا شايفة أن هيبقى تأثيره سلبي عليه.

عقدت حاجبيها وهي تقول بجدية: في الحالة دي الحمل هيبقى عليكي إنتي لوحدك وبس .. في معظم حالات الانفصال الطرفين بيبقوا قادرين يكملوا حياتهم بعد كده أو حتى يبتدوا من أول وجديد في علاقات تانية لأنهم بيبقوا آخدين قرار الانفصال بكامل إرادتهم وعن قناعة .. الأطفال بس هما اللي بيبقوا ضحية القرار ده لأنه دايماً بيبقى خارج عن إرادتهم وضد رغباتهم .. أنا آسفة طبعاً إني بقولك كلام زي ده لأن مش من حقي أتدخل في خصوصياتك بس المطلوب منك إنك تكوني في حياة ابنك أم وأب وجد وجدة وعيلة كاملة .. مطلوب تكرسي ليه الجزء الأكبر من وقتك وتحاولي تعوضيه بالوقت ده عن غياب باباه عنه اللي من الواضح أنه أثر فيه بشكل كبير.

كانت تهز رأسها في صمت ولا تدري حقاً ما الذي يتوجب عليها قوله حيال تلك المسئولية الضخمة التي تلقيها هذه السيدة على عاتقها والتي بدورها انتابها الحرج إزاء ذلك الصمت الذي لفهما لبرهة من الوقت فقررت أن تقطع صمتهما هذا بأن تنهي اللقاء بشكل عملي: مدام داليدا إحنا كده تقريباً خلصنا .. حضرتك ممكن تحددي مع السكرتارية بره ميعاد الsession الجاي بتاع كريم .. طبعاً لو حابة تعرفي الkcabdeef على التليفون أو الواتساب بعد نهاية الsession أنا معنديش أي مانع .. لو حابة تحددي ميعاد بعدها مع السكرتارية ونتقابل مع بعض في عدم وجوده زي النهاردة كده .. أنا برضه معنديش أي مانع

أجابت بسرعة: لأ أفضل آجي لحضرتك بنفسي

اومأت برأسها متفهمة حاجتها إلى سماع الكلمات بشكل مباشر لعل تأثيرها يكن أقوى وأكثر فاعلية: مفهوم .. في الحالة دي أستأذنك تحددي الميعادين .. بتاع كريم

وبتاع حضرتك دلوقتي مع السكرتارية .. وغير كده رقم موبايلي معاكي لو لاحظتي أي تصرف لفت انتباهك أو ضايقك بخصوص كريم ياريت تكلميني في وقتها علشان أبلغك إيه رد الفعل الأمثل في الموقف ده .. مدام داليدا للمرة الأخيرة بفكر حضرتك .. كريم معندوش أي مشكلة من أي نوع غير كونه محتاج جرعة احتواء مكثفة لأنه بيمر بمرحلة صعبة وحساسة جداً بيمر بيها أي طفل في سنه واتعرض لظروف شبه ظروفه ولو تعاملنا معاها صح يبقى عدينا جزء كبير من مراحل تكوين شخصيته كمراهق وشاب بعد كده .. أما بأه لو اغفلناها أو تعاملنا غلط .....

صمتت خشية أن تثير قلقها أكثر مما يبدو على ملامحها التي صارت أكثر توتراً عن ذي قبل فأرادت تهدئتها: إن شاء الله خير .. على ميعادنا زي ما اتفقنا ولو احتاجتي أي حاجة في أي وقت كلميني فوراً.

قامت تصافحها وتشكرها على اهتمامها البالغ ولم تنس أن تمر بالسكرتارية في طريقها إلى الخارج لتأكيد الموعد القادم.

للحظة وجدت نفسها شاردة لا تدري أي الطرق يجدر بها أن تسلك فجلست إلى مقود سيارتها تفكر لدقائق وتسترجع ما أملته الأخصائية النفسية على أسماعها، تعلم أنها محقة بكل حرف نطقته وتفوهت به لكن لا يوجد ما هو أسهل من الكلمات أما عن تنفيذ هذه الكلمات فقد يبلغ من الصعوبة حد المستحيلات، لكم اطلعت من قبل على كتب وموسوعات عن طرق التربية المثلى للأطفال لكن بأرض الواقع لم تستطع أن تنفذ حرفاً واحداً مما قرأته بالكتب وهذا ما كان يصيبها دوماً بخيبات الامل المتتالية فيجعلها ترمي الأمر برمته يائسة من تطبيق أياً مما تقرأه. أدارت المحرك وهي لا تعلم حقاً مسارها فتركت السيارة تقرر لها فوجدت نفسها لا إرادياً تنعطف جانباً مارة من أمام المول التجاري، حينها أدركت أن كل ما ألقته الأخصائية النفسية على مسامعها قد ذهب سدى فها هي في غضون دقائق ستتجه إلى محل لعب الأطفال المفضل لدى ابنها كي تنتقي له لعبة جديدة أيا كان ثمنها وكأنها تعوضه عن الساعات الماضية التي تركته خلالها بتلك اللعبة.

استقرت على طائرة تعلم أنها ستنال إعجابه فسددت ثمنها ببطاقتها الائتمانية وعندما كانت تهم بمغادرة المكان استوقفها صوتاً يهتف باسمها

داليدا أبو اليزيد

ضيقت من عينيها وهي تحاول فرك تلافيف ذاكرتها علها تسعفها باستحضار اسم صاحبة هذا الصوت الذي يبدو وجهها مألوفاً لكن لا يساعدها وهن ذاكرتها على تذكر كنيتها

-إنتي مش فكراني!! .. إخص عليكي .. أنا نهلة .. نهلة رفعت

أنعش الاسم مكاناً مدفوناً في غياهب ذاكرتها كان الاكسجين قد توقف على الأرجح عن الوصول اليه فتم ضخه به مرة أخرى لتتوالي صوراً من الماضي تبرق بمخيلتها كانت تحسب أن لن تتذكرها مرة أخرى.

-نهلة ازيك .. عاملة ايه .. معلش شكلك اتغير خالص عن زمان

قالتها في خجل وهي تجيل بنظرها في تفاصيل مكياجها الصارخ وخصلات شعرها المصبوغة بلون أشقر ذهبي وملابسها التي تكاد تتمزق عليها من المغالاة في ضيقها وسروالها الجينز الضيق ذو القطعات من أعلى ركبتيه والذي لا يتناسب قياسه مع زيادة الوزن الواضحة عليها فجعل مظهرها ملفتاً للأنظار.

ضحكت نهلة بصوت عال وهي تعبث بخصلات شعرها المموجة قائلة في زهو: أنا كده .. كل كام شهر أغير في شكلي .. إنتي عارفاني بزهق بسرعة.

ابتسمت مجاملة لها حتى ولو لم يرق لها هذا المظهر الصاخب فعلى الأقل تبدو صاحبته في غاية الرضا عنه.

كانت تهيئ نفسها لانسحاب سريع حين وجدت عيني محدثتها تبرق وهي تخاطبها بحماس مفتعل: إنتي عارفة إنك بنت حلال أوي .. بقالي أسبوع قالبه الدنيا على رقم موبايلك .. كنت هاموت واكلمك .. أقوم أشوفك حتة واحدة

لم يبد أن ذلك الاستهلال قد استفز فضولها فلم تلق بالاً لهذا الأمر الجلل الذي جعل صديقة سابقة انقطعت عنها أخبارها منذ ما يقرب من ثمان سنوات تتقصى أمرها فسلمت نهلة للأمر الواقع أنها أخطأت الشخص الذي تلجأ معه لهذا الأسلوب في المراوغة ودخلت في لب الموضوع مباشرةً دون اتخاذ أية مقدمات تشويقية فأخفضت من نبرة صوتها لتوحي بأهمية الحوار وسريته: إنتي عرفتي إن عمر طلق؟

اهتز كيانها كله حين ذكرت ذلك الإسم مقترناً بخبر كهذا لكنها حاولت أن تتمالك أعصابها وأحكمت السيطرة على أنفاسها وحاولت إخفاء الرعشة بصوتها قائلة بثبات تحسد عليه: وانتي عرفتي منين .. إنتي لسه بتكلميه؟

هزت رأسها نافية: لأ طبعاً .. من فترة كنت لقيت الأكاونت بتاعه على الفيس بوك وعملتله dda ومن ساعتها وانا بتابع أخباره فلقيته من قريب كاتب أنه رجع مصر وبعدها لقيته مغير Relatioship من Married لSingle ففهمت على طول أنه طلق مراته.

بالرغم من أن تلك الأنباء تلقى صداً قوياً لديها لكنها جاهدت لتظهر عكس ذلك وبالرغم من كونها تتوق لسماع المزيد إلا أنها وطأت فضولها بقدميها ووقف كبريائها حائلاً بينها وبين الرغبة في استقاء المزيد من المعلومات التي لم ولن تمل منها حتى لو أعيدت على مسامعها مئات المرات فمجرد الحديث عنه حتى ولو بلا شيء في حد ذاته متعة تحمل شغفاً غريباً ذو طابع خاص لكن برغم كل ذلك وجدت نفسها تقاوم لتتجاهل الأمر برمته وتصم أذانها عن صوت قلبها الذي صرخ في لوع طالباً الاستمرار في الحديث عنه وبدلاً من ذلك وجدت نفسها تخوض في أحاديث تافهة ليس لها علاقة به من قريب أو بعيد فوجدت رفيقة الماضي قد انتابها اليأس من الإبحار في تلك المنطقة التي حرمتها هي على نفسها فقررت أن تغير اتجاه دفة الحديث لتوجه قاربها باتجاهها شخصياً طالباً الرسو بقلاعه على شاطئ حياتها الخاصة: بس قوليلي إيه الحلاوة دي .. زي ما اكون لسه سايباكي إمبارح .. يعني لا تخنتي ولا بان عليكي الجواز والخلفة زي بقية الناس

حاولت أن تتجاهل المزيد من تعليقاتها المستفزة بشأن مظهرها الذي لا تدري أنه كان نتيجة لمشاكل صحية عانت منها منذ خمس سنوات وألزمها الطبيب إثرها الامتثال لنظام غذائي معين لا تحيد عنه وإلا عادت إلى معاناتها السابقة وقد يضطرها ذلك إلى الخضوع لجراحة طبية، لكن محاولاتها المستميتة لإيقاف الحديث عند نقطة آمنة لم تفلح فقد وجدت القارب يبحر باتجاه نقطة أخرى لم تكن لترغب في رسوه عندها إطلاقاً: وازاي كابتن حازم عامل إيه؟

قبل أن تهم بفتح فاهها لتجيبها: بشوف صوركم على الانستجرام مع بعض .. إيه ده .. بحس انكوا نجوم سينما .. شوفت صوركم في روما وباريس وفي نيويورك الصيف اللي فات .. واااو .. وهم بجد

استفزتها جملتها الأخيرة لأقصى حد فاندفعت تسألها مباشرة دون مواراة أو اتخاذ

أية مقدمات لائقة: لا والله .. وانتي ازاي عرفتي كل الحاجات دي عننا؟

ضحكت في بساطة: مانا بقولك يا بنتي .. عملت wollof لكابتن حازم على انستجرام ومن ساعتها وانا بعرف اخباركم من الصور اللي بينزلها .. ماهو محدش بيعمل عملتك دي .. اتجوزتي من هنا وقاطعتي الناس كلها من هنا .. انتي كنتي خايفة نخطف جوزك منك يعني ولا إيه ؟؟!!

ردت باندهاش وقد تفاجأت بوجهة النظر تلك التي لم تكن لترد على خاطرها حين اتخذت قراراً بالابتعاد: لا والله أبداً .. الموضوع مكانش كده خالص

لم يكن ليعنيها تبرير فعل ماض أكثر مما يعنيها الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن الأفعال الحاضرة؛ وربما المستقبلية: قوليلي بأه أخبار باباكي ومامتك إيه؟؟ واخواتك خلصوا دراسة ولا لسه؟؟ .. آه صحيح من حق ابنك بقى عنده كام سنة؟؟ .....

تباً للفضول مرة أخرى ومن جديد؛

إذا كان الطمع أكبر خطايا الإنسان والخطيئة التي تنسدل من تحت عباءتها مئات الخطايا لأن الطمع ببساطة هو الذي يدفع الإنسان ليأتي على أي شيء وكل شيء حتى نفسه من أجل الوصول إلى مبتغاه وتحقيق أطماعه، فإن الفضول هي الخطيئة التي تجعلك تقدم على إيذاء كل من حولك لتحتل بفضله مساحات من حياتهم الخاصة تتفقد خلالها كافة أسرارهم وتتبع عوراتهم وتثقلهم بالأسئلة التي لا يرغبون بالإجابة عليها فقط من أجل إشباع هذا الفضول الجائع، تتلصص طيلة الليل على حساباتهم الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي وتستحل متابعة أدق تفاصيلهم وهفواتهم وحالاتهم المزاجية اليومية لأجل أن تربط الجمل والتعليقات ببعضها البعض وتقارنها بالصور التي يقوموا بنشرها أو مشاركتها الآخرين فتمتلك بالنهاية سجلاً حافلاً ببياناتهم وأحداثهم الشخصية وتصير بفضل ذلك بنكاً متنقلاً لمعلومات تنفثها للآخرين بجلسات الغيبة والنميمة على الرغم من أن معظمها لا يخصك من قريب أو بعيد لكنه يخص إناس غيرك أسلموا نواياهم وتعاملوا بتلقائية شديدة وأغفلوا كونهم مراقبون ومحاصرون بأعين مرضى النفوس من الفضوليين. أقسمت على ألا تمدها بأياً من المعلومات التي تصبو إلى معرفة أكبر قدر ممكن منها بما يسمح به وقت هذا اللقاء الغير مرغوب باستمراره أكثر من ذلك؛ حتى معلومة انفصالها عن زوجها لن تشير إليها ولتجعلها تقدح زناد فكرها من أجل أن تتبع المزيد من أخبار زوجها السابق حتى تصلها تلك المعلومة بعد حين، لن

تجعلها تحرز نصرها على حساب أعصابها التي أرهقتها كثرة التساؤلات الغير مبررة ولن تجعلها تنتهي من حلقة الاستجواب تلك وهي هانئة البال؛ راضية عن أدائها وقد شعرت أنها ألمت بكافة الخيوط بين أصابعها خاصة أنها منذ صادفتها رؤياها وللعجيب في الأمر لم تتطرق بالحديث عن نفسها نهائياً ولا على سبيل التفاخر أو حتى دفعاً للملل بعد أن استعانت هي بالصمت والإجابات القصيرة المبهمة كملاذاً لها من شراسة هجمات الفضول المتتالية.

-طب بقولك إيه إنتي الاكاونت بتاعك على الفيس بوك إيه .. أنا دورت عليكي كتير بس معرفتش أوصلك .. أنا الاكاونت بتاعي هتلاقيه اسمه anA ed anoN وهتلاقيه طالعلك بصورة بنوتة صغيرة لابسة فستان أحمر .. لو انتي قافلة إن حد يضيفك ضيفيني انتي من عندك .. وعلى انستجرام الأكاونت بتاعي ٢٠٢٠anon .. ابقي برضه ادیني رقمك اللي عليه واتساب

قاطعتها قبل أن تخوض في مزيد من تفاصيل الشبكة المعلوماتية العنكبوتية التي تلملم خيوطها من ضحاياها الأبرياء عن طريق تتبع كافة وسائل التواصل المتاحة والممكنة لهم: لا أنا ماليش في الحاجات دي خالص الحقيقة

ارتفع حاجباها: معقولة !! .. إزاي !! .. إنتي مش متخيلة الفيس بوك ده بيضيع وقت أد إيه .. وانستجرام كمان .. لا بجد انتي فايتك كتير

تمتمت بداخلها أن أمثالك فقط هم من يصطنعون لنفسهم المتعة والتسلية من مراقبة حياة الآخرين ووضعهم تحت المجهر لكن لا رغبة لها في تلقين هذا الكائن الأخطبوطي الذي يمد أذرعه يفتش بها في خبايا الآخرين درساً في احترام الخصوصية وعدم التجسس فأقصى رغباتها بهذه اللحظة هي الفرار من تلك الأذرع التي تكاد تلتف حولها فتعتصرها لتستنزف منها المزيد من المعلومات

-بصي .. ادیني إنتي رقمك وانا هبقى اكلمك علشان احتمال أغير رقمي الفترة دي.

تظاهرت أنها تقوم بحفظ الرقم حتى تنجح محاولاتها في الإفلات من بين أنياب فضولها الشرس ثم أسرعت بتوديعها وأطلقت ساقيها للريح دون أن تلتفت خلفها خوفاً أن تجدها تتبعها لتقصي المزيد من الأخبار

بمجرد أن لامس جسدها مقعد سيارتها في مرأب المول التجاري أخذت تسترجع تفاصيل ذلك الحوار الذي لم تمر دقائق على انقضائه؛ ليس الجزء الخاص بالتحقيق المعلوماتي الذي خضعت له لكنه الجزء الخاص بالمعلومة الوحيدة التي استقتها عن

دون قصد من هذا اللقاء العابر.

أزاحت الستار عن منطقة مستترة بأعماق ذاكرتها فأخذت الصور تومض في عقلها في تتابع كأنها شريط سينمائي يعرض أمام عينيها، لقطات تجمعها بشاب وتبدو عليهما إمارات السعادة؛ أصابع متعانقة في حب وضحكات تنير الوجوه ونظرات مفعمة بالشوق وهمسات تحمل في طيها أسراراً لا يمكن أن يبوحا بها لغيرهما، ثم أسرع الشريط بالمرور حتى توقف وكأنه يعرض مشهداً سينمائياً تصوره كاميرا مثبتة في زاوية ما خلف رجل بأواخر الأربعينات يرتدي بدلة أنيقة ويضع ساقاً فوق الأخرى جالساً بارتياح شديد فوق مقعد مذهب انتشرت بأرجائه النقوش البارزة وأخرى محفورة بإتقان وغطت قاعدته ومسنديه قطيفة ذات لوناً أزرق داكناً ومطرزة بخيوط السيرما الذهبية.

لم يكن المشهد يعرض وجهه فقد كانت هي من ترقب هذا الموقف وقتها من خلف ستارة مخملية سميكة جعلت الجالسين لا يرونها بينما مكنتها هي من مراقبة المشهد واضحاً فعدا ظهر المقعد الفخم وطرف الياقات المنشاة لذاك الرجل كانت الأريكة الوثيرة المقابلة له يقتسمها رجلين أحدهما شاباً في أوائل العشرينات من عمره؛ وسيماً؛ طويل القامة ذو قوام رياضي مثالي؛ وجهه يميل إلى الاستدارة ويرتدي منظاراً طبياً أنيقاً لم يخفي شيئاً من اتساع عينيه وثبات نظراتهما التي وعلى الرغم من الثقة التي تملأها دوماً بدت وجلة بتلك اللحظة وهو يقوم بتوزيعها ما بين الرجلين؛ الجالس أمامه والآخر الذي يقتسم معه الأريكة والذي كان يتصبب عرقاً بدوره جراء تلك النظرات الثاقبة والمتفحصة التي أخذ غريمه على المقعد المقابل له في تسديدها إليه.

بدت الكثير من إمارات الطيبة على وجه الرجل ذو الرأس الأصلع والقوام الممتلئ بينما يحاول أن يكون ودوداً قدر الإمكان وهو يتجاذب أطراف الحديث مع مضيفه أما زوجته التي لم تستطع أن تخفي معالم الضيق من على ملامح وجهها فكانت تشعر باستياء بالغ وحرج شديد كون سيدة الدار فضلت موعداً آخر على مجالستهم والترحيب بهم ومن ثم صافحتهم بآلية حين وصلوا وما لبثت أن استأذنت للحاق بموعدها دون مراعاة لأصول الضيافة فالتزمت بدورها الصمت وقد امتلأت نفسها بالضيق والسخط وآثرت متابعة الموقف عن كثب دون التدخل فيه تاركة دفة قيادة الحوار لزوجها الذي أخذ يتفرع بالحديث في مختلف الأمور دون التطرق بشكل مباشر للموضوع الذي أتى به إليه حتى وجد الطرف الآخر يضيق ذرعاً من الدوران حول لب الموضوع عن بعد خشية الخوض فيه بشكل صريح فأشعل

سيجاراً كوبياً فاخراً وهو يقول بنبرة تحمل الكثير من التعالي: مقولتليش يا أستاذ رحيم شقة ابن حضرتك فين بالظبط؟

تلعثم الرجل وازداد تعرقه حتى بات جسده يلفظ العرق بجنون وبدون حساب: لا والله لسه يافندم في الوقت الحالي عمر ابني معندوش شقة

نفث دخان سيجاره بلا مبالاة: يعني أفهم من كده أنه لسه مستقرش على مكان معين يجيب فيه شقة؟؟

تردد قليلاً: هوا زي ما حضرتك عارف عمر لسه متخرج من الكلية ويا دوب بادئ يشق طريقه وانا لسالي كام سنة واطلع على المعاش وطبعاً وقتها هاخد مكافأة نهاية الخدمة .. والقرشين بتوعي على اللي هيحوشه عمر نقدر ندبأ مبلغ مش بطال يدفعو مقدم في شقة أو حتى ياخد بيه شقة إيجار جديد لحد ماربنا يكرمه

رجع بظهره إلى الخلف وضيق عينيه وهو يقول في لهجة مرتابة: قولتلي حضرتك شغال فين؟

-في وزارة الثقافة

-ولسالك كام سنة على المعاش؟

-خمس سنين تقريباً

بدا صارماً وهو يصطك أسنانه قائلاً: وحضرتك عايز ابنك يخطب بنتي خمس سنين يكون فيهم نفسه وتكون حضرتك طلعت على المعاش وقبضت مكافأة نهاية الخدمة اللي يا عالم هتكون كام وبعدها بقى يبتدوا رحلة التدوير على شقة

كان الحرج قد بلغ مبلغه من الرجل فأسرع يرتشف بعض قطرات من كوب الماء أمامه ثم ما لبث أن وضعه على السطح الرخامي للطاولة المذهبة مرة أخرى وهو يقول بتلعثم: مش بالظبط حضرتك .. يعني ممكن من هنا لحد منوصل للنقطة دي يتجوزوا معايا أنا ووالدته .. احنا شقتنا كبيرة .. حضرتك عارف شقق وسط البلد الشقة تساع عيلتين وتلاتة مع بعض .. وبعدين أنا معنديش ولاد غير عمر .. أخواته البنات مسيرهم للجواز وساعتها البيت هيفضى علينا احنا وهوا

اعتدل في جلسته وعدل من وضعية ساقيه فاستبدل واحدة بالأخرى ومال بجسده إلى الأمام ضاغطاً الكلمات من بين أسنانه: وانت داخل يا أستاذ رحيم انت وابن

حضرتك من باب الفيلا .. خدت بالك من الإسم اللي مكتوب على اليافطة برة؟؟!! .. أكيد خدت بالك مش معقول ميكونش لفت نظرك .. يعني حضرتك المفروض تكون عارف انت فين وابنك جاي يتقدم لبنت مين.

عاد بظهره إلى الوراء وأشعل سيجاراً آخر غير الذي أودعه منفضته منذ لحظات ثم أكمل بلهجة لامبالية: بص يا أستاذ رحيم أنا عندي ولدين .. لو ولد منهم جه في يوم يقولي أنا بحب واحدة وعايز اتقدملها هقوله يا ابني لو شايف إن مفيش تكافؤ بينكم انتم الاتنين يبقى بناقص أحسن علشان متبهدلنيش وتهزأني وتهزأ نفسك في بيوت الناس

قالها وأنهى اللقاء واقفاً ثم أتبع باقتضاب وبأسلوب جاف وهو يدير وجهه بالاتجاه الآخر قبل أن يختفي بالداخل في غضون لحظات: شرفت يا أستاذ رحيم

قاطع شرودها نفير سيارة متواصل بشكل هيستيري بعد أن أخذ صدى الجملة الأخيرة يتردد في عقلها بشكل متكرر فانتبهت للمرة الأولى منذ غادرت المرأب أنها تسير وعقلها غائباً عن إدراك ما يحدث من حوله فتلك المشاهد المتتالية التي زارتها من ماض ظنت أنها قد سلته أفقدتها التركيز بشكل تام فلم تنتبه كون الإشارة قد تغير لونها إلى الأخضر آذناً بالتحرك وهي التي قيدتها ذكرياتها وجمدتها في مقعدها فلم تنتبه لذلك ولم تبرح مكانها.

التفتت إليه حين مر بجوار سيارتها مصراً على أن يلقنها درساً في أهمية الانتباه والكف عن الشرود في الشوارع والطرقات وأغلقت زجاج نافذة سيارتها بوجهه وأدارت وجهها بالاتجاه المعاكس فطالما أنها لا تعرفه فلا يعنيها من يكون أو ما الذي يريد أن يلقيه على مسامعها فلعله يكون محقاً في حديثه الساخط فمن الممكن أن يكون في عجلة من أمره لأمر جلل واستفزته هي بتعطيلها إياه عن دون عمد.

المنطق يبدو غريباً عنك حين تتبادل المقاعد مع الآخرين؛

حين تتقمص أدوراهم وتنظر إلى الأمور من وجهة نظرهم هم؛

حين تحاول أن تتأمل أحوالهم من منطلق التماس الأعذار لهم وتقبل أفعالهم وردود أفعالهم أياً كانت من منطلق كونهم محقون؛

وقتها تشعر أن الجميع محق؛

حتى الذي يخطأ محق في خطأه؛

فهذا الرجل الذي وبخها منذ قليل محق في توبيخه إياها فلعله يسعف مريضاً أو يغيث ملهوفاً وتحول هي بينه وبين ذلك وهذا السائق المتعجل الذي يتميز غيظاً ويحرك يده من نافذة حافلته باتجاهها ليتخطى بها سيارتها محق أيضاً فهو يلاحق رزقه ويتحايل عليه بكافة السبل فيسابق الزمن من أجل حفنة جنيهات إضافية تمنحه ضمان البقاء هو وعائلته، أيضاً تلك الفتاة المرتبكة والتي تتردد في اتخاذ قرارها بعبور الطريق من عدمه وتقدم ساقاً ثم تأخرها حين حسمت أمرها أخيراً وقررت العبور في عجالة فوتت عليها هي الفرصة بمرورها من أمامها فعادت أدراجها إلى موقعها السابق، هي الأخرى محقة أيضاً حين حدجتها بتلك النظرة الحانقة فلقد فوتت عليها فرصة العبور ولعلها ترغب باللحاق بموعد تمتطي فيه قطار الحياة ليقلها لأحد محطاته التي قد تصادف بها تحقيق أحلامها التي انتظرتها لسنوات، أيضاً ذلك الشاب المتأنق في سيارته الرياضية محقاً في سرعته الجنونية فمازال بمقتبل العمر وإن لم يظفر بلحظات الإثارة في عمره هذا فمتى يكون ذلك والحياة تتربص به متخفية بأستار براقة من المرح والحماس لتكشف له عن وجهها الحقيقي في غضون سنوات وتفاجأه بأعبائها ومسئولياتها وأثقالها.

جميعهم محق في أفعاله وردود أفعاله؛ حتى هو؛ كان محقاً في ردة فعله ذاك اليوم حين كانت تهرول بأقصى ما تسمح به حدود المكان بأروقة تلك المستشفى حتى اصطدمت عيناها برؤيته خارجاً من إحدى الغرف، وجدته يقودها بنظراته الصامتة إلى نقطة قصية عن تلك الغرفة وحينما ابتعدا حتى وصلا نهاية الرواق أشاح بوجهه بالاتجاه الآخر متحاشياً النظر إليها، وقفت تلملم شتات كلماتها التي فرت جميعاً من على لسانها مجرد أن رأته وأخذت تعيد ترتيب الجمل التي تناثرت في عقلها ولم تسعفها حافظتها في استرجاعها واستعادة تفاصيل ذلك الحوار الذي أعدته لهذه اللحظة مسبقاً لتجده لحظتها ينظر إليها بملامح جامدة قائلاً في صرامة: إيه اللي جابك هنا؟؟!!

صعقها يومها أسلوبه الجاف الذي لم تعتاده من قبل لكن أعازت ذلك إلى الموقف العسير الذي يعايشه بتلك اللحظات فقد رحل هو ووالديه عن منزلها بخفي حنين بعد أن فاجأهم والدها بردة فعله الغير متوقعة وما لبث أن أوجعت الإهانة والده الذي لم يتحمل في سنه تلك أن يشعر بهذا الانكسار أمام ابنه الأكبر وزوجته فوجد ألماً غريباً يعتصر صدره في قسوة وفوجئ بنفسه يتصبب ليترات من العرق الغزير فنظر إلى ابنه بعينين واهنتين ليجد نظرة جزعة تقفز من مقلتيه حين شاهد امتقاع

وجهه واصفراره الشديد ووجده يمسك بجانب صدره الأيمن ويضم أصابعه إلى بعضها وكأنه يبحث عن موطن الألم ليقتص منه بينما لا يقوى على التفوه من شدة الأوجاع التي تجتاحه، حاول أن يتماسك لكن محاولاته لم تنجح كثيراً ففي نهاية الأمر تهاوى أرضاً مستنداً بالجزء الأكبر من جسده إلى ذراع ابنه.

لم يكن قد مر على تلك الواقعة سوى يومين فقط لكنها لم تستطع مقاومة رغبة جامحة عصفت بنفسها بأن تراه فقررت الذهاب إلى المستشفى التي يرقد فيها والده تحت الملاحظة بعد إصابته بتلك الذبحة المفاجأة لكن الشيء الذي لم تتوقعه يومها أن تكون مقابلته لها بهذا القدر من الجفاء.

-جيت أتطمن عليك يا عمر واتطمن على باباك

نظر إليها بنفس الجمود: مقولتليش ليه يا داليدا إن أهلك هيرفضوني .. خبيتي عليا ليه وسيبتيني على عمايا لحد مجيت لحد عندكم واتهزأت أنا وابويا .. مبسوطة دلوقتي .. شايفة أبويا حصلو ايه بسبب اللي عمله ابوكي فينا

نظرت إلى الأرض والدموع تترقرق من عينيها: أنا آسفة يا عمر .. أنا بس كنت خايفة لو عرفت .....

لم يمهلها الفرصة لتكمل: ومخوفتيش عليا ولا على شكلي قدام أهلي .. كنتي عارفة إن باباكي عمره مهيوافق بيا ولا بظروفي ومع ذلك حطيتيني قدام الأمر الواقع وسيبتيني أنا وشطارتي بأه يا أقنعه وتبقي كسبتي قضيتك يا مقدرش وتحاولي انتي معاه مرة تانية .. بس اللي مكنتيش تتوقعيه ولا أنا شخصياً كنت أتوقعه إن الموضوع يوصل للإهانة .. أبويا مستحملش أنه يتهان بالشكل ده .. خرجنا من بيتكم طب ساكت قدام عينيا

سكبت عينيها المزيد من الدموع وهي تحتضن كفه بيدها وتقول بنبرة رجاء: يا عمر أرجوك كفاية

صمتت للحظات قبل أن تقول بنبرة مفعمة بالصدق: أنا بحبك يا عمر

احتضن أناملها الممسكة به بكلتا كفيه واعتصرها بينهما بقوة: وانا كمان بحبك أوي أوي .. أكتر من أي حاجة ومن أي حد واكتر ما إنتي شخصيا ممكن تتخيلي

ظهر الارتياح على نظراتها قبل أن يتلاشى سريعاً عندما ترك يدها بعد أن احتواها

وشد عليها وكأنه يحتضنها بشدة قبل أن يودعها بشدة: بس خلاص كده

اتسعت عيناها تود لو تكذب أذنيها أو يخيب ظنها فيما يعنيه ويتضح أنه يضمر عكس ما يظهر.

-خلاص يا داليدا .. كل شيء قسمة ونصيب .. واحنا قسمتنا قفلت على كده

انهارت باكية غير مصدقة أن كل شيء على وشك الانتهاء بتلك البساطة: طب أنا ذنبي إيه؟؟!!

أظهر جلداً شديداً وهو يقاوم رغبته بضمها إليه: مالكيش ذنب .. بس مش هينفع .. كل مرة هشوفك فيها هفتكر إهانة ابوكي ليا ولأبويا .. مش هينفع بجد

-يعني إيه!! .. يعني انت عملت حساب لكرامتك اللي اتوجعت ومعملتش حساب الوجع اللي انا هبقى فيه وهعيش بقية عمري بيه .. طب هكمل حياتي ازاي وانت مش فيها!!

-صدقيني أنا موجوع زي ما إنتي موجوعة ويمكن أكتر بس كوننا نفضل مع بعض مش هيزود حاجة غير الوجع اللي هيزيد لما برضه في النهاية نسيب بعض

-طب وليه نسيب بعض؟؟

لم يجبها فنظرت إليه بتوسل كي يرد عليها بإجابة شافية تخذل توقعاتها المنكسرة بتلك اللحظة، ظلت لحظات تنظر إليه والدموع تترقرق من عينيها دون توقف ولما لم يجبها منه إلا الصمت آتتها إجابته في طيات صمته فأخذت تمعن النظر بملامحه لعلها تكون المرة الأخيرة التي تراه فيها وأخذت تتباطأ في الرحيل من أمامه لعله يعيد التفكير فيما تفوه به منذ قليل ويعتذر منها لتغفر له تسرعه ويستحلفها ألا ترحل.

طال انتظارها ولم يشفع لها تمسكها به حتى آخر لحظة رغم تخليه عنها ليجعله يغير من قراره؛ كما أنه أيضاً لم يقوى على الرحيل أولاً وكأن بداخله رغبة عظيمة في أن تتوقف عقارب الساعة عند تلك اللحظة طالما ما سيأتي بعدها لن تكون هي فيه.

طال انتظارها وثقل على نفسها ولا هو باقي معها ولا هو بمفارقها، في النهاية لم تجد بداً من الرحيل وإن كانت تبتهل إلى الله في قرارة نفسها أن يستبقيها ولو لثوان

فاستدارت تجر قدميها والخذلان رفيقها حتى عبرت الباب الزجاجي الفاصل بين الردهة والممر الخارجي، التفتت إليه رغماً عنها لتجده متجمداً في مكانه يحملق فيها غير مصدق أن النهاية قد أتت سريعاً هكذا وأنها لم تتجاهل رغبته في رحيلها وتظل معه رغم أنف كبريائه الذي سيتسبب له في خسارتها إلى الأبد.

دون إرادة منه أو منها اندفع كلاً منهما باتجاه الآخر لكن الباب الزجاجي وقف حائلاً دون بلوغ أحدهما الآخر وكأنه يذكرهما بأن الحواجز والسدود بينهما لاتزال قائمة ومهما أعياهما الشوق ولوع فؤادهما فلن يشفع لهما ذلك ليخلصا من لعنة الفراق التي علقا بها إلى الأبد.

***

أطفأت محرك سيارتها أسفل العقار الرمادي اللون، ارتقت الدرجات الرخامية العريضة قبل أن تستقل المصعد إلى الطابق السادس حيث الشقة التي انتقلت للإقامة بها، بالرغم من أنها قد بذلت جهوداً مضنية لتضفي طابع الحداثة على ذلك المنزل إلا أن العقار نفسه يحمل لمسات من عبق الماضي ولا يشبه بأي حال باقي الأبنية الشاهقة الارتفاع التي تنتشر من حوله فيبدو بينهم ككهل يصر على ارتداء بدلته كاملة ويحكم رابطة عنقه كشعار للأناقة والاحترام بينما كل من حوله تخلوا عن ذلك المظهر الكلاسيكي واستبدلوه بالجينز وما يتماشى معه من الملابس الحديثة.

دلفت إلى المنزل فوجدت الهدوء يلفه، رفعت صوتها تنادي ابنها فلما لم يجبها إلا الصمت دخلت تتفقده في غرفته لتجده نائماً بسلام بينما استقرت بجواره بنصف جسدها؛ امرأة في أوائل الأربعينات من عمرها ترتدي قميصاً مخملياً داكن اللون تركت نصفها السفلي متدلياً خارج الفراش في وضعية مؤلمة للغاية وعلى الرغم من تلك الزاوية المنفرجة التي كان قد اتخذها جسدها فإنها كانت تغط في نوم عميق، ترددت قليلاً قبل أن تهزها برفق لتتيقظ من سباتها مفزوعة ثم ما لبثت أن تبينت أنها سيدة الدار فأخبرتها بصوت خافت أنه قد خلد إلى النوم منذ ساعة تقريباً واعتذرت منها كون التعب قد أنهكها فلم تشعر بجسدها يتهاوى بجواره ثم استأذنتها في الرحيل.

قبضت على حفنة قليلة من الحبيبات الملونة الدقيقة وحررتها من يدها بالقرب من سطح الحوض الزجاجي العميق الذي امتلأت أرجاءه بالحياة فالأسماك الملونة التي تتخذه مأواً لها لم تكف عن الحركة يميناً ويساراً حتى دق جرس إنذار موعد الوجبة

الخاصة بهم مقترناً بحركة يدها بالقرب من سطح الماء فتدافع بعضهم خلف بعض إلى الأعلى ليلتهم كلاً نصيبه بينما أخذت تراقبهم بسعادة فهذه المخلوقات حتى وإن كانت لا تعرفها فهي تعرفهم جيداً وكما ينتظرونها ويحتاجون إليها تحتاج هي إلى رؤيتهم فتنفصل عن عالمها محاولة تخيل تفاصيل عالمهم البسيط وكيف هي حياتهم داخل هذا الحوض وما إن كانت بينهم لغة حوار مشتركة وما هي الموضوعات المطروحة للنقاش بينهم وأياَ منهم يحب الآخر ويأتلف بوجوده وأياً منهم ينفره فحتى لو كانوا في النهاية مجرد أسماك لكنهم أرواح والأرواح تتشابه فتتآلف وتنجذب إلى بعضها البعض أو تختلف فتتنافر وتبتعد عن بعضها البعض كما هو الحال مع أرواح البشر.

منحت نفسها مساحة من الفراغ المحبب إلى قلبها في قاع حوض الاستحمام بعد أن ملأته لأكثر من منتصفه بالماء الدافئ فقط ودفنت رأسها في أعماقه متناسية كم الذكريات التي تراشقت بنفسها اليوم، كانت تلك هي الطريقة المثلى التي تلجأ إليها لتتخلص من إرهاقها وهمومها وتعبها الجسدي والنفسي في آن واحد فتمكث تحت سطح الماء قدر ما تسمح بها سعة رئتيها ثم تنتزع نفسها انتزاعاً بعد أن ينتابها شعوراً بأنها قد أتمت المهمة المنشودة وتخلصت من كم التوتر الذي عصف بيومها وودعته وبشكل نهائي في أعماق المياه الدافئة.

جففت جسدها بالمنشفة القطنية العريضة وارتدت ملابسها تاركة الهواء يداعب خصلات شعرها المنسدلة في عشوائية فيتولى مهمة تجفيفه عنها غير مبالية بنصائح الأطباء بتفادي تيارات الهواء البارد بعد الحمام مباشرة فلا طاقة لها بحمل المجفف لإتمام تلك المهمة الشاقة التي لو لم تستسلم لتدخل المجفف بها بالنهاية ستظل قطرات الماء عالقة بخصلات شعرها إلى الغد.

كانت الساعة لم تتجاوز العاشرة بعد وقد بدأ الملل يعلن عن نفسه كشريك لسهرتها الليلة فامتدت يدها إلى الطاولة التي امتلأت أرضيتها بالجرائد والمجلات وعرفت من طريقة وضعهم أن يد أم شادي مربية ابنها قد سبقت يدها إليهم وطالعت على الأقل الجرائد لا لشيء الا لمتابعة أخبار الفن والفنانين وأخبار الحوادث كعادتها اليومية الأثيرة.

ألقت بنفسها على الأريكة العريضة بجوار الطاولة وأدنت المنفضة الكريستال منها بعد أن قامت بإشعال إحدى سجائرها، اخذت تدخن بانفعال وهي تتصفح الجرائد بشكل سريع وعنيف وكأنها تعاقب صفحاتها على أنها تزيد من قدر الملل لديها لا تدفعه عن نفسها حتى وقعت عيناها على باب «أريد عروسة .. أريد عريساً»

بذيل إحدى الصفحات.

كانت تقرأ وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة؛ ما هي الميزة السحرية للزواج والتي تدفع هؤلاء ليعرضوا أنفسهم كسلع بمواصفات خاصة يمكن أن تباع وتشترى؛ وكيف يستطيع أي شخص ان يقيم ذاته ويفند صفاته الشخصية بهذه الطريقة؛ بل كيف يستطيع الحكم على هذه الصفات بأنه قد يناسبها أو يتماشى معها تلك الصفات الموضحة أو غيرها في شريك آخر.

ما الميزة السحرية للزواج التي تدفع «هي» تلك الآنسة الطويلة البيضاء الممتلئة القوام الجامعية التي تعمل بوظيفة مرموقة وتنتمي إلى أسرة عريقة إلى أن تعلن استعدادها للمشاركة في الأثاث أو أن تتحمل تكلفته بالكامل وأنها سوف تشارك أيضاً في مصروف البيت من أجل الزواج، ما الميزة السحرية في الزواج التي تدفع «هو» ذلك الدكتور الجامعي الأرمل الذي بلغ الثامنة والستون من عمره للبحث عن أرملة أو مطلقة من سن مناسب وتقدس الحياة الزوجية ليتخذها شريكة له بمنزله المؤثث بالكامل ويقع بحي راق على حد قوله؟

أخذت تتنقل ما بين «هو» و «هي» وتحاول أن ترسم صورة في مخيلتها لكل «هو» و»هي» من أولاء ومازال السؤال يتردد في أعماقها لماذا يريدون الزواج؟ لماذا يريد هؤلاء الذين قد تجاوزوا الستون الزواج؟ هل يريدونه ليكون هناك من يشاركهم معاناتهم وهواجسهم وأمراضهم؟ أم أنهم يرغبون به خوفاً من أن يعيشوا وحدهم؟ أم خوفاً من أن يموتوا وحدهم؟ أم يرغبون به هرباً من الوحدة في حد ذاتها؟؟

حين دأبت تذكر الوحدة شعرت بغصة في حلقها وخشيت أن تفر دمعة هاربة من عينيها فنفضت الجريدة عنها وأودعت سيجارتها المنفضة ثم رفعت هاتفها تتفقد حافظة الصور به متجولة بمحتواها حتى توقفت عند صورة زفاف تبدو فيها عروس حسناء وبجوارها شاباً متأنقاً بالغ الوسامة، كانت ملامحها لم تتغير كثيراً عن تلك التي تراها في الصورة الصامتة بيدها، بعض الاختلافات التي لن يلاحظها شخصاً على وجه الخليقة سواها، فهي تعرف جيداً كيف ترك الزمن توقيعه على ملامح وجهها وجسدها حتى لو كانت للثلاثينات رونقها وأناقتها فإن العشرينات لها سحرها وجاذبيتها وتلك الروح المتقدة التي تخبت نيران اشتعالها عاماً بعد عام كلما تقدمنا بالعمر.

تأملت الصورة مرة أخرى ثم ابتسمت بسخرية مريرة وعلى طريقة «أريد عروسة .. أريد عريساً» شرعت تسرد تفاصيلها في تجويف صمتها.

هي: متوسطة الطول – بيضاء – رشيقة – ذات شعر كستنائي ناعم متوسط الطول – لها عيون رمادية ناعسة – تندهش عندما تعرف أنها في الثانية والثلاثون من عمرها وتصيبك الدهشة أكثر عندما تعلم أنها أم لطفل في السابعة من عمره – تعشق السفر لكن لا تجد من يسافر معها – تعشق الخروج لكن لا تجد من تخرج معه – تعمل في مجال حقوق الإنسان في وظيفة مرموقة - ليس لديها أي رغبة في مشاركة الحياة مع آخر – ليس لديها أي رغبة في الحياة من الأساس.

هو: متوسط القامة – عريض المنكبين – رياضي القوام – شعره يميل إلى اللون الرمادي أكثر منه أسوداً – أنيق - في الاثنين والأربعون من عمره – طيار – يحب العمل – يعشق العمل – يقدس العمل – يحب نفسه – يعشق نفسه – يقدس نفسه – متعدد العلاقات النسائية والنزوات العابرة – ليس لديه أي رغبة في تحمل مسئولية أو أعباء الزواج أو الأبوة

تساءلت في حيرة دون أن يتجاوز صوت السؤال حلقها؛ هل أنصفته حين وصفته أم جارت عليه أم أنها هي من جير عليه، عندما تطالع صورة مماثلة من صور الزفاف تخص أشخاصاً آخرين ترى نفس النظرة في عيني كل رجل، نظرة الانتصار والظفر، نظرة من يكافئ نفسه ويهنئها على نجاحها في إتمام المهمة، نظرة صياد حاك لفريسته المكيدة وأوهمها أنها ستصبح أسعد مخلوقة على وجه الأرض فور أن توافق على ربط مصيرها بمصيره لتفاجئ أن السعادة من وجهة نظره كانت وقتية مجرد حافز مقترن باستحواذه عليها وطالما أحكم الاستحواذ انتفت كل أسباب السعادة وانمحت وتلاشت مع كل وعوده البراقة بالحياة التي لن يراودها فيها حزناً ولا دمعاً، تمام كتلك الصورة التي ترى فيها أجدادنا في العهد السابق وقد جلس كل منهم يوم زفافه على مقعد منتشياً وواضعاً ساقه فوق الأخرى ووقفت العروس الشابة المسكينة خلف ذلك المقعد مستسلمة لمصيرها الذي تعرفه منذ البداية وهو ما أبلغها به من خلال تلك الصورة، أنا أجلس لأستريح وأنت تقفين حتى أمل من الراحة فربما أتعطف عليك بالقليل منها، لكن لأن الزمان قد تغير فتغيرت خطط الرجال ولم يعد الإعلان عن نواياهم بمثل هذه الصراحة وإنما اتخذ صوراً أخرى تتمثل في الكلام المعسول والوعود البراقة التي بالنهاية لا تفضي إلا لنفس النهاية؛ أريكة باردة يتقاسمها شخصين صامتين يلهو كل منهم بهاتفه دون أن يعير انتباهاً لوجود الآخر.

اتجهت إلى الشرفة محاولة استثمار أكبر قدر ممكن من الفراغ في لا شيء حتى لا يقتلها الملل أو يجهز على أنفاسها الصمت المطبق الذي يسكن جنبات المنزل.

أخذت تتأمل من شرفتها الواسعة ذلك القصر الشامخ وقد تراقصت حوله أضواءاً مبهرة ذات لوناً ذهبياً متلألئاً فأضفت عليه مزيداً من الفخامة والروعة، كان ليلاً يبدو مختلفاً تماماً عنه نهاراً فعلى قدر ما يبدو المشهد رائعاً ومثيراً للبهجة والعظمة ليلاً على قدر ما يبدو كئيباً مقفراً نهاراً وكأن أستار الليل قد أخذت على عاتقها مهمة إخفاء عيوب وتشوهات أنفسنا فتضفي علينا القليل من الزينة لنصبح إناساً غير الذي كنا عليهم صباحاً وسرعان ما تشرق الشمس نهاراً لتكشف الأستار عن هموم تنكرنا لها ليلاً وتبرأنا منها لكن النهار أتى ليكشف الستر عن كل ما نحاول إخفاءه أو احتوائه في أنفسنا فتسطع أشعة الشمس على العيون السهدة والجفون المنتفخة والوجوه الشاحبة.

أحد زملائها بالعمل قال لها يوماً جملة لن تنساها؛ فحين كانت بباريس وأبهرها بشدة مشهد برج إيفل ليلاً وخلب لبها وكانت تتوق لتراه نهاراً فصدمتها رؤيته دون الأضواء المبهرة لتجده عادياً بالصباح ولم تجده بكل هذا القدر من الروعة التي شعرت بها حين رأته ليلاً وقتها أخبرها هذا الزميل بأن باريس عاصمة؛ والعواصم كالغواني تتزين ليلاً لعشاقها الذي لا يبخلون عليها بكل ما هو غالي ونفيس لكن نهاراً لا يوجد من تتزين له ولا يعنيها الكشف عن وجهها القبيح لرواد النهار من الأشقياء والكادحين العاملين الذين لا يملكون لها مالاً ولا يتغنون لها بالعشق كرواد الليل.

كانت على وشك مغادرة الشرفة حين اصطدمت قدمها بصندوق خشبي كبير ألقى بعدم اهتمام أرضاً ومن الواضح أن تلك هي المرة الأولى التي يلفت فيها ذلك الصندوق أنظارها إليه، انحنت تتفحص محتواه فوجدت فيه أشياءاً تخص طفولتها وأخرى تخصها وهي مراهقة ووجدت أيضاً شيئاً أحيا بنفسها حنيناً من نوع آخر، خليط من الفرحة والحزن اجتاح نفسها حين أخرجت ذلك الكمان من صندوقه الجلدي الأسود وأخذت تنفض عنه بقايا غبار سكبها عليه الماضي، أراحته على كتفها بعد أن داعبت مفاتيحه لتتأكد من ضبط إيقاع نغماته ثم سحبت قوسه ملامساً أوتاره الأربع لتسترجع به حقبة زمنية من عمرها تاهت منها في زحمة تفاصيل حياتها.

وقفت منتصبة في شرفتها والهواء يجد لنفسه ممرات عدة بين خصلات شعرها التي تتطاير في قوة بينما أغمضت عينيها وقد تحفزت كل ذرة في كيانها لتشدو بهذا اللحن الضائع في غياهب الماضي، كانت أصابعها تعمل في آلية مندمجة مع الموسيقى وحركة القوس صعوداً وهبوطاً لا تتوقف ولو للحظة وضوء القمر المكتمل

من فوقها ينعكس على القصر في مواجهتها صانعاً من ألحانها شيئاً أشبه بالموسيقى التصويرية لمشهد سينمائي كلاسيكي وكأن القصر يروي للمحيطين ما شهده من سالف العصر والأوان.

استمرت في هذا الاندماج لا تدري لكم من الوقت ظلت هكذا حتى توقفت رغماً عنها عندما هاجمتها ريحاً قوية لا تعرف من أين مصدرها؛ صحيح أنه الخريف لكن رياح الخريف دائماً رياح صديقة تداعب في رفق لتنتشي الأرواح بمداعباتها، لكن هذه الريح ليست صديقة بأية حال ولم تسبب لها انتشاءاً بل على العكس انقبضت مشاعرها حين مرت بها لأنها كادت أن توقع بها أرضاً من شدتها.

توقف انسياب اللحن عند هذا الحد فقد انتابت جسدها القشعريرة إثر مباغتة هذه الريح لها وشعرت وكأن شيئاً أشبه بالصدمة هزها واصطدم بها ثم اجتاحها، اخترقها وعبر من خلالها؛ فقد اهتز جسدها كله قبل أن تمر هذه الريح الموجهة محملة برائحة تشبه رائحة اللحم المحترق من بين يديها وأرجلها ولا يتبقى منها سوى تلك البرودة وذلك الزمهرير الذي اعتلى جسدها وجعل شعيراتها تنتصب. أعادت الكمان إلى سابق عهدها في الحقيبة الجلدية وأغلقتها بإحكام وكأنها كنزها المفقود الذي عثرت عليه بعد سنوات ثم وضعتها بعناية بأحد الرفوف الخشبية العريضة المعلقة على الحائط أمامها حتى تستطيع الوصول إليها بسهولة، دلفت إلى الداخل بعد أن أحكمت إغلاق مزلاج الباب الخاص بالشرفة خوفاً من أية هجمات مرتدة لتلك الريح المواتية حين ارتأت أن الوقت قد آن للخلود إلى النوم. كانت بطريقها بالفعل إلى الداخل عندما استوقفها مشهداً جعل الدماء تتجمد في عروقها ووضعت كفها على فمها لتمنع شهقة تكاد تتجاوزه أو إن صح التعبير هي صرخة وليست بشهقة؛ فما رأته أمامها قد هالها بمعنى الكلمة فها هو الحوض الذي كان يعج بالحياة منذ دقائق قد زحف الموت على كل مظاهر الحياة به وصرعها فلم تصدق عينيها وهي التي كانت تمد يدها منذ قليل بالطعام لتلك الأفواه الصغيرة الجائعة وتراها الآن وقد سكنت إلى الأبد وطفت على سطح الماء مستوية على جوانبها وقد أصابها بعض الانتفاخ إثر مفارقة الروح لها.

رجعت بجسدها إلى الوراء حتى اصطدمت بالحائط خلفها ورغماً عن مقاومتها انسالت العبرات فقد كانت تحب ذلك الحوض بكل ما يحتويه وكذا ابنها الذي تحمد الله كونه نائماً بتلك اللحظة ولم يرى ذلك المشهد القاسي بعينيه لكن ما يجعل عقلها يكاد يتوقف هو كيف ولما ومتى، كيف ماتت الأسماك جميعها هكذا؟ ولما وقد أعطتهم حصتهم من الطعام الوفير؟ ومتى وقد كانوا يعبثون ويلهون في

مرح منذ دقائق قليلات؟.

لم تجد بداً من الاستسلام للأمر الواقع؛ عل تياراً كهربائياً ارتفعت موجاته السارية بالموتور الخاص بتوليد الأكسجين داخل الحوض فجأة دون أية مقدمات فصعقتهم جميعاً بلا رحمة، لكن الأهم من مسببات الكارثة هو كيف ستعالجها.

قامت على الفور باتخاذ خطوات جدية بمحو أثار كل ما حدث سريعاً؛ فانتشلت الجثث وقلبها يعتصر ألماً وأفرغت المياه التي لوثتها أثار الاحتضار ونظفت الحوض وطهرته ليستعد لاستقبال زوار جدد بالصباح حسبت أن تكون موفورة الحظ فتستطيع الإتيان بهم قبل أن يستيقظ ابنها ويكتشف ما حدث.

كانت خيوط النهار قد غزت عنان السماء عندما كانت توشك على الانتهاء من تبعات ذلك العمل الشاق ولم تنسى أن تتخلص من القمامة التي تحوي كل الأدلة الجنائية على ذاك الحادث بالخارج، ألح عليها النعاس لتريح جسدها حتى ولو لساعة واحدة فقط فضبطت ميقات منبهها ليوقظها مبكراً وأرسلت رسالة نصية لشخص ما ترجوه أن يحادثها بمجرد أن يستيقظ لأمر في غاية الأهمية.

بمجرد أن داهم النعاس جفنيها انتفضت خلاياها إثر سماع ارتطام هائل بالطابق العلوي، تكرر الارتطام بشكل جنوني كاد يصم أذنيها، لم يطل الأمر كثيراً فقد استغرق دقيقتان على الأرجح لكنهما كانتا كفيلتان بأن يورثاها صداعاً شديداً يشج رأسها فدعت الله أن يرحم عذابها ويرزقها النوم حتى ولو لدقائق.

قبل أن يتولى ميقات هاتفها مهمة إيقاظها كان اتصالاً يلح عليها بالصباح الباكر بعد ما يقل عن ساعتين من خلودها للنوم ففتحت عينيها بصعوبة لتجد أن المتصل هو نفس الشخص الذي رجته أن يحادثها فور استيقاظه والذي لم يكن سوى أحد أصدقاء والدها ويقع بمنزلة الأقرباء المقربين بالنسبة للعائلة.

كان فزعاً للغاية حين صادفت عينيه رسالتها فقد حسب أن مكروهاً قد أصاب أحد أفراد عائلتها لكنها طمأنته واعتذرت منه عما تسببت فيه من سوء ظن بالأمر وأخبرته بما حدث البارحة وأنها تطمع في كرم أخلاقه في أن يقابلها مبكراً في محل عمله حيث يملك متجراً كبيراً للحيوانات الأليفة والطيور وأسماك الزينة ليساعدها في انتقاء أسماكاً تشبه تلك التي لاقت حتفها مساءاً بأسرع وقت ممكن وقبل أن يستيقظ ابنها.

رحب بشدة بذلك وأخبرها أنه سيكون في انتظارها في غضون ساعة من الآن ورجاها ألا تتأخر فهو سيفتح باكراً من أجلها ثم ما يلبث أن يترك المتجر لينهي بعض المهام الصباحية قبل أن يعاود فتحه مرة أخرى بميعاده التقليدي، عبرت له عن جزيل ووافر شكرها قبل أن تقفز من فراشها وتقوم بأجراء اتصالاً آخر بالمربية التي تتولى مهام رعاية ابنها أثناء غيابها تستحثها على الإبكار في المجيئ حتى يتسنى لها أن تنفذ ما انتوت عليه دون أن يثير ذلك أو يلفت انتباه طفلها الذي سيتغيب عن المدرسة اليوم انصياعا لأوامر الطبيب الذي نصحها بذلك حتى يتعافى سريعاً من أثار نوبة الإنفلونزا التي أصابته منذ يومين.

قبل أن ترتدي ملابسها استسلمت لمجفف الشعر على عجالة وهي تصب جامات غضبها على شعرها الندي الذي يتآمر دائماً مع عنصر الوقت من أجل استنزاف المزيد من دقائقه مكيدةً بها.

لم يمر قرابة الساعتين حتى كانت الحياة تدب من جديد في الحوض الزجاجي، استيقظ ابنها وهي على وشك الانتهاء من عملها فاستفسر عن ذلك الارتباك الذي يجده في محيط حوض الأسماك وبررت هي ذلك كونها وجدت المياه ليست على ما يرام فقررت تغييرها بأخرى صالحة خوفاً على حياة تلك الأسماك، تنفست الصعداء حين وجدته قد تقبل الأمر ببساطة وانشغل بأمر الطائرة التي أحضرتها له بالأمس وتفاجئ هو بوجودها تواً.

بمجرد ما أن اختفى من أمامها وذهب ليغسل آثار النوم عن وجهه انتهزت هي الفرصة لتنسحب سريعاً حتى لا تتأخر عن عملها أكثر من ذلك وأوصت المربية بإعطائه الدواء في موعده وإقصاءه عن تيارات الهواء بردهة المنزل كما أوصتها بألا تخبره بأياً مما حدث ورجتها أن تراقب حركة الأسماك بين الحين والآخر خشية أن يحدث أمراً آخر يهدد أمن وسلامة تلك الكائنات الضعيفة.

مرت الساعات ببطء شديد ما بين ملل مهام العمل التي لا تنتهي ولا تتغير أنماطها فتشعر معها وكأنك آلة أو ترساً من تروس منظومة روتينية بالية لا يحق له الدوران خارج محورها وإلا لفظته المنظومة خارجها بلا رحمة فأخذت تحصي الدقائق والساعات في ضجر حتى حصلت على حريتها من قيود العمل بمجرد أن أعلنت عقارب الساعة تمام الخامسة مساءاً.

***

كان المقطع يتكرر من بدايته كلما انتهي بشكل استثار أعصابها فهبت عن أريكتها كي تنهي الأمر قبل أن يصيبها انهياراً على أثر هذا التكرار المستفز، فوجئت به مكفهراً؛ يبكي بحرارة في صمت وهي التي حسبته يعيد هذا المشهد من الفيلم الكرتوني على سبيل التسلية أو على سبيل مضايقتها، لكن ما كان يفعله في هذه اللحظة تحديداً كان تباكياً على حاله من أجل مواساة نفسه.

-إيه يا كريم يا حبيبي بتعيط ليه؟ مالك في إيه؟؟؟

قالتها بجزع حقيقي فقد كان يتحاشى الاحتكاك بها منذ عودتها من الخارج وعللت هي ذلك كونه يلهو على حاسوبه الشخصي، لكن تجاهله إياها مقترناً بتلك الدموع الحارة جعلها توقن أن هناك شيئاً ليس على ما يرام.

-إيه يا حبيبي مبتردش على مامي ليه ؟؟

كررت سؤالها حين وجدته لا يجيبها ولا ينظر باتجاهها فالتفت إليها بوجهٍ عابس وعينين دامعتين: زعلان

-زعلان ليه يا حبيبي .. احكي لمامي وقولها انت زعلان من إيه

-زعلان علشان سيمبا باباه سابه زي ما بابايا سابني

ألجمها رده؛ على الرغم من أنها كانت تحفظ ذلك المشهد من كثرة ما شاهدت هذا الفيلم معه مراراً وتكراراً إلا أن مشهد فراق سيمبا لوالده بعد أن أتى عليه القطيع كان له أثراً بالغاً في نفسه في الوقت الحالي فشتان ما بين أن تشاهد الأمر وهو لا يعنيك في شيء وبين أن تعايشه في الواقع ويتأثر حالك به فترى في الشاشة تجسيداً لمعاناتك الدفينة التي لا تقوى على التعبير عنها بالشكل الذي يتوافق مع مقدار الألم الذي تشعر به.

-كريم يا حبيبي .. انت عارف إن بابا سيمبا مسابوش .. هوا مات علشان كان بينقذه

-بس أنا بابايا مماتش .. بابايا عايش بس سابني علشان مبيحبنيش .. مش عايزني معاه علشان بعمل دوشة كتير وبضايقه

ضمته إلى صدرها وهي تقاوم دموعها: متقولش كده يا حبيبي .. بابي بيحبك أوي بس انت عارف شغله .. هوا بيسافر كتير طول الوقت ولما بيرجع بيجيبلك لعب

كتير ولبس جديد .. صح ولا مش صح يبقى ازاي مبيحبكش

-طب ليه المرادي مسافر بقاله كتير ومبيرجعش .. وليه احنا سيبنا بيتنا اللي فيه بابي ماهوا لو جه من السفر دلوقتي مش هيلاقينا ومش هنعرف نشوفه

المزيد من التساؤلات التي لا يوجد لديها إجابات لها؛ فهذا الطفل ذو السبع سنوات لن يستطيع عقله الغض استيعاب فكرة استحالة العيش بين زوجين واختيارهما هما الاثنان وبكامل إرادتهما الانفصال عن طيب خاطر.

لن يستوعب فكرة أن بعض الأباء لديهم رصيد كاف من الأنانية يجعلهم يحبون أنفسهم أكثر من أبنائهم ويفضلون مصلحتهم الشخصية عن مصلحة أبنائهم.

لن يستوعب أن بعض الآباء ترهقه فكرة الأبوة وتجعله أعبائها يشعر بالقيود تكبله فيجاهد بكل ما أوتي من قوة لينال حريته من تلك القيود الغالية.

لن يستوعب أن بعض الآباء ينظرون إلى كلمة «بابا» على أنها مزيد من السنون تضاف إلى أعمارهم فيكهلون قبل الأوان لذا يتحررون من ذلك اللقب ويخفونه طالما واتتهم الفرصة لذلك خاصة إذا كان لديهم نقاط ضعف مع أي حضور نسائي يجعل لفظهم لهذا اللقب أشبه بالتنصل من تهمة مشينة منسوبة إليهم.

-بص يا كريم .. بابي مسافر بقاله كتير علشان عنده شغل كتير أوي وهيسافر بلاد كتيره واحنا سيبنا بيتنا اللي فيه بابي علشان هوا مش موجود هناك .. كمان البيت هناك بعيد أوي عن شغلي واحنا لو فضلنا هناك كنت هتأخر عليك كل يوم أكتر .. عمتاً يا سيدي متقلقش أنا كتبت لبابي العنوان بتاع البيت الجديد علشان أول ميرجع من السفر يجيلنا على هنا على طول

-طب هوا ليه مبيتصلش بينا؟؟؟

لماذا يكثر الأطفال من علامات الاستفهام التي لا إجابة لها؟

هل لأنهم يمتلكون جرأة وشجاعة يفتقدها البالغون فتجعلهم يخوضون في المواضيع الشائكة دون حرج؟

أم لأن لديهم رغبة قوية في استكشاف العالم من حولهم وتوسيع مداركهم باكراً فلا يبالون بنوعية الأسئلة التي يلقونها على الأكبر منهم سناً طالما في اعتقادهم المحدود أن كل من فاق طوله عدة أقدام يكون لديه حصيلة معلوماتية هائلة تجعله يجيب

على أياً من أنواع الأسئلة التي تطرح عليه.

-هيتصل يا حبيبي .. هيتصل بس لما يبقى موجود في مكان فيه شبكة تليفون أو إنترنت .. إنت عارف إن بابي طول الوقت بيبقى سايق الطيارة .. هوا أول ميوصل بلد فيها شبكة هتلاقيه بيكلمنا على طول

شعرت بالرضا يتسلل إلى ملامحه الطفولية البريئة فتركته لخياله ينسج له مغامرات والده حول العالم كما يحب أن يتخيلها وفرت هي من أمامه قبل أن يقوم بطرح المزيد من التساؤلات بعد أن اطمأنت أخيراً لكونه قد ارتضى لنفسه منها وعداً باتصال والده قريباً.

أغلقت باب غرفتها بإحكام قبل أن تقوم باتصالاً تليفونياً ولما وجدت الرد الآلي يخبرها باستحالة التواصل مع الرقم المطلوب في الوقت الحالي مع إمكانية ترك رسالة مسجلة أخذت نفساً عميقاً واستجمعت شجاعتها وهي تقول في آلية: هاي يا حازم ازيك .. من فضلك لما توصلك رسالتي تكلمني ضروري .. كريم حالته وحشة جداً ومحتاج يسمع صوتك .. أرجوك يا حازم تحاول تتصل بيه في أقرب وقت ممكن

أغلقت الاتصال الذي تعلم أن لا جدوى منه فقد مر قرابة الشهرين منذ أن وقع الطلاق بينهما ولم يحاول رؤية ابنه أو الاتصال به طوال تلك الفترة وهو أعلم الناس بتعلقه الشديد به.

حقاً هي في مأزق حقيقي ووضعتها الظروف ما بين المطرقة والسندان فما بين احتمال حياة زوجية تعيسة تكبلها فيها قيود الزواج وتحكم الإغلاق عليها فيصبح مجرد التفكير في الإفلات من تلك القيود إثماً؛ والنفور من شريكها إثماً، وما بين أن تحيا بكرامة بعيداً عن ذلك الشريك الذي لم تعد تحمل له أية مشاعر وكذا الحال بالنسبة له فماتت مشاعره تجاهها وصار يحييها بأخريات غيرها.

كانت على يقين من ذلك لكن كبرياءها كان يحتم عليها دوماً تجاهل تلك الحقيقة القاسية حتى جاء اليوم الذي يخبرها فيه أنه قد حصل على عرضاً مغرياً للعمل خارج مصر فأخبرته أنها لا تستطيع التخلي عن عملها كما أنه سيصبح من العسير عليها الانتقال للخارج والمعيشة وحدها حتى وإن كانت فعلياً وحيدة معظم الأوقات فعزائها أن عائلتها وأقربائها وزملائها في الجوار وتستطيع الاستعانة بأحدهم عند الحاجة لكن ما بال الحال إن صارت في دولة غريبة وحدها وطبيعة عمله تجعله مسافراً معظم الأوقات.

تعللت بهذه الأسباب المنطقية حتى تتهرب من المزيد من تلك الصحبة الإجبارية التي لا تملك مفراً منها وبنفس الوقت تحاول الإبقاء عليها بكامل إرادتها كونها أماً لطفل متعلق بشدة بوالده وتعلم جيداً أن غياب أحد أبويه سيؤثر فيه بتلك السن المبكرة حالها حال الكثير من الأمهات اللاتي رجحن كفة الأمومة على كفة أهوائهن الشخصية.

يومها وجدته يقوم عن مائدة الحوار قائلاً ببساطة وببرود متناهي أنه بهذا الشكل لن يتبقى لهم حلاً سوى الانفصال في هدوء.

لم تكن هي من طلبت الطلاق؛ على الرغم من أنها تمنته كثيراً لكنها لم تجرؤ على التفوه بطلبه لأسباب عدة أولهم ابنها وثانيهم كونها تشعر بالوحدة وألا مأوى لها سوى ذلك المنزل الذي خطت إليه عروساً شابة تملأها الآمال العريضات بحياة زوجية سعيدة لتفاجأها الأيام بهذا الكم الهائل من الاختلاف والتناقض وعدم التفاهم والذي أودى بهما في النهاية إلى شخصين مرتبطين اسمياً منفصلين فعلياً، لطالما وأدت هذه الرغبة في مهدها من أجل تلك الأسباب لكنها وجدت نفسها أخيراً مرغمة على الاستسلام لها طالما توافقت مع رغبته ووجدت نفسها في اللحظة التي تنال فيها حريتها تفر من كافة القيود التي كبلت يديها حتى قيد المكان؛ تركت المنزل واستبدلته بآخر انتقت محتوياته كما كانت تحب وترغب حتى ملابسها التي مازالت تحمل بقايا عطر زوجها السابق تركتها بالمنزل القديم مع باقي الذكريات الغير مرغوب في استرجاعها مرة أخرى.

تتالت طرقات على باب الغرفة قبل أن تسمح للطارق بالدخول فوجدتها أم شادي تخبرها أن موعد رحيلها قد آن وتسألها إن كانت ترغب في شيئاً آخر قبل أن تغادر المنزل فشكرتها قبل أن تجد ابنها يظهر من خلفها بوجه مشرق على عكس ما كان عليه منذ دقائق فابتسمت لرؤيته باسماً وأشارت إليه أن يأتيها فوجدته يقفز من فرط السعادة وهو يتقدم إليها مطبقاً يده على ورقة وهو يقول بلهجة فرحة: شوفتي مس جريت اديتلي إيه

نظرت إلى سقف الغرفة حتى لا ينفلت من وجهها تعبيراً ينم عن الاستخفاف إعمالاً بنصائح الاستشارية النفسية التي دأبت تقنعها بأن خيال الطفل دليلاً على ذكائه حتى ولو قام بتخيل أشياءاً أو أشخاصاً غير موجودين فذلك من إمارات الذكاء.

-مس جريت !!! .. هوا مش كان اسمه مستر جريت ؟؟!! .. هيا دي أخته ولا إيه؟؟ هز كتفيه: مش عارف .. أنا سألتها عن اسمها مرضيتش تقولي فقولتلها اني هسميها مس جريت

رفعت حاجبيها متظاهرة بالتصديق ثم سألته في جدية مصطنعة: ويا ترى مس جريت أديتلك إيه بالظبط؟؟

تصنع المراوغة: مش هتصدقي يا مامي

تصنعت الاهتمام لما سيلقيه على مسامعها فوجدته يقول بحماس شديد: رسمتلي صورة أنا وبابي علشان مبقاش زعلان

فتحت فاهها تهتف في حماسة مفتعلة : واااااااااا...

لم تكمل تلك الصيحة التي تنم عن عدم تصديق الشيء من كثرة روعته فقد تجمدت نظراتها وتوقفت الكلمات في حلقها فأمام عينيها كان هناك شيئاً لا يصدق بالفعل فقد فرد الورقة المطوية في يمناه لتكشف عن رسماً بالقلم الرصاص يجسد ملامحه وملامح وجه والده بمنتهى الوضوح وكأن من قام بذلك فناناً محترفاً وليس مجرد طفل في العام السابع من عمره!!

***

-يا دكتور في حاجة مش مظبوطة .. أنا متأكدة .. بصي كده للورقة .. ازاي طفل عنده سبع سنين ممكن يرسم صورة زي دي !!!

تفحصت الورقة بملامح مقتضبة: معاكي حق طبعاً .. بس مش جايز الصورة دي تكون كانت موجودة عنده أصلاً يعني حد رسمها لباباه قبل كده وباباه ادهالو هدية قبل ميسافر

ضحكت في مرارة: باباه يا دكتور مش بالرومانسية دي خالص .. هوا صحيح كان بيجيبله لعب وهدايا كتير بس كان بيخلي حد يشتريهالو وهوا نفسه قالي الكلام ده اكتر من مرة أنه بيخلي أي واحدة من المضيفات اللي معاه على الرحلة تنقيله هدايا كريم

ارتدت نظارتها الطبية مرة أخرى وأخذت تطالع الورقة باهتمام: طب هوا ممكن يكون في تفسير تاني

نظرت إليها بلهفة: إيه التفسير التاني؟

تفقدت الملفات أمامها على المكتب ثم انتقت واحداً منهم وناولتها إياه فتفقدت

بدورها محتوياته لتجدها عبارة عن تقارير باللغة الإنجليزية تحوي صوراً لأطفال صغار في مثل عمر ابنها

-أول ريبورت عن طفل اسمه تاثاجات تولسي وده اتخرج من الجامعة وسنه أقل من عشر سنين .. تاني ريبورت عن طفلة اسمها اليتا أندريه ودي كانت بترسم قبل حتى متتعلم المشي ولما بقى عندها سنتين ونص كانو أهلها بيعرضوا اللوحات اللي بترسمها في أشهر معارض العالم .. وغيرهم أطفال كتير كانو بيتصرفوا بطريقة غريبة وبتقلق أهاليهم .. لكن اتضح في النهاية إنهم عباقرة للدرجة اللي بتخليهم يتخطوا كل اللي في سنهم بفروق شاسعة .. خلينا نقول إن اللي عند كريم ممكن يكون بوادر عبقرية مبكرة .. في أطفال كتير بتبان عليهم علامات العبقرية في سن مبكر جداً وده بيخليهم يحققوا انجازات تبان معجزة بالنسبة لسنهم وتبان غير منطقية بالنسبة لينا.

بدت عليها إمارات عدم الاقتناع وهي تقول بلهجة مترددة: معلش يا دكتور مع احترامي للكلام اللي حضرتك بتقوليه أنا مش قادرة اقتنع .. كريم مستواه عادي جداً في الدراسة .. هوا ذكي طبعاً أنا عارفة حاجة زي كده ومتأكدة منها بس ذكائه ميوصلش لدرجة العبقرية ومش معقول أقتنع إن طفل كان أول امبارح بيمسك القلم بصعوبة .. امبارح بس رسم صورة زي دي وفي وقت قليل جداً

-يبقى مفيش قدامنا غير الاحتمال الأقوى والأكتر منطقية إن تكون الصورة دي موجودة معاه من الأول وطلعها في الوقت ده بالذات لما حس بحنين قوي لاباه وبعدين كعادة كريم المعروفة في اختلاق حكايات .. حب يبررلك وجودها معاه في اللحظة ديه بأنه يألف قصة جديدة خصوصاً إن الشخصية بطلة القصة دي مش جديدة وبيحكي عنها كتير.

-لأ .. كان قبل كده مسميه مستر جريت إمبارح بيتكلم عن شخصية جديدة اسمها مس جريت

رفعت حاجبيها باهتمام: منطقي برضه .. طفل مفتقد الشكل الأسري فبيحاول يعوضه في خياله فمستر جريت لازم يكون متجوز مس جريت والتدرج الطبيعي إنك هتلاقيه بيحكيلك أن عندهم طفل وغالباً هيكون ولد وفي نفس سنه .. كلها حاجات طبيعية

لم يستطع أسلوبها المتبسط أن ينحي القلق جانباً عن قلبها: برضه أنا حاسة إن في

حاجة مش مظبوطة في موضوع الصورة دي

رفعت كتفيها وهي تشير بكفيها أن الأمور ستنكشف عما قريب لا محالة: وليكن .. مفيش قدامنا غير إننا في الجلسة الجاية نحاول نعرف منه قصة الصورة دي إيه ومن هنا لوقتها مش هوصيكي .. لازم تحتويه على أد متقدري

أنهت لقائها مع الاستشارية بنفس الجمل المعتادة بنهاية كل لقاء ووقفت بمكتب السكرتارية لتحديد موعدين آخرين أحدهما لابنها والآخر لها عقب موعد ابنها بيوم لمناقشة النتائج الخاصة بلقائه.

طوال الوقت تحاول هذه الاستشارية المتخصصة في شئون الطفل بث الطمأنينة في قلبها تجاه ولدها لكن ذلك لم يفلح معها اليوم، لا تعرف إن كان قلقها البالغ طوال الوقت بشأن ولدها هو السبب أم أن ذلك الانقباض الذي بثته رؤية تلك الصورة في قلبها هو السبب في سيطرة القلق عليها فالأمر مريب بالفعل؛ هي أدرى الناس بزوجها السابق وباهتماماته وأولوياته التي تتلخص في شخص واحد فقط؛ هو؛ أما ما بعده هو؛ فيأتي في ذيل قائمة الاهتمامات والأولويات، ثم كيف لابنها أن يخفي شيئاً كهذا ولم تكتشفه هي من قبل وقد قاموا بالانتقال من منزل إلى منزل وأشرفت هي بنفسها على جمع حاجياتها الشخصية وحاجيات ابنها وإعادة ترتيبهم عند انتقالهم إلى المنزل الحالي.

فجأة انتبهت من شرودها وارتفعت دقات قلبها عندما استشعرت أن هناك شخصاً يتبعها، حاولت أن توازن خطواتها حتى تتجنب الوقوع أرضاً وقد بدأت تسرع من وقع خطاها بالفعل فتأكد حدسها أن ما تشعر به حقيقي لأن هذا الشخص أو هذا الشيء الذي يتبعها قد بات يسرع من خطواته بمجرد أن أقدمت هي على ذلك، كاد قلبها أن يقفز من بين ضلوعها وهي تشعر باقترابه الشديد منها وخوفها البالغ يقف حائلاً بينها وبين الالتفات إليه بالخلف لتبين كنيته.

لمحت طرف سيارتها في المكان الذي أودعتها إياه قبل أن تدلف إلى ذاك العقار فأخذت تسرع الخطى أكثر وهي تضغط على الزر الخاص بفتح باب السيارة بعصبية وكأنها تستغيث به أو تتمنى لو كان في استطاعة السيارة الإسراع إليها بدلاً من انتظارها هكذا والخطر يحدق بها ويكاد يفترسها.

بلغت دقات قلبها الذروة مع اقترابها من باب السيارة واقتراب التابع لها أيضاً منها، مدت يدها التي ترتعش من فرط الانفعال بسرعة لتعالج مزلاج الباب فشعرت

بأنفاسه وقد توقفت واستقرت خلفها مباشرة، سقط قلبها بين قدميها وكادت تسقط أرضاً مغشياً عليها لكنها تماسكت حتى لا تصير لقمة سائغة وفريسة سهلة المنال في أيدي من أراد بها شراً أياً كان.

تجمدت بمكانها حين وجدته يستوقفها هامساً باسمها فشعرت أنها هلاوس سمعية فرضها عليها خوفها في هذه اللحظة بينما ترأف باب السيارة بحالها واستجاب لها وانفتح ليوقفها الصوت مرة أخرى وهو يهمس باسمها لكن بنبرة صوت أوضح فشعرت أنا ما حسبته أراد بها شراً كان وقعه على نفسها سيكون أهون بكثير من ذلك الصوت الذي يخترق أذنيها ليبلغ أعماق قلبها مباشرة ويهز مشاعرها في عنف. أنثنى جسدها على نفسه لتدلف إلى مقعد القيادة بسيارتها عندما ارتفع صوته باسمها للمرة الثالثة فاستدارت تواجهه وقد هونت عليها لحظات الخوف التي مرت بها منذ قليل تلك المفاجأة والتي لو كانت واجهتها في لحظات يومها العادية لفقدت السيطرة على تعابير وجهها التي أصبغت عليها قناعاً من الجمود وهي تنظر إليه بتحد بالغ وتضغط أعصابها حتى لا تنهار لرؤياه الغير متوقعة.

أخذت تتأمل ملامح ذلك الواقف أمامها والذي يبدو مختلفاً تماماً عن تلك الصورة التي انطبعت بمخيلتها منذ ما يقرب من عشر سنوات، نحل كثيراً واستحال قوامه الرياضي هزيلاً وزحفت خصيلات من شعره إلى الوراء كاشفة عن جبهته العريضة فحارب زحفها الإجباري من الأمام بآخر اختياري شمل باقي رأسه بالحلاقة بينما تغلب على ندرة الشعر في رأسه بكثافته في لحيته وشاربه، أما نظارته الطبية التي كانت ترافقه طيلة سنوات عمره فقد تخلى عنها أخيراً ودون تكهن منها فأنه حتماً ولابد أن يكون قد أجرى عملية إصحاح لنظره من أجل ذلك.

شيئاً ما في ملامحه يبدو متغيراً لعلها تلك الكيلوجرامات التي فقدها قد أثرت بشكل أو بآخر على ذلك الوجه الذي حفر في ذاكرتها لأعوام لكن الشيء الوحيد الذي يبدو كما هو ولم تطله يد الزمن في شيء هي تلك الطريقة التي ينظر بها إليها.

تلك النظرة التي كانت تقتلها ومازالت تفعل.

تلك النظرة التي كانت تمحو أثار الغضب وتوقف سيل العتاب عند أعتابها.

تلك النظرة التي كانت تهون عليها كافة الأوجاع وتشعرها أنها وإن أوحشها العالم بأجمعه فلها مكاناً تسكن إليه وتحتمي به.

لم تكن نظرته فقط هي التي لم تتغير لكن ابتسامته التي أضاءت وجهه حين أخذ

يتفحص ملامحها بدوره فقد كان يفتقد كل ذرة بها واكتشف أنها وإن كانت تمتاز بالحسن فقد ازداد حسنها أضعافاً في تلك الفترة التي انقطع فيها عن رؤيتها أو هكذا الشوق ولوعة البعاد تهيئ لنا أموراً من هذا القبيل.

-داليدا .. ازيك

حاول أن تكون لهجته معتدلة لكن شوقه المفرط أطل مشتعلاً من كلماته كما هو من عينيه فلفحتها حرارته لتشد على قبضتها بأناملها حتى لا يحيي ذلك الشوق المطل من عينيه مشاعرها المدفونة فحافظت على ذلك الجمود الذي تحاول أن تتحلى به في حضوره وردت ببرود مفتعل: كويسة

استسلم أخيراً لشوقه الذي يجاهد ليتحرر ويجد له عتقاً فأخذ يجول في ملامحها بناظريه ليشبعهما منها قبل أن يهمس: وحشتيني أوي

لو كان وخز قلبها بمدية لما كان سيصرخ هكذا فيها لتستسلم لهذا الشوق الذي يتقد بداخلها والذي حركته رؤيته بعد أن اعتقدت أنه مات ودفن في مكان سحيق وصارت عودته إلى الحياة شبه مستحيلة لكن مشهداً ما ومض بعقلها في تلك اللحظة فوجدت نفسها تسترجع حواره معها قبل سنوات لكن بعد استبدال الأدوار وبنفس القدر من الجفاء الذي قابلها به ذات يوم نظرت إليه وهي تستمتع بكونه سينال نصيبه من الأسلوب الصادم: إيه اللي جابك؟

كان ردها أشبه بصدمة فعلاً كما أرادت فتبدلت ملامح وجهه الذي كان مشرقاً منذ ثوان ليأفل ورد عليها بلهجة غير مصدقة: أنا بقالي أكتر من شهر بحاول أدور على أي خيط يوصلني ليكي وكنت هيأس خلاص لولا النهاردة .. مصدقتش نفسي لما شوفتك صدفة في الإشارة وجريت وراكي لحد ملحقتك هنا بس كنتي طلعتي العمارة خلاص ومن ساعتها وانا قاعد هنا في عربيتي مستنيكي تنزلي ومن كتر مانا مش مصدق نفسي مبقتش عارف أعمل إيه أول ملقيتك نزلتي ففضلت ماشي وراكي لحد مجاتلي الشجاعة وندهت عليكي

حاولت أن تصم أذانها قدر المستطاع عن كل ما ألقاه على مسامعها فقد لمست صدق حديثه بنفسها والذي من فرط صدقه تتحرك له الجبال لكنها ليست بجبل وما عانته في حياتها من جراء لفظه إياها عن جراء ذنب لم تقترفه جعلها تقف أمامه بصلابة في هذه اللحظة: برضه مقولتليش إيه اللي جابك ورايا؟؟

أجاب باستسلام: مانا قولتلك ..... جيت علشان وحشتيني

أصابها الارتباك هذه المرة فتحسست بيمناها ذلك الخاتم الضخم الذي استقر ببنصرها الأيسر منذ أن تخلت عن خاتم الزواج خشية الدخول في مهاترات وإرهاصات عن أسباب انفصالها مع أولئك الذين يشغلون بالهم بحال غيرهم أكثر من حالهم الشخصي فوجدته يبتسم ابتسامة ذات مغزى ولا تعلم إن كان لمح حركتها اللاإرادية أو لعله لازال يمتلك تلك الحاسة التي يستطيع بها أن يسبغ أغوارها ويستقرأ كل ما يدور بعقلها دون أن تنطق به فوجدته يقول: أنا عرفت ان انتي وبابا كريم سيبتو بعض خلاص

لم يكتفي بتفجير قنبلة واحدة بل فجر قنبلتين في آن واحد فكونه قد علم بأمر انفصالها والذي بالغت في إخفاءه لن يقلل من كونه على علم بأن لديها ابن والأكثر أنه يعلم اسمه فمن أين له بتلك التفاصيل وهي التي قطعت على نفسها كل السبل التي قد تتواصل بها مع أخباره منذ أن حدث ما حدث وبالتالي قطعت عنه كل قنوات الاتصال التي يمكن من خلالها أن يستقي أخباراً عنها؛ حتى أصدقائهما المشتركين انقطعت عنهم وبشكل نهائي وباتت بلا أصدقاء تقريباً في ما عدا زملاء العمل والتي علاقتها بهم محدودة جداً حتى أنهم ليسوا على دراية بأمر انفصالها حتى هذه اللحظة.

تذكرت مقابلتها بنهلة لكن حتى تلك المقابلة العابرة لم تكن لتفضي إلى تلك المعلومات فقد أخفت عليها أمر انفصالها لكن شخصاً فضولياً كنهلة لن ييأس وسيظل يتقصى الحقائق حتى يستكمل أركان الصورة كاملة مكملة.

شعرت أنها مغتاظة من تلك المتطفلة التي أعطت لنفسها الحق في ذلك فاندفعت تسأله في حدة: تقدر تفهمني انت عرفت الكلام ده منين

ابتسم في إشفاق وقد لاحظ حركة ساقيها العصبية وهي التي أراحت ظهرها على باب سيارتها ووقفت في مواجهته تنتفض في حنق فقال لها ببساطة: بقولك بقالي أكتر من شهر بحاول أوصلك مستكترة أني اعرف كل حاجة عنك في الشهر ده .. ده أنا وصل بيا الحال إني أدور على عنوان بيتك لحد موصلتله ورحت لحد هناك فعلاً وعرفت من البواب انكو سيبتو بعض وإنك سيبتي البيت بعد كده .. بس حاولت أد محاولت وبرضه مقدرتش اوصل لعنوانك الجديد

إذن نهلة بريئة رغم فضولها وتطفلها المرضي، توجهت بغيظها المكتوم من نهلة التي اتضحت براءتها من هذا الفعل وقالت له بحدة: إنت إزاي تعمل كده .. إنت مجنون .. افرض مكناش سايبين بعض .. افرض أنه شافك أو عرف إنك بتسأل عليا

كان وضعي أنا هيبقى إيه قدامه

قال باستسلام: أنا آسف بجد بس انتي كنت وحشاني اوي وكنت هتجنن واشوفك .. صدقيني أنا عمري مكنت هعمل حاجة تأذيكي ولا حتى هحطك في موقف محرج قدام جوزك .. قصدي اللي كان جوزك .. أنا بس كنت هتطمن عليكي واشوفك من بعيد لبعيد وامشي

رق قلبها حين لمست صدقه بنفسها فلسنوات طويلة أتقنت معرفته بجميع أحواله حتى وهو صامت، كانت تميز بسهولة ودون عناء صدق حديثه من عدمه تمام كيوم آخر لقاء بينهما في المستشفى وهو يؤكد لها رغبته في استحالة بقاءهما سوياً وهي تعلم أن كلماته كانت تقطر كذباً كما هو قلبه ينزف ألماً.

أخذ نفساً عميقاً وأتبعه بزفرة سريعة في الهواء قبل أن يقول لها على استحياء: أنا وإيناس سيبنا بعض برضه

وكأنه أخفق وكان غير موفقاً في اختيار تلك الجملة التي لو كان يعلم أنها ستدير مجرى الحديث وتغير مساره بعد أن كادت الكفة تميل لصالحه لما قالها.

-لا والله .. يا حرااام .. لأ زعلتني بجد .. ده انتو حتى كنتوا شبه بعض ولايقين أوي على بعض .. أنا مالي إذا كنتوا تسيبوا بعض ولا تكملوا مع بعض ده شيء ميخصنيش .. انتو الاتنين بالنسبالي موتوا وشبعتوا موت

كانت عنيفة جداً وتبدو كنمرة اقتلع عنها وليدها فباتت تهاجم في شراسة فحاول تهدئتها بأي طريقة قائلاً بتوسل: يا داليدا افهميني ارجوكي

قاطعته في حدة وقد استدارت في مواجهة باب السيارة وهمت تفتحه: أفهم إيه .. إيه اللي جاي بعد أكتر من عشر سنين تفهمهولي واللي هيخليني فجأة كده أنسى إن في يوم صحيت لقيتني خسرت أكتر اتنين قريبين ليا .. البني آدم الوحيد اللي حبيته ووثقت فيه .. والإنسانة الوحيدة اللي اختارتها من دون الناس كلها علشان تبقى صاحبتي واعتبرتها أكتر من أختي وآمنتها على كل أسراري ..

صمتت للحظات وقالت بسخط يقطر ألماً: يا أخي دانا فضلت استنى يوم ورا التاني وأقول هيكلمني لما يهدى أو هيا هتكلمني تطمنني عليك .. لحد ما اتفاجأت إنك لا كلمتني ولا هيا عمرها كانت هتكلمني تاني علشان ببساطة انتو الاتنين اتخطبتو لبعض.

أدارت محرك سيارتها ونظرت إليه شذرا من النافذة المجاورة لمقعدها وهي تقول بأسلوب جاف: لو جاي وعندك أمل تحيي حاجة ماتت فأحب اقولك ان مفيش ميت بيخرج من قبره

ثم رمته بنظرة نارية وزجاج السيارة يرتفع ببطء بينهما وقالت بتشف بالغ وكأن لحظة انتقامها قد حانت أخيراً: كل شيء قسمة ونصيب يا عمر واحنا قسمتنا قفلت على كده

تركته ذاهلاً من ردة فعلها العنيفة وفرت بسيارتها سريعاً وكأنها تحرمه من شرف إلقاء كلمة وداع أخيرة أو حتى وضع كلمة نهاية لائقة لتلك القصة البائسة.

***

أشعلت سيجارة بأصابع مرتعشة غير مصدقة أنها قد واتتها الجرأة لتنفجر فيه هكذا، لم تكن تهوى التدخين لكن أزمة انفصالها عن زوجها هزت ثقتها بنفسها وأوعزت إلى نفسها أنها قد تسترد جزءاً من هذه الثقة إن هي قد غيرت من نمط حياتها وتفكيرها وكان أول ما لجأت إليه هو تلك السجائر البنية النحيلة التي تفرغ في قلب أدخنتها جزءاً كبيراً من توترها وتتخلص منه؛ أو هكذا توحي إلى نفسها في كل مرة يبلغ بها التوتر ذروته فتستعين بسيجارتها لتخفي زفراتها الحانقة تحت ستار دخانها الكثيف.

برغم كل ما يعتمل في نفسها من مشاعر الحزن المختلط بالوجع إلا أنه لم يخلُ من آثار فرحة تستحي أن تعلن عن نفسها صراحةً فبعد كل هذه السنين لم يجرؤ على نسيانها ولا نسيان حبه لها.

لكن فما الفائدة؛ لا يفيد البكاء على اللبن المسكوب فما ضاع منها كان سنوات عمرها

سيناريو آخر لحياتها كان من الممكن أن تكتب صفحاته لولا أنه اختار الخروج من حياتها بهذا الشكل المهين بعد أن أوجعها بصفعة الغدر المشترك

غدر الحبيب المتخلي عن حبه والصديقة التي خذلت شرف صداقتها

خيانة مشتركة جعلتها حبيسة أصعب إحساس بالحياة

إحساس الخواء.

أسلمها هذا الإحساس كرهينة لغرفتها لشهور لا تغادرها معظم الوقت تقريباً؛ بل لا تغادر الفراش معظم أوقات النهار وكأنها تهرب من قسوة الواقع وتتحايل عليها بالنوم، مشاعر مؤلمة تلك التي تراودها عندما تتذكر أوقاتاً حالكة بعينها مرت بها وتركت في نفسها انطباعات لا تنسى، إخفاقات متتالية وانكسارات توالت على نفسها واجتمعت عليها لكنها رغم كل هذا لا زالت تجد في نفسها الرغبة في الحياة وتحسب هذا إنجازاً في حد ذاته.

***

لم تختلف تفاصيل الساعات المتبقية في اليوم قبل إسلام روحها وجسدها إلى النوم عن كل يوم فقد خلد ابنها إلى النوم باكراً ورحلت المربية في موعدها ووجدت في آلام معدتها التي أثارها هذا اللقاء مانعاً قوياً لإقدامها على فكرة تناول أي نوع من أنواع الطعام فاكتفت بفنجان قهوة وسيجارة لم تستطع أن تتمادى بتركها مشتعلة لأكثر من منتصفها فأودعتها المنفضة باكراً بعد أن أحرقها فم معدتها بشدة وصرخ فيها ألا تنهكه أكثر من ذلك بمزيد من جرعات البن أو جرعات التبغ أو كلاهما سوياً فأرادت أن تلتمس جزءاً من الراحة له عن طريق أحد العقاقير المهدئة لآلام المعدة لكن هذه الآلام تلاشت دفعة واحدة وحل محلها انقباضاً عجيباً في صدرها عندما استوقفها مشهد الأجسام المنتفخة الطافية على سطح الماء الذي تلوثت بعض جزيئاته بشرائط دماء رقيقة.

أجهشت بالبكاء الذي رغماً عنها كان مسموعاً فكيف لذلك أن يحدث في يومين متتاليين دون وجود مبرر منطقي سوى أن هذه الكائنات الضعيفة يتفشى بها الإحباط الشديد فتقرر جميعها الإقدام على الانتحار الجماعي، لكن كيف لهم أن يعرفوا الإحباط أو يواجهونه وكيف لها أيضاً أن تقنع نفسها بذلك السفه، لم تجد في نفسها قوة لتقاوم بكاءها فلم يكن موت الأسماك وحده سبباً لهذا الحزن العارم الذي غمرها وإنما كانت تبكي حالها فما تحملته اليوم من ضغوط عصبية بالغة جعل فكرة التماسك تبدو شبه مستحيلة

لم تدري لكم من الوقت بقت على حالتها تلك لكنها بدأت تهدأ من روعها حين شعرت أن عينيها تحرقانها في شدة فهالها تورمهما الشديد حين طالعتهما في مرآة الحمام وحاولت أن تغسلهما أكثر من مرة بالمياه الباردة لكن ذلك لم يهدئ من ذلك الاشتعال الذي أصاب جوفيهما إلا بقدرٍ يسير.

أمسكت بهاتفها وطلبت رقماً سرعان ما استجاب لها وكان ذلك القريب صاحب

متجر الحيوانات الأليفة وأسماك الزينة فوجدها تروي له في لهجة أشبه بالبكاء ما آلت إليه مصير الأسماك الجديدة وبدون أية أسباب أو مبررات فأخذ بدوره يهدئ من روعها لكن دون جدوى وفي نهاية الأمر وجدته يعرض عليها أن يمر بها وهو في طريق العودة ليتفقد الأمر بنفسه لكنها شعرت بحرج بالغ من مجرد تخيل الفكرة بالرغم من أنه كان دائم التواجد في منزل والدها لكن راودها عدم الارتياح لمجرد وجوده معها وحدهما.

اعتذرت إليه في خجل متعللة بأنه لا داعي لأن يرهق نفسه بالحضور إليها خصيصاً بينما تستطيع هي أن تحمل إليه الحوض بالصباح، تفهم الأمر سريعاً وطلب منها أن تفك أجزاء الموتور الخاص بالحوض وتحضره إليه بالغد ليتفقد الأمر بنفسه. تكرر نفس سيناريو الأمس فقد انتشلت الأسماك النافقة ووضعتها في وعاء وأخذت تفرغ المياه بكوب بلاستيكي كبير في وعاء آخر حتى انكشفت المياه الملوثة عن كامل أجزاء الموتور فأخذت تعالجه في خفة لتخلعه عن مكانه دون أن تؤذي الجدران الزجاجية الرقيقة حتى استجاب لها أخيراً فدفعها الفضول لتفقد الأمر بنفسها فأخذت تتفحص أجزاءه لتجد أمراً غريباً لم يخطر على بالها نهائياً؛ أمراً أكد لها أن ما حدث للأسماك اليوم وبالأمس لم يكن وليد صدفة وإنما هو قراراً قد اتخذه أحدهم عن عمد بأن دس قطعة خشبية صغيرة في فتحة الخرطوم الخاص بفلتر الهواء والذي بدوره كان يضخ جزيئات الهواء طوال الوقت في الحوض لتستطيع الكائنات الحية التنفس من خلاله.

حتماً هناك مشتبهاً به لفعل ذلك فلا مجال لوجود قطع خشبية بالحوض وإن وجدت فإنها كانت ستطفو فوق سطح الماء، بنفس الوقت فكرة وجودها عالقة في الخرطوم تبدو مستحيلة دون وجود فاعل لذلك، لكن فعلياً ذلك مستحيل أيضاً فلم يكن بالمنزل سواها هي وابنها الذي كان نائماً، حتى السيدة التي تتولى رعاية أموره في غيابها كانت قد رحلت بالفعل؛ هذا إن كانت محل شك؛ فكيف وهي تثق بها ثقة عمياء وتأتمنها على ابنها فكيف تشك بأمرها وكيف لها أن تتهمها بتعمد قتل بعض أسماك الزينة التي لا قيمة فعلية لها، بالطبع هراء ولا يمكن أن يقتنع عقلها به لذا لا يتبقى إلا مشتبهين اثنين فقط؛ ابنها وهي.

أخذت الأفكار تجول بعقلها في عبث، هل من الممكن أن يكون ابنها؛ هل الخلل الذي أحدثته الأحداث الأخيرة والتي أعقبها تغيرات ملحوظة في شخصيته قد تودي به إلى الإقدام على فعل كهذا، هل من الممكن أن يدعي النوم يومياً ثم يتسلل على أطراف أصابعه ليقوم بأعمال يعلم أنها حتماً ستضايقها كنوع من أنواع الانتقام

منها لإبعاده عن أبيه ومنزله كما يعتقد بعقله الصغير، حاولت أن تنحي الفكرة جانباً لكنها الاحتمال الوحيد الأقوى من بين باقي الاحتمالات.

كانت الأفكار لا تتوقف عن الدوران في عقلها بينما تقوم بإفراغ الطبق البلاستيكي الكبير الذي رقدت فيه الأسماك قبل أن تلقى مثواها الأخير في صندوق القمامة حين فوجئت بأحدهما تدب فيها الروح مرة أخرى وتقفز من الطبق فجأة لتهاجم رسغها بشراسة لا تتناسب وحجمها الضئيل، ألقت بالطبق بمحتوياته أرضاً وهي تصرخ من ألم المفاجأة أكثر من ذلك الألم الذي باغت رسغها وتسبب في حرقان شديد به مع أثر لندبتين صغيرين استقرا بطرفه.

تركت كل شيء كما هو غارقاً في فوضى عارمة تبعت إلقاءها بالطبق بمحتوياته بحركة عشوائية وهي تعلم أنه بالصباح سيصير الأمر أكثر بشاعة وسيخلف ذلك رائحة كريهة تزكم الأنوف لكن يداها ترتعشان بشدة وقد رأت جسماً قد فارقته الروح لساعات ثم عادت إليه لتسكنه وتتخذ ردة فعل انتقامية من شخصها وكأنها هي من أودت بها إلى مصيرها الأخير ثم ما لبثت أن فارقته بعدها بثواني وكأنها قد أتمت مهمتها الأخيرة التي لأجلها تم استدعائها من العالم الآخر.

جلست بفراشها تنتفض ودموع خوف وارتعاب لا تتوقف عن الانهمار، حاولت أن تدثر جسدها بالغطاء حتى يتوقف عن الانتفاض لكن لم تفلح، في هذا الوقت دق هاتفها بنغمة رسالة نصية فوجدت رقماً لا تعرفه هو من أرسلها ووجدت كلمات معدودة توشي بصاحبها حتى ولو لم يذيلها بتوقيعه

«أنا آسف لو ضايقتك النهاردة وفكرتك بحاجات بتضايقك أنا بس كان نفسي اشوفك واتكلم معاكي واوعدك أني مش هضايقك تاني»

كيف له بأن يعرف رقم هاتفها وقد تتبع أثرها لمدة شهر على حد قوله ولم يجدها ولولم تدبر لهما الأقدار لقاءاً عن طريق الصدفة لما كان قد توصل إليها، بشكل أو بآخر رسالته جعلتها تتخلص من قدر كبير من الخوف الذي كان يسيطر عليها فقد أخذت تفكر في الوسيلة التي من خلالها قد حصل على رقم هاتفها والذي لا تمنحه إلا لأقرب المقربين لها وتغالي في إخفاءه حتى عن زملاء العمل، شغلها التفكير في ذلك الأمر حتى نامت دون أن تشعر وما هي إلا دقائق وأيقظها صوت ارتطام بالطابق الأعلى صبت جامات غضبها عليه وعقدت العزم على شكوى سكانه بالصباح لحارس العقار أو الإقدام على دق بابهم بنفسها من أجل معاتبتهم على تلك الضجة التي تؤرق نومها.

كانت تقود سيارتها وانعطفت بها إلى شارع جانبي تفاصيله ليست مألوفة لها فشعرت أنها لم تطأ هذا المكان بقدميها من قبل، أخذت تتأمل البنايات الغريبة الطراز من حولها وبداخلها خوف أن تكون قد ضلت طريق العودة، ظلت تعتصر ذاكرتها جاهدة لإيجاد مخرجاً لها من ذلك الطريق الذي باتت معالمه تتكرر أمامها بشكل مخيف عندما اعترضت طريقها فجأة امرأة نحيفة؛ طويلة القامة غطى الشيب معظم خصلات شعرها، متشحة برداء أسود اللون يغطي سائر جسدها ولا يكشف إلا رأسها وكفيها فقط.

ضغطت بقدمها على مكابح السيارة بقوة فأصدرت صريراً مسموعاً وتوقفت فجأة بعد أن تردت إلى الوراء بعنف، فتحت زجاج سيارتها وكانت بصدد أن تعتذر من تلك السيدة لكنها وجدتها ترميها بنظرة حادة وتبتعد من أمامها دون أن توجه إليها أياً من الكلمات.

أكملت طريقها وعيناها تبحثان عن طريق للعودة حتى وجدت منحنى آخر قريب فسلكته علها تجد سبيلاً للعودة لكن ذلك المنحنى كان غريباً عنها أيضاً فظلت تتفقده وتجول بعينيها في أرجائه إلى أن وجدت تلك السيدة تعترض طريقها مرة أخرى وتظهر أمامها دون أية مقدمات.

حاولت أن تتفادى الاصطدام بها بكل ما أوتيت من قوة ونجحت بالفعل في ذلك لكن الأخيرة حدجتها بنظرة تحمل الكثير من الحقد الغير مبرر فدب الخوف في قلبها من هذه النظرة وأخذت تقود بسرعة جنونية مبتعدة قدر الإمكان عن أي مكان قد يجمعها بتلك السيدة المريبة مرة أخرى.

بمجرد أن ابتعدت قليلاً عن ذاك المنعطف وجدتها تظهر فجأة بنهاية الطريق الممتد أمامها وقد أخذت تنظر إليها بمقت شديد فحاولت أن تتفاداها هذه المرة أيضاً لكن بهذا القدر من السرعة لم يكن هناك مفراً من الانحراف عن الطريق والذي أدى إلى انقلاب السيارة بها لعدة مرات متتالية قبل أن تسقط بالنهاية للأسفل بمنحدر الطريق الجانبي.

فتحت عينيها مفزوعة على أثر يد تهزها بقوة لتطالع وجه هذه السيدة من فوق رأسها تماماً وعيناها في مواجهة عينيها مباشرة تسدد لها نفس ذات النظرة الكريهة التي آرقت نومها فصرخت في فزع وانتفض جسدها ذعراً لتجد ابنها يصرخ بدوره في قبالتها فأخذ جسدها يرتجف رغماً عنها.

حاولت أن تتمالك أنفاسها عقب ذلك الكابوس الرهيب فصبت لنفسها كوباً من الماء من القارورة الزجاجية بجوار الفراش محاولة التقاط أنفاسها بصعوبة فوجدته ينظر إليها بقلق بالغ، حاولت أن تبدو طبيعية وهي تبتسم: صباح الخير يا حبيبي

-مامي أنا جعان

قالها في براءة شديدة مست شغاف قلبها فربتت على خده ثم قبلته بحنان: حاضر يا روحي هقوم أعملك فطار حالا بس انت روح اغسل وشك واغسل سنانك واستناني دقايق وتبقى كل حاجة جاهزة

خرج من الحجرة وهو يلوح بيده في الهواء في ضجر: يووووه يا مامي أنا غسلت وشي وسناني من بدري وحطيت الأكل للسمك وفتحت التلفزيون و.....

لم تكن باقي التفاصيل تعنيها في شيء ومهما بلغت أهميتها لم تكن لتجعلها تقفز من الفراش هكذا لكن ما ذكره هكذا بمنتهى البساطة والتلقائية جعل كل عروقها تنتفض فركضت بعشوائية حتى كادت تتعثر وعندما وصلت إلى مرادها وجدت كل شيء قد أصبح على ما يرام ولا يشبه بأي حال ما تركته عليه بالأمس؛ فالمياه صافية والحوض بكل ما فيه نظيف ولامع والأسماك تغدو ذهاباً وإياباً وهي في غاية النشاط والحيوية؛ حتى تلك السمكة التي هاجمتها بالأمس تلهو وتلعب في براءة وكأنها لم تكن المتسببة الرئيسية في تلك الندبتين، ولها أيضاً في هذا الأمر مفاجأة أخرى؛ فقد أخذت تتحسس موضعيهما فهالها أن تجد آثارهما وقد امحت تماماً من رسغها وكأن شيئاً لم يكن.

أمسكت جبهتها في حيرة وقد انسدلت خصلات شعرها جميعها إلى الأمام، ما الذي يحدث لها؛ هل أصابها مساً من الجنون أم أن تفاصيل الواقع والخيال قد اختلطت ببعضها البعض فلم تعد تميز أيهما الحقيقة وأيهم الحلم

تذكرت أمراً هاماً فأسرعت إلى الغرفة قاصدة هاتفها المحمول تفتش عن الرسالة التي تلقتها بالأمس، وكأنها لم تكتفي بكل هذا القدر من المفاجآت فطمعت بواحدة أخرى بإصرارها على تفقد تلك الرسالة التي لم تجد لها أثراً على حافظة هاتفها.

أيكون لقاءها بعمر أيضاً مجرد حلم، ولم لا؛ ألم تحلم به كثيراً وتتمنى هذا اللقاء لا لشيء أكثر من أنها أرادت أن توبخه وتستمتع برؤية نظرات الخزي في عينيه جراء توبيخها له، لما لا يكون تخيلها لقاءها به مجرد تنفيس أو تعبير عن رغبة مكبوتة في إشباع آذانه بكلمات اللوم والعتاب؛ الكلمات التي حبستها بداخلها لسنوات طويلة

في انتظار اللحظة الموعودة التي تلقيها فيها على مسامعه دفعة واحدة

أجهشت بالبكاء وقد جلست إلى أرضية الغرفة وأسندت ظهرها إلى الجدار خلفها لا تدري حقيقة ما يحدث لها، ظلت على حالتها تلك لدقائق حتى انتبهت أخيراً لفداحة ما هي مقدمة عليه من إيمان واعتناق لمجرد أوهام لا صحة لها ولا دليل على وجودها فنفضت عن رأسها تلك الصراعات النفسية وقامت لتتفقد حال ابنها الذي أغفلته منذ أن اكتشفت ما حدث للأسماك وتركته وحده ولعله قد غضب لذلك كما يفعل دائماً ولا رغبة لديه في التحدث إليها مرة أخرى

لم تجده بردهة المنزل ولا حتى بجوار حوض الأسماك يراقبه في صمت كما يفعل فاتجهت نحو غرفته لتجد بابها مغلقاً، طرقت الباب عدة طرقات قبل أن تحاول فتحه ويفاجئها حقيقة كونه لا يفتح، حاولت مرة أخرى والباب لا يستجيب لمحاولاتها المتكررة بينما صوته بالداخل معانداً يعلن لها أنه لن يفتحه مهما حاولت، أخذت تستعطفه وتحاول أن تسترضيه بالكلمات واعدة إياه أنها لن تفعل ذلك مرة أخرى ولن تتركه هكذا فجأة وأنها ستستغل أن اليوم عطلة وتأخذه للتنزه لكنها وجدته لا يستجيب لها فبدأت تغير من نبرة صوتها الحانية وتستبدلها بأخرى حازمة تأمره أن يستجيب لأوامرها على الفور وإلا سيتلقى منها عقاباً شديداً جراء عدم طاعته لها، على غير ما توقعت وجدته يتجاهل تهديداتها ولا يستجيب لنداءاتها المتكررة في الوقت الذي يتوجه فيه بالحديث إلى شخص آخر لكن بصوت هامس.

أثارت ردة فعله حنقها فانحنت محاولة أن تختلس النظر من فتحة الباب الخاصة بولوج المفتاح مستطلعة أمره بالداخل لكنه لم يكن في مجال رؤيتها؛ بينما تفقد باقي أرجاء الحجرة من تلك الفتحة الضيقة بدا عسيراً للغاية فحاولت أن تسترق السمع وألصقت أذنها بالباب لتجد أن لا شيء غريب سوى الصمت المغرق.

أمعنت السمع مرة أخرى وحاولت أن تجمع شتات تركيزها علها تلتقط أي إشارة لما يحدث بالداخل فتجمدت في مكانها لثانيتين قبل أن يهتز جسدها بالكامل عندما اخترقت أذنها ريحاً عاتية مرت من مسام الباب الخشبي باتجاهها مشبعة برائحة كرائحة اللحم المحترق دفعتها بشدة وجعلتها تلتف حول نفسها في عنف بينما امتلأت أذنيها بطنين هائل وشعرت بانسياب سائل دافئ على وجنتها اليمنى فمدت يدها تتبين أمره لتفاجئ أن أذنها قد صارت تقطر دماً من أثر مهاجمة الرياح لها.

تجاهلت نزيف أذنها وأخذت تدق الباب بكل ما أوتيت من قوة وهي تنادي

على ابنها بصوت عال ويداها لا تكادان تتوقفان عن طرق الباب بجنون، تناهى إلى سمعها صوته باكياً فجن جنونها أكثر وحاولت تحطيم الباب لكن من أين لهذا الجسد النحيل بالقوة التي تمكنه وتعينه على ذلك.

على صوت بكاءه وصار صراخاً وهي من الناحية الأخرى تبكي في عجز وقلبها يصرخ أن خطراً يحيط بابنها ولا تستطيع دفع أذوه عنه حتى وجدت بكاءه يزداد علواً ويتحول شيئاً فشيء إلى صوت أشبه بمواء قطة ضخمة يكاد يصم أذنيها من شدة علوه.

فجأة سكن كل شيء إلا دموعها وقلبها الذي يلهج فأمسكت بمزلاج الباب مترددة تحاول فتحه لتجده ينزلق تحت يدها بسهولة.

وجدت السكون يغلف أرجاء الحجرة التي يبدو كل شيء فيها على ما يرام بينما ابنها الصغير يغط في نوم عميق وجميع أغراضه في أماكنها تمام كما تركتها ليلة أمس وهي تقبله أثناء نومه.

ارتفعت دقات قلبها وتراجعت لتتهاوى على أقرب مقعد في الجوار وعقلها يعجز عن تفسير ما تراه أمامها، ما يحدث جنون لا محالة ولا تجد له تفسيراً ويكاد عقلها يخرج عن مساره الطبيعي لهذه المشاهد التي تتوالى عليه دون وجود تفسير منطقي لها.

في هذه الأثناء وجدت ابنها يفتح عينيه بصعوبة ثم ينظر إليها مبتسماً وكأن تلك هي المرة الأولى التي يطالع بها وجهها بهذا الصباح، أخبرته بحذر أنها ستعد له الإفطار في غضون دقائق ليصعقها بإجابته المتناهية البراءة بأن لا داعي فهو ليس جائعاً ولا رغبة لديه في تناول أي نوع من أنواع الطعام الآن، إذن لم يكن هو من كان معها بالغرفة منذ ما يقل عن ساعة؛ هل يستعيد عقلها استرجاع مشاهد من الذاكرة ويبثها في مخيلتها دفعة واحدة أم أن هذا أيضاً كان مجرد حلم؛ أم أنه لا هذا ولا ذاك بينما الأمر يتعلق بها هي وقد أشرفت على السقوط في بئر الهلاوس والخيالات، كل ما أيقنت منه في تلك اللحظة أن عليها أن تنتظر عدة ساعات ليحين موعدها مع الاستشارية النفسية التي قد تجد لها تفسيراً لحيرتها.

***

اصطحبت ابنها الذي لم يبدو عليه أدنى مظاهر الاهتمام ولم يعبئ بإيجاد إجابات للأسئلة التي انهالت عليه بها طوال الطريق، استغلت كون اليوم عطلة رسمية ولا ذهاب للمدرسة أو للعمل وأخذت تستدرجه بالحديث لمعرفة أي خيط قد يقودها إلى حقيقة الأمر لكن كل محاولاتها باءت بالفشل فقد كان لا مبالياً بحيرتها والتزم الصمت تماماً بينما عيناه تجولان بأرجاء الطريق من نافذة السيارة بشكل استفز غضبها الذي آثرت كظمه حتى ينتهي من موعد جلسته.

لم يعد بريئاً كما كان قبل سابق، يتناسب معدل البراءة بالأطفال عكسياً مع أعمارهم فكلما ازدادت سنوات عمرهم عاماً كلما تناقص معدل براءتهم وتآكل بمقدار تلك الزيادة.

ما إن رأتها السكرتيرة السمراء النحيلة ذات الملامح المصرية الخالصة والتي تشبه في ملامحها ومظهرها البسيط السواد الأعظم من الفتيات بنفس فئتها العمرية حتى تهللت أساريرها وهتفت بها في مرح: إيه الأخبار طمنيني؟

أجابتها بشرود: تمام

شعرت السكرتيرة أنها لم تفهم ما ترمي إليه فسألتها بحماس: أخبار اللاب توب إيه .. رجع بالسلامة الحمد لله؟

ارتفعا حاجباها في دهشة وقبل أن تستفسر كانت الأخرى توفر عليها عناء السؤال وتخبرها ببساطة أن بعد مغادرتها المكان أمس حضر شاباً طويل القامة يسأل عن رقم الهاتف الخاص بالسيدة صاحبة السيارة الرياضية الحمراء في لهفة فقد اختطف أحدهم حقيبة حاسوبها الشخصي وركض هو خلفه حتى استطاع الإمساك به وعندما عاد لم يجدها تحت البناية فأخبره حارس العقار أنها كانت بالطابق الثاني لديهم ومن ثم حضر إليهم طالباً رقم هاتفها، ثم أردفت بمنتهى الزهو أنها عرضت عليه أن تقوم هي بالاتصال بصاحبة الحاسوب نيابةً عنه لكنه أصر على الحصول على الرقم حتى يقوم بإيصال الحاسوب لها إلى منزلها على الفور.

لم تكن تحتاج لمزيد من الذكاء لتخمن من يكون هذا الشاب ذو القامة الطويلة فانفجرت ضاحكة وهي تتذكر كيف كان يقوم بهذه الحيل والألاعيب في فجر شبابهما وكثيراً ما كانت تصدق هذه الأفاعيل التي يتحايل بها عليها لتخبره بأمر سري أو لتصحبه معها في مكان كانت ترغب في أن ترداده وحدها.

دمعت عيناها فرحاً وأسفاً في آن واحد؛ فرحت لما تذكرت أياماً مضت وأسفت عليها

كونها مضت، فرحت أنه لم ينصاع إلى رغبتها بعدم تتبعها مرة أخرى وأسفت أنه تأخر في فعل ذلك.

فجأة ومضت في عقلها خاطرة؛ إذن رسالة الأمس لم تكن وهماً لكنها تفقدتها صباحاً ولم تجد لها أثراً؛ هل من الممكن أن يكون قد حصل على الرقم فقط ولم يحاول الاتصال بها بأي شكل من الأشكال لكنه على قدر من الذكاء يتيح له تخمين أنها بمجرد ما أن تأتي إلى هنا مرة أخرى سيخبرونها بالسيناريو الذي حدث وذلك سيضيع عليه عنصر المفاجأة، أو أن الاحتمال الآخر أن يكون قد أرسل إليها هذه الرسالة بالفعل لكن أحدهم كان يراقب ذلك وتعمد حذفها حتى يثير حنقها وشكوكها بنفس الوقت.

التفتت تنظر إلى ولدها الذي يلهو في براءة وشعور قوي بعدم الارتياح يراودها لكنها حتى وإن صدقت ارتيابها بأمره وأنه هو من يدبر لها ذلك ليزعجها من أين له أن يحصل على أسماك أخرى غير التي نفقت بالأمس وكيف لهذا الجسد الضعيف أن يرتب لكل ذلك دون مساعدة من شخص بالغ.

وجدت السكرتيرة تحملق بها وتنتظر منها ردة فعل معينة تجاه ما روته لها فحاولت أن تتظاهر بعظيم الامتنان لصنيعها بشأن أمر الحاسوب على الرغم من أنها كانت في قرارة نفسها تود لو تستطيع تعنيفها على تصرفها الأرعن والغير مسئول بشأن تفريطها في أحد بيانات العملاء للغرباء والتي من المفترض أنها من أسرار العمل ولا يجوز الإدلاء بها لشخص لم تتعرف على حقيقة هويته.

***

أسوأ ما في الانتظار أن تنتظر الشيء الذي لا يأتي مطلقاً.

لم تستطع أن تمنع نفسها من مراقبة هاتفها طوال الفترة التي كانت تنتظر بها ابنها بالخارج، على قدر ما شددت عليه ألا يحاول تتبعها على قدر ما رغبت بأن يخالف ما أوصته به أو هكذا شعرت بعد أن استفز مشاعرها مرة أخرى بإصراره وهذا في حد ذاته يجعل قلبها وعقلها لا يتوقفان عن التفكير بشأنه.

ترك فراغاً كبيراً في حياتها يوم أن تركها؛ فراغاً جعلها تتعجل ملأه بآخر لم يزد وجوده حياتها إلا خواءاً؛ نسيت في خضم حياتها الجديدة مشاعرها تجاهه أو لعلها تناستها لكنها كانت دوماً تستشعر أن هناك شيئاً ما ينقصها؛ لا تعرف ما هو هذا الشيء لكنها تستغفر الله كثيراً حين كانت تداهمها نوبات عدم الرضا عن حياتها فما الذي

كان يزج بها إلى أعماقها لتهاجمها ما بين حين وآخر؛ ولمّ يلازمها الإحساس المستمر بعدم الرضا وبافتقاد شيئاً ما منذ بداية زواجها وحتى بعد انفصالها.

قاطع أفكارها خروج ابنها من الحجرة التي كانت تجلس على أريكة للانتظار في قبالتها فانتبهت إلى أن ساعة كاملة قد انقضت ولم تشعر بها وقد غرقت في زحام أفكارها تجاهه لكن الأسوأ من عدم إحساسها بالوقت كان التزامه بوعده أنه لن يعترض طريقها أو يضايقها مرة أخرى، حتى وهي تتجه باتجاه سيارتها ممسكة بكف ابنها الذي أخذ يحاول الإفلات من قبضتها كما يفعل في كل مرة كانت تتلفت يميناً ويساراً علّه مختبئاً في مكان ما يراقبها عن بعد؛ لكنه خيب كافة ظنونها بامتثاله التام لرغباتها المعلنة وتجاهله كافة رغباتها التي لم تعلن عنها ولا تجرؤ حتى على الاعتراف بها بينها وبين نفسها.

مر اليوم بسلام وحل الليل بهدوئه المعتاد، أودعت طفلها الفراش باكراً ليستعد ليوم دراسي يعقب نهاية أسبوع وقامت بتحضير أغراضه وملابسه وملابسها التي سترتديها في العمل بالغد، أطعمت الأسماك التي لا تجد حتى الآن تفسيراً منطقياً للتجربة التي مرت بها معها بالأمس وأرسلت رسالة إلى أم شادي ترجوها أن تأتي في الثالثة عصراً حتى تكون في استقبال كريم عندما تقله حافلة المدرسة إلى المنزل وأخبرتها أنها ستترك لها مفتاح المنزل مختبئاً بداخل صندوق الكهرباء خارج الشقة كما هو متفق عليه.

حاولت أن تنام وعقلها يأبى ذلك، يقوم باسترجاع كافة الأحداث التي مرت بها في اليومين السابقين، فجأة قامت عن فراشها وفكرة مجنونة تراودها وتلح عليها دون توقف حتى حالت بينها وبين النوم بشكل نهائي، استرجعت أحداث فيلماً سينمائياً شاهدته منذ سنوات وكانت أحداثه أن زوجاً أراد أن يدفع بزوجته إلى الجنون كنوع من الانتقام منها فأخذ يجعلها تتصور أشياءاً ليس لها علاقة بالحقيقة وسرعان ما ينكر هذه الأشياء عندما تواجهه بها.

أمسكت هاتفها وهي تسترجع تفصيلة معينة وردت على خاطرها بتلك اللحظة، ثوان معدودة وجاءها صوت المجيب الآلي يخبرها أن الهاتف المطلوب غير متاح وتستطيع ترك رسالة لصاحبه، لم تكن المفاجأة في الرسالة لكن كانت في اللهجة التي تلقيت بها الرسالة، عربية فصحى بلكنة مصرية خالصة؛ إذن هو في مصر؛ لو كان بالخارج كما يدعي لكانت الرسالة الصوتية جاءتها بلكنة أخرى أو بلغة أجنبية أخرى غير العربية إن كان برحلة من رحلاته إلى الخارج، لكن ما سمعته بأذنها منذ قليل يؤكد لها أنه وبلا شك لا يزال بمصر ولم يغادرها بعد.

حاولت أن تجد له مبرراً يجعله يفكر في ذلك لكن لا مبرر على الإطلاق فحتى الطلاق كان بناءاً على رغبته هو؛ حتى لو وافق ذلك هواها لن ينفي كونه اقتراحه في البداية، حتى ابنه لم تحرمه من رؤيته ولم تهدد حتى بذلك أو تلمح له وإنما هو من ابتعد وقرر عدم الاكتراث بكونه أباً، أيضاً لم يكن هناك بينهما أي خلاف من أي نوع على الأمور المادية، باختصار لا يوجد سبب مقنع أو منطقي قد يجعله يخطط للانتقام منها أو حتى الإيقاع بها في حبائل المرض النفسي، لكن يبقى السؤال الأهم؛ أين هو ولما يخفي أمر وجوده بمصر ويدعي أنه بالخارج.

صارت تتقلب في فراشها يميناً ويساراً وهي تحاول أن تربط الأحداث ببعضها لتجد لها تفسيراً يجعل تفكيرها يهدأ في الأثناء التي أفزعها فيها صوت الارتطام بالأعلى فتذكرت كونها لم تخبر حارس العمارة بهذا الأمر ليتقصى أسبابه مع الجيران بالدور العلوي.

أشفقت على حال نفسها وهي تشعر أن فراشها قد صار بارداً ما إن تدفئ جزءاً منه وتتركه للجانب الآخر حتى تجده وقد اعتلته البرودة مرة أخرى، بالرغم من أن زوجها كان يتغيب عن المنزل لأيام لكنها كانت تقنع نفسها أنه قد يأتي ليلاً ليدفئ فراشها وأحياناً كانت تستيقظ باكراً فتجده بجوارها بالفعل

لم يكن وليفها لكنه كان أنيساً لها؛

لم يكن يدفئ مشاعرها لكنه كان بالجوار، تخاف دوماً من الليل ومن الوحدة لكنه كان بالجوار؛

مجرد رفيق كذلك الذي تستقل القطار فيشاركك المقعد المجاور لمقعدك لا تعرفه ولا تتبادل معه الكلمات لكن صدى أنفاسه يتردد في الهواء المحيط بك فيبدد إحساسك بالوحشة حين يسلك القطار طرقاً مقفرة ومظلمة،

على أسوأ الأحوال تفترض أنك لو لقيت حتفك سيكون هناك من يشهد ذلك أما الآن فلو زارك الموت وحدك لن يكون هناك من يشاركك لحظاتك الأخيرة.

لم تدري كيف أغفلت عينيها أخيراً بعد كل هذا القدر من السهاد لكنها نامت سريعاً لتستيقظ سريعاً، تأرقت عندما أحست بشعر يلامس وجهها أثناء نومها فاستيقظت مذعورة لتلمح خيالاً قرب باب الغرفة سرعان ما تلاشى فأدركت أن قلة نومها قد أثرت على إدراكها بشكل أو بآخر.

تأهبت للذهاب إلى العمل بعد أن ودعت ابنها في طريقه للحاق بمدرسته، راودها جزءاً من الشك وهي تضع المفتاح في المكان المتفق عليه للمربية وشعرت أن وسواساً قهرياً قد صار يسيطر عليها ويجعلها ترتاب في أمر كل المحيطين بها حتى ابنها الذي افترضت في عقلها مئات السيناريوهات لتصرفاته الغير منطقية بالآونة الأخيرة والتي وإن اتخذت سوء الظن لها مرشداً ودليلاً ستجد لها عشرات التفسيرات، ولما لا يكون عمر قد عاد بعد كل هذه السنين لينتقم منها وقد تسبب والدها في أذوه هو ووالده وقد وجد أن الفرصة صارت سانحة طالما أصبحت وحيدة وإلا لم يكون ظهوره المفاجئ واختفاءه المفاجئ أيضاً.

استوقفتها رؤية زوجة البواب بقارعة الطريق وقد انهمكت في تلميع زجاج سيارات ساكني العقار فشكت لها أمر الجيران بالدور العلوي وأصوات الارتطام التي تصدر عنهم وتقلق نومها بمنتصف الليل لتجد السيدة الشابة أمامها تخبرها ببساطة أن لا جيران يقطنون الطابق الذي يعلو شقتها فهو مهجور تماماً منذ سنوات .....!!!

***

-بصي يا دكتور أنا عقلي مش متقبل تفسير العبقرية والذكاء الخارق .. وحضرتك مش قادرة برضه تلاقيلي تفسير منطقي للي بيحصل

عقدت حاجبيها وهي تتخطى لهجة الهجوم والتشكك الواضحة في نبرات صوتها: ده علشان حضرتك افتراضاتك كلها ماشية في اتجاه واحد والاتجاه ده أنا شايفاه ١٠٠٪ اتجاه غلط

-بمعنى؟؟

-بمعني إن حضرتك مفترضة إن المشكلة في كريم

-أمال المشكلة في مين بالظبط؟؟

مرة أخرى تجاهلت أسلوبها المرتاب وخلعت منظارها عنها وهي تنظر إلى عينيها مباشرة: مدام داليدا ممكن أسألك سؤال .. هل عانيتي قبل كده من أي مرض نفسي أو الhistory بتاع عيلة حضرتك فيه أي حد كان بيعاني من أي مشاكل نفسية أو عقلية؟

بدأت إمارات التوتر تظهر على ملامح وجهها وهي تستعد للقيام بهجوم آخر مضاد

لتجد الطبيبة تفوت عليها الفرصة وتستكمل: إنتي مفترضة نظرية المؤامرة طول الوقت وده بيسموه في الطب النفسي .. بارانويا .. بدون تدخل مني في تفاصيل حياتك بس اللي فهمته إن علاقتك بأهلك مضطربة وعلاقتك بجوزك كذلك وإلا مكنش حصل انفصال واللي انا شوفته بنفسي إن علاقتك بإبنك كمان مضطربة وده سببه إنك طول الوقت شاكة في كل اللي حواليكي ومفترضة فيهم انهم هيأذوكي والموضوع تطور معاكي لدرجة الهلاوس السمعية والبصرية اللي كلها بتدور في محور واحد .. إن حد بيضايقك وعايز يأذيكي

هبت واقفة وهي تهتف في انفعال: مش صحيح .. انتي بأي حق تقيميني وتقيمي حياتي الشخصية وانتي متعرفيش حاجة عني ولا عن حياتي

-أنا آسفة فعلا لو كنت تدخلت في شيء ميخصنيش بس انا شغلتي إني أنصح الناس وادلهم على الحاجة الصح وده دوري علشان كده انا بنصح حضرتك إنك تروحي لطبيب نفسي متخصص قبل الحالة متتطور عن كده

انسحبت من أمامها دون استئذان وأسنانها تصطك في غيظ وانتزعت ابنها من الخارج بقوة حتى أنه انتفض من ردة فعلها المفاجئة وسارت باندفاع تضغط دواسة الوقود بسيارتها بقوة وكأنها تفرغ طاقات غضبها وحقدها وتصبها عليها، أخذت تربط ما بين كلمات الاستشارية النفسية وبين أفكارها بخصوص تهرب زوجها منها واختفاء عمر واختفاء رسالته أيضاً من على هاتفها، إذا قامت بمحاولة الوصل بين هذه الأحداث وما تراه من تهيؤات وأحلام تشبه اليقظة ويقظة تشبه الأحلام واستناداً إلى تأثير العقاقير التي كانت تتناولها بانتظام في مرحلة ما من حياتها فإن حديثها عن شبهة المرض النفسي تصبح التفسير الأقرب لما تمر به حالياً.

***

بالمنزل كان التلفاز مفتوحاً بالرغم من كونها متأكدة من أنها قد فصلت التيار الكهربائي عنه قبل رحيلها، ضغطت زر الإقفال في جانب الشاشة المسطحة السوداء لتختفي الصورة والألوان من أمامها ويحل محلها انعكاساً لامرأة تقف خلف كتفها تحديداً وترمقها شذراً.

ارتجفت أوعيتها وحاولت أن تستجمع شجاعتها لتلتفت فيما ورائها واستدارت بصعوبة بالغة لتجد المكان من خلفها خاو تماماً، لمحت ابنها يرقب تصرفاتها في صمت من زاوية بعيدة عنها فوجدت نفسها تندفع باتجاهه تلقائياً وتصرخ فيه

وتعنفه بدون أية مقدمات أو أسباب لذلك.

أخذت تهز جسده الصغير بين يديها بعنف حتى انفجر في البكاء الهستيري فانتبهت لفداحة ما أقدمت عليه منذ لحظات وضمته إلى صدرها بقوة مشاركة إياه البكاء حتى سكن أخيراً فرفعت رأسه تتفقد أمره لتجده قد ذهب في النوم وبقايا الدموع لا تزال تبلل وجنتيه الناعمتين.

مسحت دموعه بشفتيها وضمته مرة أخرى إليها لتسكن روحها إلى روحه وتأنس إليها، شعرت أنها هي من تحتاج إلى هذا الحضن لتطمأن به وليس هو، أمانها في هذا الحضن الصغير الذي أصبح عوضاً لها عن كل ما عانته في حياتها وأصبح يكمل كل الأشياء التي تشعر أنها تنقصها فيمحو بكفيه الصغيرتين كافة أشكال المعاناة وينسيها إياها، هي بدونه لا شيء؛ وهي كل شيء به.

غلف روحها السكون وتغلغل في أعماقها سلاماً عميقاً فأسبلت جفنيها ونامت مطمئنة وهي على وضعها ذلك ولم تدرك كم من الوقت مر عليها وقد استغرق كلاً منهما في النعاس الذي لم يكدر صفو هدوءه إلا عندما استفز أسماعها صوت صرير باب حجرتها ينفتح ببطء فتنبهت كل حواسها دفعة واحدة واشرأب عنقها وانتصبت شعيرات جسدها عندما وجدت تلك السيدة التي رأتها في أحلامها من قبل تخرج من غرفتها وتتجه باتجاه غرفة الصغير الذي لا يزال بأحضان أمه من لحظات الانفجار حتى لحظات السكون، وجدتها تحكم إغلاق الباب خلفها وتضئ الأنوار ولمحت ظلالها تتحرك بالداخل من الفراغ الضيق أسفل الباب.

لحظات تجمدت فيها الدماء في عروقها ثم عاد كل شيء كما كان، تاهت الحقيقة مرة أخرى ومن جديد بين كون ذلك واقعاً أو خيالاً، حلماً أم حقيقة، لا تراودها مثل هذه الخيالات إلا عندما تكون نائمة أو على وشك النوم أو أنها تكون قد استيقظت للتو، لم يعنيها تفسير الأمر كثيراً فكل ما تشعر به هو الخوف الذي يقتلها ويحرق أعصابها.

احتضنت ابنها بكل ما أوتيت من قوة ومن حسن حظها أن هاتفها ومفاتيح سيارتها ومفاتيح المنزل كانوا على مقربة شديدة منها فاختطفتهم على الفور وانتزعت حقيبة يدها دون اكتراث بالأشياء التي أخذت تتساقط منها في عشوائية وفرت من المنزل إلى الخارج، تدرجت السلم ولم تستخدم المصعد للهبوط فقد خشيت أن تفاجئها خيالاتها التي تتراءى لها في المصعد الضيق فيتوقف قلبها عن النبض من شدة الخوف والفزع، كان جسدها كله ينتفض في عنف لكنها كانت تحاول الحفاظ

على توازنها رغم سرعتها خشية أن يسقط ابنها من بين ذراعيها حتى خرجت من العقار لتكتشف أن لا مكان لها لتذهب إليه لكن من حسن حظها أنها كانت لا تزال بملابس الصباح ولم تكن قد استبدلتها بعد بملابس النوم فدلفت إلى سيارتها تحتمي بها من برد الشتاء الباكر الذي بدأ يشتد عوده وما إن سرى الدفء في عروقها حتى انهارت باكية على مقود السيارة لا تدري حقاً ماذا يمكنها أن تفعل في لحظة كتلك.

مرت ثلاثون دقيقة وهي على حالتها تلك أتت فيها على نصف علبة سجائرها على الرغم من كونها لا تتسم بشراهة التدخين لكن عقلها كان يحترق من أجل بلوغ نقطة سلام واحدة فكانت تستند إلى جسم السيارة بالخارج تشعل السيجارة تلو الأخرى وتتحمل البرودة القارصة بدلاً من أذو صدر ابنها بدخانها.

استرجعت كلام الاستشارية النفسية هذا الصباح وقررت أن تتحلى بالشجاعة في هذه اللحظة وتقوم بمواجهة الواقع الذي اعتادت التهرب منه فلم يعد لديها أي رغبة في مقاومة فكرة أنها تعاني من خطب ما، حتى ولو كان الأمر يخص ابنها في شيء فالجزء الأكبر يعتمل في نفسها هي.

دلفت إلى السيارة وأخذت تتفقد أمر ابنها الذي افترش المقعد الخلفي للسيارة واطمأنت كونه يغط في نوم عميق، أمسكت بهاتفها تقلب في أرقام جهات الاتصال المسجلة به وهي تبحث بعينيها عن رقمها حتى توقفت عينيها عند رقم آخر استفز ذاكرتها فضغطت زر الاتصال دون أن تتخذ أية فرصة للتفكير أو حتى لتفقد الوقت في الساعة أمامها، دق الهاتف على الجهة الأخرى مرات ومرات دون إجابة فيئست من أن يستجيب لها وأغلقت سريعاً قبل أن تعاود رحلة البحث عن الرقم المنشود.

بمجرد أن أتاها صوتها بالجهة الأخرى انهارت بالبكاء وكأنها غريقاً في ظلمات بحر أعظم ووجد طوق النجاة يمتد إليه أخيراً فأجهش صوتها بالبكاء قائلة على استحياء: دكتور شيرين أنا آسفة بجد إني بكلمك في وقت زي ده .. بس أنا تعبانة أوي يا دكتور .. أنا بيتهيألي حاجات مش حقيقية وانتي عندك حق في كل كلمة قولتيهالي الصبح .. العيب فيا أنا .. أنا اللي كنت مريضة نفسياً وعشت فترة من عمري على المهدئات ومضادات الاكتئاب وكنت مفكرة ان انا خفيت وبقيت انسانة طبيعية بس الظاهر ان مفيش فايدة .. أنا خايفة أوي يا دكتور حاسة إني ممكن أؤذي ابني أو أؤذي نفسي .. أنا خايفة حتى اطلع البيت ومش عارفة أروح فين ولا لمين .. تخيلي يا دكتور .. انا اكتشفت فجأة ان انا ماليش حد بمعني الكلمة ومش عارفة أعمل إيه بجد

كان صوت محدثتها على الجانب الآخر ينفطر تعاطفاً وأسفاً على ما آل إليه حالها في هذه اللحظة من ضعف وهوان فحاولت تهدئتها بكلمات روتينية معتادة لكن الأمر كان متفاقماً معها فقد فقدت السيطرة الكلية على مشاعرها وأخذت تبكي في انهيار.

في نهاية الأمر لم يكن أمامها من خيار سوى أن تخبرها أنها ستتصل بزميلها الطبيب النفسي الذي رشحت له زيارته بالصباح وأبت أن تتقبل هي بدورها الأمر، كما أكدت لها أنها ستوصيه بالاهتمام بحالتها وإعطائها أولوية لتكون أول من يستقبله بالصباح الباكر ولم تنهي المكالمة معها إلا بعد أن أقسمت لها أنها سترسل لها رسالة بعد عشر دقائق على الأكثر فيها بيانات الطبيب وعنوانه ورقم هاتفه وموعد زيارة الغد الذي ستؤكده معه قبل أن تقوم بإرساله لها.

هدأت مشاعرها قليلاً فهناك من يشاركها حمولتها التي أثقلت نفسها، نظرت إلى الهاتف وكأنها تستحثه أن يدبر لها مفاجأة وتجد عمر وقد حنث بأيمانه لها بالابتعاد عن طريقها وعكف يلاحقها كما كان يفعل منذ أيام قبل أن تقطع هي عليه الطريق بلا عودة، ما أصعب الانتظار والأصعب من الانتظار في حد ذاته انتظار المجهول والأصعب منهما هو انتظار الشيء الذي يخبرك حدسك أنه لن يأتي أبداً.

دق هاتفها بنغمة استقبال رسالة جديدة فوجدت أن عمر ليس وحده من يلتزم بوعوده فقد التزمت الاستشارية النفسية بوعدها إياها وأرسلت لها رسالة بكل تفاصيل الزيارة التي ستكون بظهيرة الغد، أطلقت زفرة ارتياح فهي الآن لا تخشى مقابلة أياً من أوهامها فإذا فاجأها إحداهم ستتصدر له بقوة فكونها اعترفت لنفسها بأزمتها يعني أنها قد تخطت منتصفها واقتربت من طريق التعافي وكونها خطت أولى الخطوات بطريق التعافي يعني أن هلاوسها التي تتغذى على خوفها ستكون أضعف ما يكون إذا ما واجهتها؛ وهزيمتها هي أسهل ما يكون إذا ما تعاركت معها.

لم يكن ذلك آخر الأمر فقد استجاب الهاتف لرجائها إياه بأن يجلب لها مفاجأة فقد وجدته يدق مرة أخرى، التقطت المكالمة سريعاً لتجد صوتاً ذكورياً على الجانب الآخر يجيب مستفسراً عن هويتها فأجابت بخجل شديد: كابتن عماد .. أنا آسفة إني كلمتك في وقت مش مناسب .. أنا داليدا مامة كريم ابن حازم زميل حضرتك

تبدلت نبرات صوته وكساها الترحيب وهو يجيبها: مدام داليدا .. أهلاً بيكي ..

متقوليش كده .. حضرتك تكلميني في أي وقت .. أنا اللي آسف اني مسمعتش اتصالك من شوية

ارتاحت نبرات صوتها لرده بهذه الطريقة: معلش أنا آسفة مرة تانية بس بجد أنا مش عارفة أوصل لحازم بأي طريقة وسيبتله كذا مسدج إن كريم تعبان ومحتاجه يكلمه وللأسف مردش عليا في ولا مرة

بدا الحرج على نبرات صوته وهو يقول في تردد: واضح إنك متعرفيش !!

خفق قلبها وقد شعرت أنها ستستمع إلى خبر قد يسوئها: معرفش إيه بالظبط؟

تلعثم قائلاً: أنا مش عارف أقولك إيه بصراحة

قالت بانفعال: أرجوك لو سمحت قولي في إيه بالظبط

أخذ نفساً عميقاً ثم أخرجه دفعة واحدة وهو يلقي على أذنيها بقنبلته: أصل حازم اتقبض عليه وفي السجن حالياً

لم تعد تعنيها التفاصيل في شيء فلم يعد أي شيء تمر به أو تسمعه في هذه الليلة يمت إلى المنطق أو المتوقع بأي صلة.

***

-مدام داليدا .. اسمحيلي من هنا ورايح اقولك داليدا بس لأن من اللحظة دي احنا هنبقى أصدقاء .. احنا قدامنا خمسة واربعين دقيقة هندردش فيهم مع بعض عن أي حاجة وكل حاجة بس بشرط إنك تثقي فيا وتثقي إن الكلام اللي بيتقال في الأوضة دي محدش بيسمعه أو يعرف عنه حاجة غيرنا إحنا الاتنين .. تقدري برضه تندهيلي حسام بس من غير دكتور .. احنا اتفقنا نبقى اصدقاء .. والأصدقاء مبيستخدموش ألقاب وهما بيتعاملوا مع بعض .. قبل منبتدي الجلسة دي استمارة هتمليها ببياناتك الشخصية والحالة الاجتماعية ولو بتعاني من أي نوع من الأمراض .. احنا هنتقابل مرتين كل أسبوع في البداية ممكن يبقوا أكتر على حسب متحبي وعلى حسب مشوف إذا كان الموضوع يستدعي ده ولا لأ .. لو حسيتي بعد نهاية الجلسة إنك مش مرتاحة أنصحك كطبيب نفسي أولاً وثانياً كصديق زي ما اتفقنا إنك متكرريش الزيارة لأن الأساس اللي هتمشي عليه خطة جلساتنا هو الثقة والارتياح والمصارحة ..... اتفضلي املي البيانات

ناولها الورقة بابتسامة ودودة للغاية فأخذتها منه بيد مترددة، تشعر أنها على حافة تكرار تجربة مرت بها منذ سنوات وأودعتها طي النسيان؛ لكن ما بين التجربة السابقة والحالية دهراً؛ حياة كاملة مطالبة أن تختصر أحداثها؛ أفراحها وأحزانها في خمس وأربعين دقيقة فقط لا غير.

رفعت عينيها إليه بعد أن فرغت من تعبئة الورقة ببياناتها الشخصية فوجدته يتفحصها ويراقب حركة يديها أثناء الكتابة، شعرت بحرج بالغ التقط هو إشاراته على الفور فقام عن مكتبه يتحرك بحرية باتجاه المكتبة الضخمة التي تقع في جانب الغرفة الفسيحة فأتاح لها الفرصة لتتأمله عن كثب، شاباً وسيماً وإن صدق حدسها فسيكون في مثل عمرها أو يصغرها بأعوام قليلة، شعره ناعم وخصلاته فاحمة كثيفة تلتمع في أناقة وقد مشطت سوياً إلى الخلف، منظاره الأسود العاجي يتماشى مع سواد خصلات شعره وأيضاً مع حاجبيه الكثيفين اللذان تتنافس شعيراتهما في سوادها مع لون شعره وإطار نظارته، وجهه ممتلئ يميل إلى الاستدارة وطوله متوسط لا هو فارع القامة ولا قصيرها كما أن مظهره يوحي بعد ميله للاهتمام بممارسة أي نوع من أنواع الرياضة فتركت جلسته خلف المكتب لساعات طويلة أثرها على بروز بطنه الغير ملحوظ إلا للمدقق النظر في تفاصيله، يبدو بسيطاً وفي غاية التلطف والمرح لكن ذلك لا يمنع أنه غريب الأطوار إلى حد كبير ويبدو ذلك من جرعات المرح والتودد المبالغ في شأنها وهو الذي لم يتعرف إليها إلا للتو؛ أيضاً تحركاته المفاجئة والسريعة الإيقاع وتلك اللوحات السريالية المنتشرة على جدران الغرفة من حولها كما أن أسلوب ملبسه يوحي بنفس الشيء؛ الأمر الذي جعلها تخشى التحدث معه وتخشى ردود أفعاله إن هي أقدمت على توجيه أي نوع من أنواع الحديث إليه.

انتقى كتاباً من تلك المكتبة وتقدم باتجاه مكتبه مرة أخرى وهو يسألها في اهتمام: بتحبي القراية؟

أومأت برأسها ولم يستفز هذا السؤال رغبتها في الحديث بعد فبادرها بآخر: بتقري لمين على كده؟

-مش حد معين .. بس أنا زمان كنت بحب أقرا لإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي أوي .. حالياً مبقاش عندي وقت إني أقرا كتير زي زمان

-عظيم .. ليكي هوايات تانية غير القراية

ابتسمت في تواضع: يعني .. بلعب كمان بس على قدي

اتسعت ابتسامته وقد شعر أنها قد بدأت تستجيب لمحاولاته في كسر جمود الجلسة: واااو .. أنا بحب الكمان أوي بس بصراحة محاولتش أتعلم قبل كده .. كفاية عليا أسمعه وخلاص

ابتسمت مجاملة له ثم لاذت بالصمت مرة أخرى فترك الكتاب الذي بيده وتطلع إلى استمارة ملء البيانات ثم رفع عينيه إليها قائلاً: مكتوب في الحالة الاجتماعية إنك منفصلة ومكتوب برضه إنك خضعتي للعلاج النفسي قبل كده .. هل كان العلاج ده في نفس فترة الانفصال

هزت رأسها نافية: لأ خالص .. أنا أول مرة أزور دكتور نفسي بعد الانفصال .. آخر مرة كانت من سنين طويلة أوي

شبك أصابع يديه أمامه وأراحهما على المكتب قبل أن يقول: طب تحبي نبتدي من مرحلة الانفصال ولا نبتدي من وقت الأزمة القديمة اللي كنتي بسببها بتروحي لدكتور نفسي

نظرت إليه في دهشة فرفع حاجبيه في ثقة: من غير تخمين .. انتي انسانة طبيعية جداً .. حركاتك .. كلامك .. مشيتك .. ردود أفعالك .. كلها طبيعية .. يبقى الأسباب اللي ممكن تخليكي تروحي لدكتور نفسي سواء دلوقتي أو قبل كده هتبقى أزمة صعبة ومش قادرة تعديها لوحدك من غير مساعدة من حد

لم تعلق على محاولته تفنيد حالتها بشكل مبدأي ولاذت بالصمت من جديد فخلع نظارته عن وجهه وقد بدأ يصيبه الضجر: مش هينفع .. لازم تتكلمي .. أنا هنا علشان اسمعك وطالما وصلتي للمكتب ده يبقى انتي فعلا محتاجة تحكي ومش لاقية حد يسمعك فأرجوكي ساعديني علشان أقدر أساعدك

أومأت برأسها في تردد فشعر أن شبح استجابة طفيفة لمحاولاته قد بدأ يلوح له من نظراتها المترددة فارتدى نظارته مرة أخرى وهو ينظر إليها في اهتمام: ها .. أنا سامعك

أدارت عينيها في أرجاء الغرفة تبحث عن نقطة تتعلق بها في الفراغ وتوجه حديثها إليها دون أن تضطر إلى مواجهة نظراته التي لم تكف عن تفحصها حتى تعفي نفسها من الحرج فهي على يقين أنه يمارس عمله ليس إلا لكن ذلك لا يستطيع أن

يدفع الحرج عنها، أخيراً وجدت غايتها في لوحة من القطيفة السوداء خط عليها آيات من الذكر الحكيم بخيوط ذهبية براقة واستقرت بداخل إطار ذهبي تزينه الحلى المصنوعة من الخشب والتي تم طلائها بنفس اللون الذهبي.

لم تكن قد انتبهت لها في البداية وسط هذا الكم من اللوحات التي تعج بها جدران الغرفة التي أقرب إلى جاليري منها إلى عيادة طبيب نفسي لكنها ارتاحت كثيراً لما علقت أنظارها بها فأخذت نفساً عميقاً قبل أن تستجمع شجاعتها لتشرع في الحديث: أنا مش عارفة ابتدي منين بالظبط بس أنا بشكل عام مش مبسوطة .. مش راضية عن حياتي خالص لا قبل الجواز ولا بعد الجواز ولا بعد الطلاق حتى

توقفت تلتقط أنفاسها واستدارت تنظر إليه فوجدته يحثها على الاستمرار فأدارت وجهها باتجاه الإطار الذهبي مرة أخرى وأكملت توجيه حديثها إلى الفراغ: لما قابلت حازم كنت محطمة نفسياً .. كنت بحب واحد وهوا كان بيحبني أوي بس ظروفه مكانتش مناسبة خالص .. اتقدملي وطبعاً بابا رفضه وشبه طرده من البيت هوا وأهله .. اللي كمل عليا وقتها أنه بعد فترة قليلة لقيته ارتبط بأعز صاحبة ليا .. تقريبا كانت الصاحبة الوحيدة اللي بثق فيها .. فجأة لقيت كل حاجة بتروح مني .. كرهت البيت أكتر ما كنت كرهاه .. علاقتي ببابا بقت من سيئ لأسوأ .. جالي اكتئاب لدرجة إني كنت مبخرجش من أوضتي وبقوم من النوم علشان أنام تاني

كانت نبرة الحزن تغلب على كلماتها فتوقفت مرة أخرى تلتقط أنفاسها فاستغل هو تلك الفرصة ليطرح عليها سؤالاً كان يستفز فضوله بشدة: طب ومامتك كان موقفها إيه من الوضع ده؟

تجاهلت سؤاله وأكملت وهي توجه أنظارها للفراغ مرة أخرى: لما بدأت أحاول أخرج من الحالة اللي كنت فيها كان أول حد صادفني هوا حازم .. كان أكبر مني بعشر سنين .. لف العالم عشرين مرة على الأقل .. كان عنده حكايات لو قعد شهور يحكيها مش هتخلص .. منكرش إن أنا انبهرت بيه في البداية وخصوصاً لما بدأ يلمحلي أنه معجب بيا .. مكنش بيحبني وانا كنت عارفة كده كويس .. من الآخر كان بيوهمني أنه بيحبني وأنا كنت وصلت لمرحلة إن أنا محتاجة حد يحسسني أنه بيحبني حتى ولو بالكدب .. مكنش فارق معايا هوصل لإيه في الآخر المهم عندي إني كنت اخرج من دوامة حبي لعمر وصدمتي فيه .. حازم اتقدملي وطبعاً وقتها بابا رحب بيه جداً .. شاب .. وسيم .. طيار .. مستواه المادي والاجتماعي كويس جداً .. من عيلة كبيرة وألف حد يتمناه .. يومها سألت نفسي .. الألف حد اللي يتمنوه أنا واحدة منهم ولا لأ؟؟ .. هل انا فعلاً بحبه وهوا ده الإنسان اللي

عايزة أكمل معاه؟؟ .. معرفتش أجاوب ساعتها بس كل اللي كنت عارفاه ومتأكدة منه إني عايزة ابتدي حياة جديدة بعيد عن أي حاجة ممكن تفكرني بعمر .. بعيد عن أصحابي ومعارفي وقرايبي .. بعيد عن البيت وعن بابا .. وكفاية عليا اهتمام حازم بيا وحكاياته اللي مبتخلصش وكلامه ليل نهار عن حبه ليا

صمتت لحظات والألم يعتصر ملامحها فتردد قبل أن يسألها على استحياء: وبعد متجوزتوا؟

التفتت تنظر إليه وهي تجاهد دموعها كي لا تفر من عينيها: مات الكلام .. زي مبيقولوا!!

أدارت وجهها مرة أخرى بالاتجاه المعاكس: مش الكلام بس اللي مات .. كل حاجة حلوة ممكن تتخيلها ماتت .. أنا كنت عارفة من أول يوم شفت فيه حازم أنه بيمثل عليا الحب بس اللي مكنتش اتوقعه انه يزهق من التمثيل بسرعة كده .. بمجرد متجوزنا اتحول لبني آدم تاني غير الشاب الذوق الجنتل مان اللي كان مبيبطلش حكايات .. اللي كان بيحسسني في كل تصرف وفي كل لحظة إن أنا أحسن واحدة في الدنيا كلها .. هوا مكنش بيبالغ لما كان بيقول كده على فكرة .. بالنسبة لكم العلاقات العاطفية والتجارب اللي عاشها مع بنات وستات من كل حتة في العالم كنت تقريباً أفضل واحدة ممكن تحافظ على لقب حرم كابتن حازم دويدار .. وبعدين حازم كان عنده حب امتلاك فظيع ومبيحبش يملك غير كل حاجة مميزة وميحبش حد يملك حاجة مميزة عنه فكان لازم يسرع بالخطوبة والجواز لما حس إن كذا حد من أصحابه في النادي اللي كنا مشتركين فيه واتقابلنا فيه بدأوا يلمحوا بإعجابهم بيا .. فاكتشفت بعد فترة بسيطة ان انا زيي زي العربية السبور والهدوم السينييه وبدلة الطيران اللي بتزغلل عينين أي حد بيشوفه صدفة حتى لو ميعرفوش .. فكان لازم علشان يكمل الوجاهة يكون في زوجة يحط صورتها جنب صورته علشان يطمن أهله من نحيته ويسد كلام الناس شوية عن سلوكياته وتصرفاته والناس كلها تشوف بعينيها أنه لما جه يتجوز اتجوز واحدة مالهاش زي ورغم كل ده بتحفظه في غيابه أكتر من وجوده .. وعلشان كمان الناس تشوف صورهم وهما بيلفوا العالم سوا وتحسدهم على السعادة اللي عايشين فيها .. إنما الزوجة دي لما بيتقفل عليهم باب بيت واحد ممكن يعدي يوم واتنين وتلاتة ميوجهلهاش فيهم كلمة واحدة .. ده غير طبعاً خيانته ليا طول الوقت اللي كنت ببقى عارفاها ومتأكدة منها ومع ذلك كنت أنا اللي بتهرب من مواجهته بيها لدرجة أني لما كنت بلاقي أي حاجة وسط شنطة هدومه تأكدلي أنه كان بيخوني كنت انا اللي بخبيها بنفسي.

لم يعد في استطاعتها مقاومة دموعها التي انحدرت رغماً عنها غزيرة ساخنة فناولها منديلاً ورقياً وهو يسألها: معلش مع احترامي للي انتي بتقوليه .. إيه اللي يخليكي تتحملي واحد بالأخلاق دي وكمان مبتحبيهوش ولا هوا بيحبك وانتي عارفة ومتأكدة من ده

مسحت دموعها بطرف المنديل: علشان مبقاش ليا غيره .. أنا كنت حابة فعلا ابتدي حياة جديدة وكنت خايفة أحن لعمر ولو حتى بالتفكير علشان كده قاطعت كل الناس اللي ممكن وجودهم في حياتي يخليني افتكر عمر .. كنت حابة أكون زوجة مخلصة لزوج ميعرفش في حياته غير الخيانة وقعدت أصبر نفسي أنه بكرة يتغير .. بكرة يزهق .. بكرة لما ربنا يرزقنا بأولاد هيبطل علشان خاطر ولاده

قاطعها وقد عقد حاجبيه في ضيق: أسوأ جريمة ممكن يرتكبها إنسان في حق نفسه أنه يعيش مع إنسان تاني في انتظار فرصة بديلة .. يعني يعلق تغيير خصال بتضايقه في الإنسان ده على حدث معين .. بكرة لما نتجوز يتهدي .. لا بكرة لما يلاقي شغل مناسب .. لا بكرة لما نخلف .. بكرة لما ولاده يكبرو .. وبكرة يجر بكرة وبعده وبعد بعده ويفضل مستني بكرة اللي عمره مبييجي ولا عمره هييجي لأن البني آدم اللي عايز يتغير مش مستني حاجة معينة تحصل علشان تغيره أو يتغير علشانها .. هوا بياخد القرار مع نفسه وبينفذه برضه مع نفسه .. محدش بيتغير علشان خاطر حد ولا علشان خاطر حاجة .. اللي بيتغير بيتغير علشان خاطر نفسه وعلشان هوا فعلاً عايز يتغير وعن اقتناع مش مجرد إرضاء لشخص أو لموقف

أومأت برأسها موافقة: وده فعلا اللي حصل .. حتى بعد ما ربنا كرمنا بكريم بدل ما كان بيتجاهل وجودي لوحدي بقى بيتجاهل وجودي أنا وكريم وبرغم أن الولد أول ما بدأ يوعى كان متعلق بيه جداً بس هوا كان طول الوقت يزعقله ويشخط فيه ده غير طبعا لما كان بيبقى أجازة ومعندوش طيران كنت ببقى حاطة إيدي على قلبي أحسن كريم يشوفه كل ليلة وهوا راجع سكران وريحة الخمرة فايحة منه

امتعض لدى سماعه ذلك فوجه لها سؤالاً: وطبعاً مفكرتيش تطلقي رغم كل ده

هزت رأسها نافية: فكرت بدل المرة ألف وكل ليلة كنت بتمنى الطلاق بس بصة في وش ابني والفرحة اللي في عينيه لما أبوه بيفتح باب البيت وبيدخل عليه حتى ولو موجهلوش كلمة .. جريته نحيته وفرحته وهوا بيقول بابي جه .. كانت بتخليني أشيل الفكرة من دماغي تماماً لأني كنت واثقة ان لو حصل طلاق حازم هيرمينا ومش هيسأل عن كريم نهائي وده اللي حصل فعلا عشان كده أنا مكنتش حمل

بصة لوم واحدة من عينين كريم أو حتى أنه يفكر بينه وبين نفسه أن أنا السبب في إن أبوه بعد عنه ومع ذلك ورغم كل ده لقيت حازم هوا اللي عايز يبعد ولما رفضت أسافر معاه لقيته بيتكلم في اجراءات الطلاق بسهولة زي ما يكون كان عارف أن ده ردي ومجهز نفسه علشان يرد على ردي ده بالرد المناسب ليه.

صمتت لدقيقة كاملة وكأنها اكتفت بهذا القدر الذي قصته عليه فوجه إليها نظرة عميقة وهو يقول متفهماً: متهيألي كفاية كده النهاردة وممكن نكمل كلامنا بكرة لو حبيتي

أسرعت تقول: بس يا دكتور احنا متكلمناش عن الهلاوس اللي بشوفها والحاجات اللي بيتهيألي انها بتحصل

ابتسم: أولاً أنا اسمي حسام .. دكتور دي خليها للناس الغريبة انما احنا أصحاب .. ثانياً متستعجليش وسيبي كل حاجة تيجي في وقتها .. أنا مبحبش اكتب أدوية بس ممكن أكتبلك مهدئ تاخديه بس عند اللزوم

ألقى جملته الأخيرة في لهجة محذرة ثم خط كلمات معدودة قبل أن يناولها الورقة وقد اتسعت ابتسامته: هشوفك تاني يا داليدا

***

لم تصدق عينيها والباب ينفتح أمامها وتجده يعبره مرتدياً ذلك الزي، كان مولعاً طيلة عمره بزي الطيران وكانت قلما تشاهده لا يرتديه لكن أن يصبح رداءه اليوم هي تلك البدلة البيضاء التي يرتديها كل من حبس احتياطياً على ذمة التحقيق قبل أن يبت في أمره بشكل نهائي ويستبدلها بأخرى زرقاء أو يكون حسن الحظ ويستبدلها بملابسه التي قبض عليه بها ورحل إلى هذا السجن وهو مرتديها قبل أن يودعها الأمانات.

صعقته رؤيتها فقد كانت آخر شخص يتوقع أو يتمنى رؤيته في هذا المكان، برغم كل ما كان وكل ما حدث لم تستطع أن تمنع دموعها من أن تنساب على خديها وقد هز كيانها أن تجده هكذا وأن تجد نظرة انكسار تحتل عينيه وتزيح ذلك الكبرياء الذي كان يملأهما.

اقترب منها ومد يده إليها فقامت عن مقعدها وصافحته بحرارة وشدت على يده بيدها الأخرى قبل أن يقوم الضابط ذو البدلة العسكرية باللون الكاكي القاتم عن

مقعده وقد كان مستريحاً خلف هذا المكتب الخشبي العريض، أبدت امتنان عظيم له فهو بمجرد أن تفحص هويتها التي تفيد عملها في منظمة حقوق الإنسان حتى رحب بها وذيل طلبها المقدم لمقابلة زوجها السابق بمكتبه بتوقيعه ثم أرسل إليه من يستدعيه على الفور بعد أن أصر على أن يقوم بتحيتها بكوب من عصير الليمون المثلج.

كان في غاية الذوق والاحترام وهو يتوجه إلى الخارج قائلاً إنه سيتفقد أمر بعض المسجونين ريثما تتناول هي مشروبها على مهل

بمجرد أن أغلق الباب من خلفه نظر إليها في تأثر: إيه اللي جابك هنا وانتي عرفتي ازاي أصلاً إن أنا هنا؟

نظرت إليه بإشفاق ودموعها لم تتوقف: ليه مقولتليش يا حازم؟

خفض عينيه أرضاً في خجل: مكنش ينفع يا داليدا .. بكفاياني ظلم بأه .. أنا من يوم متجوزتك وانا ظالمك معايا وانتي مستحملة الظلم ده ومبتفتحيش بقك بكلمة واحدة تعترضي فيها على أي حاجة أنا بعملها يبقى أكمل ظلم وأخليكي على ذمتي بعد كل ده وانا في الوضع ده كمان؟؟!!

-وافرض كنت قلتلك هسافر معاك كنت هتعمل إيه ساعتها

-كنت عارف انك مش هترضي .. كنت بشوفها في عينيكي كل يوم وبسمعها حتى لو مقولتيهاش .. كنت عارف إن نفسك أعتقك من القرف والذل اللي كنتي عايشة فيه بس مكنتيش بتقوليها علشان انتي بنت ناس ومتربية وعلشان خاطر كريم .. كريم اللي انا مستاهلش ضافره ولا استاهل ان بني آدمة نضيفة ومحترمة زيك تفضل على ذمتي يوم كمان .. علشان كده كان لازم أطلقك علشان تخلصي من قرفي وقبل ما أطلقك أنا كنت ناقل كل حاجة بإسمك بيع وشرا عند المحامي بالتوكيل اللي انتي كنتي عملاهولي.

تجاهل تعبير الذهول المرتسم على ملامحها وأكمل في أسى: اللي بيحصلي ده ذنبك يا داليدا ذنب كل المر اللي انا سقيتهولك السنين اللي فاتت .. ذنب حياتي اللي كنت عايشها بالطول وبالعرض وسايبك مرمية في البيت مبفتكركيش غير في المناسبات الاجتماعية علشان يتقال كابتن حازم وحرمه سيدة المجتمع الراقي .. مجرد ديكور .. أنا آسف أني بقولك كده دلوقتي .. بس صدقيني ربنا أخدلك حقك مني وانا عرفت قيمتك بس بعد فوات الأوان .. علشان كده لما ربنا انتقملك مني حبيت احررك من

أي ارتباط بيا علشان متبقيش مرات واحد رد سجون زيي

رق قلبها له: طب اللي حصل ده حصل ازاي؟

أدار وجهه بالاتجاه الآخر: حصل زي مبيحصل كل مرة وزي ما كنت بعمل على طول .. كنت سهران زي كل ليلة وراجع بالعربية طاير مش شايف قدامي محستش بنفسي غير لما خبطت الراجل ولقيت جسمه بيطير في الهوا قدامي .. المشكلة ان انا وبكل ندالة موقفتلوش حتى وكنا قرب الفجر والشارع كان فاضي ومفيش حد يسعفه .. جريت بالعربية وركنتها بعيد عن البيت وفضلت طول الليل سهران مش عارف أنا عملت كده ازاي ولا المفروض اعمل ايه .. لما طلع النهار مع أول بصة في وشك وفي وش كريم قرفت من نفسي أوي .. أول مرة أحس إني بحتقر نفسي علشان حسيت أد إيه أنا بني آدم زبالة ومستاهلش النعمة اللي انا عايش فيها علشان كده قمت نازل للمحامي وعملت عقود بيع لكل حاجة مني ليكي وعملتله توكيل علشان يوثقها في الشهر العقاري وطلعت على البنك سحبت كل رصيدي وعملته وديعة بإسمك وبعدين جيت بلغتك بقرار السفر وعلشان كنت واثق إنك مش هتقبلي حاجة زي كده قلتلك نتطلق ولميت حاجاتي ووديتهم في شقتي القديمة وخلصت اجراءات الطلاق وسلمت نفسي

انحدرت دمعة ساخنة من عينه وهو يقول بندم: بس كان الراجل مات للأسف

سكت للحظة ليقطع الطريق على المزيد من الدموع ثم أكمل بلهجة تنم عن الضياع: المحامي حاول يطمني بس مكدبش عليا في إن موقفي ضعيف بالذات ان انا خبطته وموقفتلوش وطبعاً أهله رافضين أي نية للمصالحة أو التنازل

أجهشت بالبكاء لدى إدراكها لشدة تعقيد الموقف فأمسك بساعديها وهو يقول بتأثر: متعيطيش علشاني أنا زبالة ومستحقش دموعك دي .. أنا أزبل واحد ممكن تكوني شوفتيه أو عرفتيه في حياتك .. أنا مفيش حاجة وحشة معملتهاش .. انا عايزك تنسيني .. انسي ان انا دخلت حياتك ودمرتلك نفسيتك .. أنا السبب في كل الأدوية اللي كنتي بتاخديها .. أنا السبب في أن علاقتك بكل اللي حواليكي باظت .. أنا طفيتك يا داليدا .. خليتك تدبلي قبل أوانك .. ومش هسمح لنفسي أني اغلط في حقك أو في حق كريم أكتر من كده وكفاية عليا أني خدت جزاتي عن كل اللي فات

كانت تود لو باستطاعتها أن تخفف عنه الأمر لكن لم يكن في مقدورها سوى أن تذرف المزيد من الدموع في الوقت الذي اخترق سكون الكآبة التي حلت على

المكان من حولهما طرقتين متتاليتين أعقبهما دخول الضابط فهب عن المقعد الذي جلس فيه أمامها وقام ينظر إليها بأسف شديد وما لبث أن بدأ يتخذ خطوات سريعة للخارج بعد أن تراءى له أن الموعد القصير المحدد للزيارة قد انتهى بالفعل فالتفت إليها قبل أن يعبر الباب إلى الخارج بصحبة الشرطي: أنا آسف يا داليدا .. آسف على كل الألم والأذية اللي اتسببتلك فيهم واللي لسه بتسببلك فيهم لحد دلوقتي

اختفى من أمامها قبل أن تسهم دموعها التي لم تجف في المزيد من إيذاء ضميره الذي استيقظ بعد فوات الأوان.

***

أخذت تركض باتجاه سيارتها حتي استقلتها وانطلقت بها بأقصى سرعة مبتعدة عن هذا المكان المقفر قدر الإمكان، بمجرد أن تراءت لها منطقة مأهولة بالسكان أوقفت محرك سيارتها وجلست تبكي بحرقة، انقسمت مشاعرها إلى نصفين؛ نصف متعاطف معه ومشفق عليه بينما النصف الآخر يشعر أن هذا هو حقها أن تراه ذليلاً كما عاشت إلى جواره طيلة فترة زواجهما، شعرت بضياع من نوع آخر حين دق هاتفها ووجدتها أم شادي تخبرها أن ابنها لم يكف عن البكاء لقرابة ساعة كاملة، انتابها شعور قهري بالفشل بمجرد أن أنهت المكالمة معها؛ فها هي ذا تتهرب من مسئولياتها تجاه ولدها وتلقي بها على كاهل مربيته وتتركه بحجة أن يلهو مع أولادها بمنزلها بعيداً عن أجواء المنزل المتوترة وتتهرب من مسئولياتها تجاه عملها وقد طلبت من رئيسها بالعمل منحها أجازه طويلة الأجل ولم تبالي بإخباره بمنتهى الصراحة عن معاناتها من مشاكل نفسية حتى تحثه على الموافقة على الإجازة بعد أن كانت تتحاشى طيلة السنوات الماضية الخوض في أياً من تفاصيل حياتها مع أياً من زملاء العمل.

كان احساس الضياع يتضاعف بداخلها ويتفاقم حين دق الهاتف من جديد فأسرعت تلتقط المكالمة خشية أن يكون الأمر متعلق بابنها مرة أخرى، صعقها سماع صوته لكن شيئاً ما في أعماقها ارتاح كثيراً لذلك، كان صوته يخترق حدود أذنها ويتجه إلى أعماق قلبها مباشرة، حاولت جاهدة أن تخفي نبرات الإعياء البادية على صوتها من أثر البكاء لكن كيف لها هذا مع شخص يمتلك كل مفاتيح شخصيتها ويحفظ خريطة معالمها عن ظهر قلب

ظهر الجزع في صوته وهو يقول في قلق حقيقي: مالك يا داليدا .. مال صوتك ..

انتي بتعيطي؟

اختنق صوتها فلم تستطع إجابته وإن كانت تتعجب في قرارة نفسها كونه مازال يمتلك حدساً قوياً ينبئه باحتياجها إليه حتى ولو أن بينهما كل هذا البعد وكل هذه المسافة

وجدته يلح عليها بالسؤال مرة أخرى: داليدا الله يخليكي متقلقنيش عليكي .. انتي كويسة طيب .. فيكي إيه .. طمنيني وحياة أغلى حاجة عندك

مسحت دموعها بأطراف أناملها: مفيش .. مخنوقة شوية

بدون أية مقدمات وجدته يقول لها باندفاع: داليدا .. هوا انا ينفع اشوفك دلوقتي؟

لم يكن يحتاج إلى أي نوع من الإلحاح ليجبرها على قبول عرضه فقد كانت بالفعل في حاجة شديدة إلى مثل هذا اللقاء وحاجتها إليه تفوق حاجته أضعافاً مضاعفة

***

كل شيء كما تركته آخر مرة منذ سنوات، نفس الدفء الذي ينبعث من جنبات المكان رغم برودة الجو بالخارج، الطاولات المربعة الزوايا، المقاعد الخشبية التي أعيد تجديد طلائها وكسيت بالجلد، الواجهات الزجاجية العريضة التي تطل على الشارع الرئيسي حيث المارة لا يتوقفون عن الحركة ذهاباً وإياباً والجالسين بالداخل لا يتوقفون عن مراقبة حركتهم فتشعر وأنت تراهم أن الحياة من حولك تركض بينما تتخذ لنفسك فرصة للتمهل ومراقبتها عن كثب، رائحة البن المحمص تنبعث من الأركان وصوت فيروز يصدح بأغانيها العذبة، حتى الأمطار التي بدأت تنهمر بمجرد ما إن اقتربت راودها شعوراً قوياً من كونها تتواطأ مع كل شبر في هذا المكان لتعيد إليها ذكرياتها دفعة واحدة وتتذكر مواقف بعينها كانت تظن أنها نجحت في محوها من ذاكرتها.

أدارت رأسها بالمكان فوجدته تماماً كما تركته منذ سنوات يجلس بنفس الطاولة في مكانهما الأثير على نفس المقعد الذي دائماً ما كانت تتخذ آخر في قبالته فيظل طيلة اللقاء مثبت أنظاره عليها لا يدير رأسه بأي اتجاه لا تكون هي به.

تذكر أخر مرة شفتك سنتا .. بتذكر وقتا آخر كلمة قلتا

وما عدت شفتك وهلأ شفتك .. كيفك أنت ملا أنت

قام عن مقعده وأضاءت وجهه ابتسامة سعادة عارمة فمد يده إليها وقد تلهفت كل حواسه لهذا العناق الذي حرمته منه الحياة لسنوات فترددت لحظة قبل أن تمد يدها وقلبها يخشى أكثر ما يخشى أن يخفق للمسة يده كما كان يفعل بالماضي، خانها عناد قلبها وصدقت تنبؤاتها حين لامست كفه أناملها واعتصرتها وكأنه يفرغ شوق السنين في لحظة واحدة، تسمرت في مكانها فلم تقوى على إفلات يدها من كفه فتركته يشبع حواسه على أمل أن يكتفي سريعاً فلم تكن تجد في نفسها لا القدرة ولا الرغبة عن كف يده عن احتضان يدها حتى تمكنت أخيراً من اتخاذ قرار بجعل يدها تنزلق من أحضان راحته بعد أن شعرت أن وقفتهما التي طالت قد بدأت تجذب الأنظار من حولهما.

كيفك قال عم بيقولو صار عندك ولاد

أنا والله كنت مفكرتك برات البلاد

سرى الدفء في جسدها وزاد من ضخ الدماء في أوردتها عناق الأكف الذي مازالت تختلج من أثره فقررت خلع سترتها الجلدية عنها لتجنب المزيد من سخونة الدماء التي بدأت تجد طريقها إلى وجنتيها وأطراف أذنيها فلم يكتف بكل هذا القدر من الاحمرار البادي عليها واقترب بجسده منها يعاونها على خلع سترتها فداعبت أنفها رائحته التي لا تخطئها والتي صنعت المزيج المفضل لديها حين اختلطت بعطره الذي لا يزال رغم كل هذه السنوات يخلص له ولا يفضل عليه آخر.

رفعت خصلات شعرها بكلتا يديها تحركهم إلى الأعلى ليستووا خلف ظهرها خشية أن يكون اقترابه الزائد منها قد أفسد تصفيفه لكنها لاحظت تعلق عينيه بها تماماً كما كان يفعل بالماضي فتوقفت عن ذلك وحركت عينيها باتجاه الطريق بالخارج الذي كان هو يوليه ظهره كعادته مفضلاً مراقبة ملامحها عن مراقبة المارين بالخارج.

ارتفع صوت فيروز بأغنية رجعت الشتوية التي من الواضح أنها قررت الانضمام لمؤامرة التواطؤ مع كل الظروف من حولهما حتى تختزل كل السنوات التي مضت وهما بعيدان عن بعضهما وتهدي إليهما لقاءاً يحمل طابع الماضي ورائحته العطرة

-لسه بتحبي الشتا؟؟

قالها وهو ينظر إليها بهيام فابتسمت في خجل وهي تهز رأسها ثم نظرت إليه ولا زالت ابتسامتها عالقة بشفتيها: وانت لسه بتكرهه برضه؟

هز رأسه نافياً: بالعكس ده انا بقيت بعشقه

خفضت رأسها وقد ضربت السخونة أعماق وجنتيها فابتسم حين وجد الخجل يعتريها ويتملك منها فنظر إليها نظرة ذات مغزى: فاكره الأغنية دي؟

ضحكت من قلبها فتنهد بعمق: فضلتي تعيدي وتزيدي فيها لحد مزهقتيني وخلتيني أقفل الكاسيت .. فقعدتي انتي تغني الكوبليه بتاع رجعت الشتوية .. ضل افتكر فيا .. ضل افتكر فيا .. لحد منزلت أنا من عربيتك وحلفت أروح مشي

ارتفع صوت ضحكاتها وهي تضع يدها أمام فمها مانعة المزيد من الضحكات من الانفلات وهي تقول: وفضلت ماشية وراك بالعربية وفاتحة الإزاز وعمالة أغني نفس الكوبليه

ضحك بدوره ثم توقف وهو ينظر إليها بحنان: ساعات بحس انك كنتي بتدعي ساعتها مش بتغني .. وكأن باب السما كان مفتوح وربنا استجاب لدعوتك

أرادت أن تراوغه لتغير مجرى الحديث فقالت في مرح: لسه برضه مبتحبش فيروز؟

أغمض عينيه كأنه يتألم ثم فتحهما وهو يزم شفتيه بصوت ينم عن رفض ما أقرته ثم تجول بعينيه في ملامح وجهها يشبع أنظاره منها: أنا بقيت بعشق أي حاجة من ريحتك .. أي حاجة بتحبيها أو حبتيها .. أي حاجة بتفكرني بيكي .. ولو إني أصلاً ملحقتش أنساكي

رفعت عينيها بمواجهة عينيه للمرة الأولى منذ بداية لقاءهما فشجعته على الخوض في المزيد: انا منستش اي حاجة .. معرفتش أنسى ولما عرفت .. مقدرتش .. قلبي مطاوعنيش أنساكي أو حتى أنسى أي تفصيلة كانت بيننا حتى ولو كانت بسيطة

أخذ نفساً عميقاً من الهواء ثم أطلقه: أنا لو قعدت أحكيلك أنا لسه فاكر إيه هتستغربي كأني كنت مفضي مخي وقلبي لحكاياتك وبس وأي حاجة جت قبلك أو بعدك عدت عليا كده كأنها ولا حاجة .. كأنها هوا

انتفض قلبها من عمق حديثه فحاولت أن توجه أنظارها بعيداً عنه لكنها لم تستطع فقد كان جزءاً بأعماقها مشتاقاً ومنتشياً لمعانقة تلك النظرات التي افتقدتها طوال السنوات الماضية واعترفت لنفسها أنه ليس وحده من يشعر بالحنين والافتقاد فهي مثله في هذا الأمر وقد بدد بنظراته تلك ودفء صوته كل مشاعر الأسى التي كانت

تعتريها منذ قليل ومحى عنها كل الألم الذي عصف بها في الأيام الماضية.

-محدش حب حد في الدنيا دي كلها أد ما انا حبيتك

قالها بدفء انتقل على الفور إلى أعماقها لكن قابلت هذا الدفء برودة كأنها زمهريراً فلم يستطع أن يصمد أمام قسوتها.

رفعت عينيها قائلة بمرارة: ومحدش جرح حد في الدنيا دي كلها زي ما انت جرحتني

بتذكر آخر مرة شو قلتلي .. بدك ضلي بدك فيكي تفلي

زعلت بوقتا و ما حللتا .. أنو انت هيدا انت

صدمته تلك القفزة بمنحنى الحديث فلم يكن يرغب أن يقترب بأي حال من منطقة ألامها التي تسبب لها بها فأراد أن يقفز بحاجز الزمن متخطياً تلك النقطة التي تجثم على أنفاسهما معاً فافتعل ضحكة وهو يقول بمرح: بس عارفة أنا مبسوط أوي علشان لما قولتلك نتقابل في مكاننا .. لا قولتيلي اللي هوا كان إيه .. ولا قولتليلي فين .. وجيتي على طول من غير أي مساعدات

ابتسمت لدعابته فتأملها: زي مانتي .. مفيش أي حاجة فيكي اتغيرت .. كأني آخر مرة شفتك فيها كانت امبارح

ابتسمت وهي تفرك رأسها بأناملها وتقول في مرح: عشر سنين تقريباً

قال في صوت يقطر مرارة: أسوأ عشر سنين عيشتهم في حياتي

وجدت في نفسها الرغبة لتفادى الخوض في مثل تلك الأحاديث وكأنها تخشى إفساد هذه اللحظة فتأملت كم التغيير الذي أحاط هيئته وهي تقول في نفسها لا تحكمي على وسامة رجل في العشرينات من عمره لكن انتظري اقترابه من الأربعين لتعرفي إن كان وسيماً حقاً أم لا.

حاولت أن تبدو مرحة: انت اللي شكلك اتغير خالص .. يعني لو مكنتش سمعت صوتك الأول يوم مشوفتك في الشارع يمكن مكنتش عرفتك

قال بحزن: الهم بيغير

ثم أكمل بنفس النبرة: بيكبر وبيعجز قبل الأوان .. وبيشيب كمان

حاولت أن تخفف من ثقل إيقاع الحديث فبادرته مازحة: ياما قلتلك بطل تسهر كل يوم علشان متعجزش بدري

لم تنجح محاولتها فأجابها بمرارة: هتصدقيني لو قلتلك إني قاطعت السهر من سنين السنين .. زمان كان عندي وقت بس مكنش معايا فلوس أسهر كل يوم .. بعد كده بقى معايا فلوس بس معدش عندي وقت .. ولما بقى عندي الاتنين .. الوقت والفلوس .. مبقاش ليا نفس

نظر بالأعلى ثم خفض نظراته وأكمل بنفس اللهجة: أنا مكنتش بحب السهر في حد ذاته .. أنا كانت عندي طاقة حب علشان ده الطبيعي وقتها في سننا ده .. واحنا صغيرين بيبقى عندنا طاقة حب رهيبة ممكن نديها لأي حد ولأي حاجة ولكل حاجة بنعلق نفسنا بيها .. مشاعرنا بتبقى متطرفة أوي ولما بنحب .. بنحب أوي .. بنحب الفريق الفلاني واللاعيب الفلاني والمطرب الفلاني ونعيط علشانهم بحرقة لو حصلهم حاجة ونفرح ونتنطط من الفرحة برضه علشانهم .. بس كل مبنكبر كل ما طاقة الحب دي بتقل واحدة واحدة ونبتدي نكتشف ان الفريق الفلاني واللاعيب الفلاني والمطرب الفلاني لا بيفرحوا لفرحنا ولا بيزعلوا على زعلنا ولا يعرفونا أصلاً .. ولو حياتنا وقفت حياتهم برضه ماشية ولو حياتهم وقفت مش هيفرق معانا في حاجة .. يعني أنا مثلاً كان بيتهيألي إني ممكن أموت لو بطلت سهر .. وبطلت ومموتش .. كان بيتهيألي اني ممكن أموت نفسي ولا إني أقولك كلمة تزعلك .. وعملت فيكي كل حاجة ممكن تزعلك وبرضه مموتش نفسي.

أخيراً وجد في نفسه الشجاعة للخوض في الحديث الذي ود لو يتهرب منه فأكمل بلهجة حزينة تنم عن الأسى الشديد: أنا آسف يا داليدا .. أنا قسيت عليكي أوي وقتها وقسيت أكتر على نفسي .. اتصرفت بغباء .. حطيت كرامتي في كفة وحبي ليكي في كفة واخترت الكفة الغلط للأسف .. مش هكدب عليكي واقولك اني اتجوزت إيناس علشان انساكي بيها .. لأ .. أنا اتعمدت اتجوز اقرب صاحبة ليكي علشان أوجعك .. كان نفسي اوجعك أوي علشان تحسي بربع الوجع اللي انا حاسس بيه وانا بحرم نفسي منك وبكامل إرادتي .. بس متقلقيش دفعت تمن غبائي ده غالي أوي .. عشر سنين من عمري .. عشت فيهم هربان من بلدي علشان انتي فيها .. هربان من كل حاجة بتفكرني بيكي وانا أصلا معنديش الجرأة أني أحاول انساكي أصلاً .. عشت في بلد مبحبهاش مع واحدة مبحبهاش .. بشتغل شغل مبحبهوش مع ناس مبحبهمش .. حتى بنتي مقدرتش أحبها زي ما أي أب طبيعي بيحب ولاده .. كأنك حكمتي على قلبي إن زي مانا خرجتك من حياتي بالعافية .. انتي كمان تخرجي

كل طاقة الحب اللي كانت جوايا بالعافية .. كنت كل يوم بلعن نفسي على اللي انا عملته معاكي واقعد اقول فيها ايه لو كنت بعدت عنك حبة لحد ما اهدى وبعدين رجعتلك تاني .. فيها إيه لو يوم مجتيلي المستشفى كنت سيبت الدنيا كلها وخدتك من إيدك ورميت كل حاجة ورا ضهري .. ليه وقتها خدتك بذنب باباكي وحسيت اني لازم انتقم لكرامتي وكرامة أبويا والانتقام ده كان منك انتي .. من الإنسانة الوحيدة اللي لا حبيت ولا هحب غيرها.

ترقرقت الدموع من عينيها وقد لمست صدق كل كلمة في حديثه فمد يده إلى دموعها يكفكفها في رفق، استسلمت للمساته ولم تنتزع نفسها عنه فأعطته الجرأة ليلتقط كفها الرقيقة بين يديه ويضغطها بحنان وقد ترك لعينيه مهمة استكمال حديثه الدافئ بالنيابة عنه ونقل همساته إلى قلبها مباشرة.

كانت تريد أن تقاومه وتنتزع يدها من بين كفيه لكنها لم تقوى على ذلك، كانت مسلوبة الإرادة في حضرته تمام كما كانت وقت أن كان الحب ثالثهما، بدا لها أن الجليد الذي أحاطت به مشاعرها طوال السنوات الماضية قد ذاب وتبخرت جزيئاته بعد أن دق عليه برفق بلمساته الحانية فوجدته يرفع كفها ويقربها إلى شفتيه ويلثمها بحنان قبل أن يرفع عينيه إلى عينيها قائلاً في شوق: وحشتيني أوي

انتهزت هي الفرصة وسحبت يدها في خفة فتنهد في حرارة وهو ينظر إليها بحب: أنا حاسس أني زي ما اكون كنت ميت وردت فيا الروح

-اشمعنى دلوقتي يا عمر .. ليه مدورتش عليا قبل كده؟

شبك أصابع يديه أمامه قائلاً: علشان كنت متقيد .. مكنتش حر في تصرفاتي ولا قراراتي .. كان في ارتباط في حياتي مقيدني ولما بقيت حر أول حاجة فكرت فيها اني ادور عليكي .. مكنش ينفع أعمل كده قبل كده وإيناس في حياتي لو مكنش علشانها فهيكون علشان مجرحكيش انتي وافكرك بحاجات انتي مش عايزة تفتكريها .. بس جيت في يوم صحيت وانا بسأل نفسي هوا انا هفضل لحد امتى عايش بالطريقة دي .. خدت قرار إني ارجع مصر في ساعة زمن تقريبا بس إيناس عارضت ده بشكل فظيع ورفضت فكرة الرجوع .. هيا مرتاحة هناك أكتر علشان كده مكنش قدامنا حل غير الطلاق وعلشان كده بقيت بدور عليكي بقلب جامد وحتى لو كنت لقيتك لسه متجوزة كان ده هيريحني أكتر لما احس ان حياتك ماشية ومستقرة وانا اللي حياتي بايظة

ضحك في مرارة: أنا كده كده حياتي كانت بايظة .. من ساعة ماسيبت مصر وانا عايش عيشة مالهاش طعم .. عارفة الورد البلاستيك اللي مالوش ريحة .. شكله حلو آه بس مفيهوش حياة .. دي كانت حياتي .. يعني كان عندي كل حاجة كنت بحلم بيها كل حاجة وأي حاجة أي حد بيتمناها بس مع ذلك مش حاسس ان انا مبسوط.

سحب يدها مرة أخرى ثم قال باهتمام: شوفتي الكلام عني خدنا ازاي واحنا أصلاً جايين هنا علشانك .. مالك بأه قوليلي واوعي تعذبيني زي أيام زمان وتقعدي نص ساعة انا اقولك مالك وانتي تقوليلي مفيش

ضحكت من أعماق قلبها ثم صمتت للحظات فأعاد عليها السؤال مرة أخرى: مالك يا داليدا؟

شردت بأنظارها ثم التوت شفتها السفلى معلنة رغبتها العارمة في بكاء حار قبل أن تقول بحزن شديد: أنا تعبانة أوي يا عمر

ربت بكفه على يدها التي لا تزال مستريحة في راحة يده الأخرى قائلاً بحنان: تعبانة ازاي يا حبيبتي؟

انهارت في البكاء: كل حاجة بايظة يا عمر .. انت متخيل إن انا بقيت عايشة حياتي بالمهدئات .. بشوف وبسمع هلاوس وبروح لدكتور نفساني يعالجني .. ابني مش عارفة اتعامل معاه ولا عارفة أربيه إزاي .. بوديه لأخصائية نفسية وبقية الوقت سايباه للدادة .. شغلي خدت منه أجازه ومش عارفة هرجع تاني إمتى .. فجأة لقيت نفسي لوحدي في الدنيا ماليش حد ومش لاقية حد اشتكيله .. عشت أيام سودا مع حازم اللي مصدقت انه بقى بالنسبالي صفحة واتقطعت من حياتي علشان اكتشف فجأة انه خبى عليا الحقيقة وأنه مسافرش بره مصر زي ما كان قايلي وأنه مقبوض عليه وهيتسجن .. تخيل أنه كتبلي كل اللي يملكه بإسمي .. عمل كده ليه .. أنا مش عايزة منه اي حاجة غير انه يخرج من حياتي .. عايزني أفضل طول عمري فاكراه وأعيش شايلة همه مثلا

تشابكت أصابعه مع أصابعها واحتضنها في حب قبل أن يقول بندم: أنا آسف .. أنا السبب في أي حاجة بتحصلنا النهاردة .. لو مكنتش اتخليت عنك كان زماننا مع بعض من وقتها ومكنش حد فينا اتعذب أو الحياة بهدلته كده

سحبت يدها من أحضان يده ومسحت دموعها وطرحت شعرها للخلف بعد أن

كان قد انسدل إلى الأمام من أثر انفعالها في الحديث ثم قالت مهونة عليه وعلى نفسها الأمر: ده نصيب يا عمر

نظر إليها والقلق يعتريه إثر كل ما روته له: طب وبعدين .. هتعملي إيه دلوقتي؟

رفعت كتفيها في حيرة: مش عارفة يا عمر .. مش عارفة أي حاجة .. أنا تقريبا حياتي اتجمدت .. لا انا قادرة أكمل زي مانا ولا قادرة ارجع زي الأول .. تخيل إن أنا بعدت ابني عني علشان خايفة عليه من نفسي .. خايفة تجيلي الهلاوس اللي بتجيلي وافوق الاقي نفسي أذيته وانا مش دريانة .. كل حاجة متدربكة لا انا بروح شغلي ولا هوا بيروح مدرسته ولا احنا قاعدين مع بعض في بيت واحد .. هوا لوحده مع الدادة في بيتها وانا لوحدي .....

قبل أن تكمل كلامها قاطعها في حزم: انتي مش لوحدك .. معنتيش لوحدك .. أنا جنبك .. عمر حبيبك بتاع زمان رجع يا داليدا ومفيش أي قوة في الدنيا ممكن تخليه يرجع عن اللي في دماغه .. مش هسمح لأي حد ولا أي حاجة مهما كانت أنها توجعك تاني .. مش هسمح لنفسي طول مانا جنبك اني اشوف دموعك دي وأقف اتفرج عليها .. اللي كانوا بيمنعونا عن بعض السنين اللي فاتت خلاص معدش ليهم أي وجود في حياتنا ولا هيبقى ليهم خلاص .. احنا كأننا بنتولد من أول وجديد .. فاهمة ده يا داليدا .. فاهماه

هزت رأسها ببطء وقد بدأ الاطمئنان يجد طريقه إلى قلبها من جديد

***

-أنا سعيد أني شوفتك النهاردة .. ده معناه أنك حسيتي بارتياح حتى ولو نسبي بعد الجلسة اللي فاتت وعشان كده قررتي تيجي تاني

أومأت برأسها وهي تبتسم ابتسامة باهتة فقال بحماس: طب إيه طمنيني .. في أي حاجة ضايقتك في اليومين اللي فاتو .. أقصد الهلاوس .. شوفتي حاجة .. سمعتي حاجة؟

هزت رأسها نافية فابتسم في ارتياح: عظيم .. دي أخبار هايلة .. طب كنتي بتاخدي المهدئ ولا محتاجتيهوش

أومأت برأسها إيجاباً فانفعل قليلاً: طب ليه .. أنا مش قولتلك تاخديه عند اللزوم

بس .. وانتي بتقولي ان الأمور كانت هادية

فتحت فاهها تتحدث ببطء راوية على أسماعه تفاصيل مقتضبة عن لقائها بحازم والمفاجأة التي اكتشفتها بظهوره المفاجئ هذا وتعاطفها معه الذي لم تتوقعه أبداً والذي أثقل مشاعرها بالذنب تجاهه في الوقت الذي عاد فيه عمر من جديد ليوقظ بدفء مشاعره مشاعرها تجاهه بعد أن حسبتها قد دفنت في غياهب النسيان بلا عودة، روت له أيضاً كيف أن خوفها البالغ على ابنها يؤرقها حتى اضطرت إلى إقصاءه عن المنزل حماية له من حالتها المضطربة، كل هذه العوامل وضعتها في ضغط نفسي وعصبي آلمها كثيراً وكان لابد لها من الالتجاء إلى عقار يهدئ من توترها حتى ولو بقدر ضئيل.

هز رأسه متفهماً الأمر: واضح ان التطورات الأخيرة دي كان ليها تأثير إيجابي عليكي وهيا يمكن اللي خلت حالتك تتحسن اليومين اللي فاتوا

اتسعت ابتسامته وهو ينظر إليها: وانا اللي كنت مفكر ان الجلسة اللي فاتت هيا السبب

ضحكت ضحكة قصيرة فوجدته ينظر إليها باهتمام: ها مقولتليش احنا كنا وقفنا بكلامنا المرة اللي فاتت عند مرحلة الطلاق .. تحبي نبتدي منين المرادي يا داليدا

قاطعها قبل أن تبدأ بالحديث وهو يقول من خلال ابتسامته: معلش سوري لمقاطعتك بس أنا فعلا معجب بإسمك جداً من المرة اللي فاتت لدرجة إني بفكر لما ارتبط واتجوز لو ربنا رزقني ببنت بعد الجواز أسميها داليدا .. ده بعد إذنك طبعاً

قال جملته الأخيرة بمرح فحاولت أن تبادله نفس المرح لكن لم تستطع فلفت ذلك انتباهه وأسرع يتفقد الأمر متسائلاً: هوا انا قلت حاجة ضايقتك؟

هزت رأسها وقالت: أصل بابا برضه هوا اللي اختار لي الإسم ده

لم يرد أن يقاطعها فقد شعر أنه استفز جزءاً خفياً من أعماق عقلها الباطن: ماما كانت بتحكيلي إن الراديو كان بيذيع أغنية لداليدا وهما في العربية في طريقهم للمستشفى علشان تولد وأول مانا جيت الدنيا والممرضة قالت لبابا ان انا بنت .. سألته هتسميها ايه لقى نفسه من غير ما يفكر بيقول داليدا

سكتت قليلاً فأخذ يستحثها على مواصلة الحديث: ها يا داليدا وبعدين

شردت بالاتجاه الآخر تمام كما فعلت بالجلسة الماضية وأخذت توقظ ذكرياتها: ماما لما فاقت وعرفت أنه سماني داليدا زعلت جداً وخدت على خاطرها منه علشان مخدش رأيها .. انت عارف زمان مكنش فيه سونار يعرفهم نوع البيبي قبل الولادة فكان كلامهم كله على أن البيبي اللي جاي ولد وانهم هيسموه فريد فبابا قالها طب خلاص يعني لو مكنتش سميتها داليدا كنتي هتسميها إيه .. ماما فعلاً مكانتش عارفة ترد عليه تقوله إيه فقالها طب خلاص مش احنا كنا عايزين فريد .. نناديها فريدة

صمتت مرة أخرى: انا معرفتش اسمي الحقيقي غير لما دخلت المدرسة طول الوقت ماما مكنتش بتقولي غير فريدة وبابا طبعاً علشان كان بيحبها وميقدرش على زعلها كان مبيندهليش غير بالطريقة اللي تريحها .. حتى جدو وتيتة .. كل الناس تقريباً نسيو اسمي الحقيقي علشان خاطر ميزعلوهاش

ترقرقت دمعة من طرف عينيها: محدش ندهلي داليدا تاني .. غير لما ماما ماتت

احترم حزنها والتزم الصمت وناولها منديلاً ورقياً لتمسح دموعها التي انهمرت على خديها: كأن محدش كان مقتنع بس كانوا بيعملوا كده علشان يجاملوها مش أكتر .. زي ما اكتشفت بعد كده إن في حاجات كتيره أوي كانت بتتعمل علشان وجود ماما بس ولما معدتش موجودة كل حاجة وكل حد اتغير وبان على حقيقته

نظر إليها بتأثر: أنا آسف .. أنا مكنش قصدي افكرك .. أنا حتى مكنتش اعرف ان والدتك متوفية ومكنتش حابب افكرك بزعلك عليها بالشكل ده

رفعت عينيها إليه وارتسم على وجهها تعبير لم يستطع تفسيره حتى تحدثت بجفاء: ومين قالك أصلا إن انا زعلانة عليها .. أنا زعلانة منها .. زعلانة منها أوي

أجهشت بالبكاء فنظر إليها بإشفاق وهو يشعر أن حديثه عن اسمها فجر بداخلها مخزون الذكريات وهو الآن على وشك استكشاف أحد مواطن أسرار نفسها المدفونة بأعماقها: فاكر لما قولتلك إني دي مش أول مرة أروح لدكتور نفساني ومش أول مرة آخد مهدئات ومضادات اكتئاب .. الموضوع ده كان وانا صغيرة وقت موت ماما .. ومش علشان هيا ماتت .. لأ علشان هيا سابتني .. اتخلت عني في أكتر وقت كنت محتاجاها فيه جنبي .. ماما اختارت الموت بكامل إرادتها .. ماما انتحرت

علا صوت بكاءها الذي كان يمزق نياط قلبها وهي تركب زورق الذكريات وتبحر به لمكان سحيق خائضة في حديث لم تخض فيه من قبل.

أطلقت تنهيدة عميقة وكأن الارتياح قد بدأ يراودها حين قررت البوح بمخزون نفسها وإخراجه بعد كل هذه السنوات: ماما مكنتش بتحبني .. كانت بتحب أخويا أكتر مني بكتير .. لما كان عندي أربعتاشر سنة حصلتلنا حادثة جامدة أنا وبابا وأخويا .. كان وقتها عنده سبع سنين .. فريد مات بعدها بيومين وبابا كان متبهدل جامد .. أما أنا فإصابتي أثرت على عمودي الفقري والدكاترة وقتها قالوا إني عمري مهقدر أمشي تاني واني هعيش عمري كله على كرسي متحرك

انتبهت حواسه جميعها وظلت أنظاره معلقة بها على الرغم من كونها قد أدارت رأسها مرة أخرى بالاتجاه الآخر: الأصعب من إن أنا بقيت قعيدة إني بقيت منبوذة .. طبعا مبقتش أقدر أروح المدرسة ولا أتحرك من البيت لأي حتة .. بابا وداني بيت جدي علشان ماما مكانتش قادرة تراعيني وانا في ظروفي الجديدة .. كانت حالتها النفسية وحشة جداً مكانتش بتنام تقريبا غير بالمنوم .. علاقتها ببابا كانت في أسوأ حالاتها .. بس برضه كل ده مكانش يديها الحق انها تهملني الإهمال ده كله .. أنا برضه كنت زيها .. موت فريد كسرني وعجزي كسرني وخروجي من بيتنا لبيت جدي وإحساسي ان أمي رفضاني ورافضة تساعدني كسرني .. كل يوم كنت بعشم نفسي أنها هتبقى أحسن وهتعدي الأزمة وتيجي تاخدني في حضنها ونرجع نعيش مع بعض .. حتى لما الدكتور اللي كان بيتابع حالتي قال إن في دكتور من ألمانيا جاي مصر وممكن يكون عنده جديد بالنسبة لحالتي محدش اهتم غير جدي وجدتي الله يرحمهم .. تخيل إن في وسط ده كله ألاقيها اختارت أنها تروح لفريد عن أنها تفضل معايا .. أصحى من النوم على خبر إنها انتحرت وسابتني كده من غير حتى متودعني ولا تاخدني في حضنها لآخر مرة في حياتها وفي حياتي

لم تكن دموعها قد توقفت عن الانهمار حتى ولو لحظة واحدة بينما هو يحاول جاهداً ألا يقاطعها: كان لازم تجيلي حالة نفسية وكان لازم أبقى رافضة العلاج وكان لازم وضعي يتأزم أكتر ماهوا وكان لازم أبقى رافضة الحياة كلها .. زيد على كده إني لقيت بابا بيبعد أوي هوا كمان ولقيت بعد موت ماما بفترة بسيطة واحدة تانية مكانها والأغرب واللي عقلي فضل مش مستوعبه لفترة أن لقيت إن ليا أخ من الست دي .. تعرف إني وقتها حاولت انتحر .. آه كنت عايزة أموت بجد .. أصلي هعيش ليه وهعيش لمين .. بس جدو اكتشف محاولتي دي وأنقذني الحمد لله في آخر وقت.

صمتت وأكملت بعد أن هدأت دموعها قليلاً: ساعتها بس بدأت ارجع تاني .. بس واحدة واحدة .. لحد مالعلاج النفسي جاب نتيجة وخرجت من حالة الاكتئاب اللي

كنت عايشة فيها .. بعدها كل حاجة اتغيرت وسافرت مع جدو ألمانيا بعد الدكتور الألماني ما كشف عليا في مصر وادالنا أمل إني ممكن أعرف أمشي تاني على رجليا .. بعد العملية قعدت فترة طويلة بروح جلسات علاج طبيعي .. حتى لما تيتة الله يرحمها ماتت جدو مقصرش معايا فضل يتابع علاجي لحد مرجعت زي الأول بعدها مات زي ما يكون ربنا كان بيمد في عمره علشاني .. علشان يكمل الرسالة اللي أبويا وأمي اتخلوا عن دورهم في أنهم يؤدوها نحيتي .. حتى مصاريف السفر والعملية والعلاج كلها كان جدو الله يرحمه هوا اللي متكفل بيها

توقفت تلتقط أنفاسها ثم نظرت إليه والحزن والألم يرتسمان على معالم وجهها: تخيل إن أنا بعد كل ده اضطريت أرجع أعيش مع بابا

ثم أكملت بمرارة: ومش بابا لوحده .. بابا ومراته اللي كنت بضطر ساعات أقول للناس انها مامتي لما يسألوني عليها علشان مضطرش أحكيلهم حاجة عن انتحار ماما.

ارتفع حاجبيه في دهشة: طب ليه؟

انفجرت بالبكاء مرة أخرى: علشان كنت مكسوفة من اللي هيا عملته .. مكنتش عايزة أحكي لحد ازاي هيا اتخلت عني بمنتهى الأنانية وفضلت تريح نفسها من العذاب اللي كانت عايشه فيه بعد موت فريد .. ومقدرش أنكر إن في جزء جوايا كان بيتبسط لما بقول للناس ان فريال هيا ماما كأني بغيظ روحها اللي اكيد كانت شايفانا وحاسة إن فيه واحدة تانية خدت مكانها

حاول أن ينظر إلى أعماقها وهو يثبت أنظاره على عينيها: بس أكيد مكونتيش مبسوطة وانتي بتعملي كده

صاحت بانهيار: آه طبعا ماكنتش مبسوطة ولا عمري كنت هبقى مبسوطة .. أنا فجأة لقيت نفسي غريبة في بيت غريب .. عايشه عيشة الضيوف .. حواليا ناس مش شبهي ومش هينفع أبقى شبههم .. صحيح ماما كانت شخصية معروفة ومشهورة بس كانت انسانة منضبطة جداً .. إنما بابا بعد موتها بقى نجم أغلفة المجلات كلها .. كل الجرايد والمجلات المشهورة زي الكواكب واخبار النجوم والإذاعة والتلفزيون كانت بتتسابق علشان تعمل أحاديث صحفية وريبورتاجات مع جوز أسمى نصار المذيعة المشهورة اللي انتحرت في ظروف غامضة وطبعا لأن بابا كان وسيم جداً لفت نظر واحد من المخرجين اللي استغل البروبجاندا اللي كانت حواليه واداله دور

بطولة في فيلم جديد من أفلامه .. ومن هنا كانت البداية.

صمتت قليلاً وقد لاحظت الفضول والشغف اللذان قد بدءا يظهران جلياً على معالم وجهه: آه سوري نسيت أعرفك اسمي بالكامل .. داليدا عاصم فريد أبو اليزيد .. طبعاً أكيد عارف مين عاصم فريد .. النجم الكبير المشهور اللي أفلامه ومسلسلاته مكسرة الدنيا .. عارف ان مفيش أي حد في الدنيا يعرف أن هوا أبويا .. حتى عمر يوم متقدملي اتفاجئ هوا وأهله وهوا قاعد قدامه بيطلب إيدي .. كل اصحابي وزمايلي عارفين داليدا أبو اليزيد وبس .. مبحاولش بأي حال من الأحوال ألفت نظرهم لإسمي بالكامل علشان مش حابة حد يعرف إن الراجل الخمورجي الحشاش اللي فضايحه مالية الجرايد والمجلات يبقى أبويا

ثم ابتسمت بمرارة: طبعاً مش هقدر أحكيلك على مدام فريال عاصم فريد سيدة المجتمع .. رمز الخير والعطاء .. صاحبة أشهر أتيليه في مصر كلها .. مدام فريال اللي كانت بتشتغل خياطة في ورشة بتاعة صاحب بابا واللي بعد كده لفت عليه لحد متجوزها في السر من ورا ماما وخلف منها ولد وبعد موت ماما بسنتين خلف منها الولد التاني اللي مفرقش هوا أو أخوه عن أخلاق أبوهم وامهم اللي كل واحد فيهم كان مش هامه ولا فارق معاه وقتها إلا الفلوس وبس .. وبالتالي طلعوا الاتنين أسوأ من بعض .. علشان كده كنت بتكسف أقول إن أنا من العيلة دي .. العيلة اللي اتكبرت على عيلة عمر علشان على أد حالهم مع أنهم أشرف منهم مليون مرة .. وعلشان كده برضه لما عمر خرج من حياتي كسرني لأني كان نفسي في أي قشاية اتعلق بيها علشان مغرقش وسطهم أكتر من كده .. وعلشان كده برضه اتجوزت حازم رغم إني مكنتش بحبه وكنت واثقة انه كمان مبيحبنيش بس حاولت أعلق نفسي بيه على أد مقدر علشان يبقى عندي مكان تاني غير البيت اللي فيه الناس دي وأول قرار خدته بعد جوازي هوا إني اخرجهم كلهم من حياتي واكتفيت بحازم بس .. لكن هوا للأسف عمره ما اكتفى بيا

دفعه الفضول ليسألها: طب وحازم كان موقفه إيه منهم؟

ابتسمت في مرارة من جديد: حازم شخصshowy أوي .. جوازه مني أصلاً كان جزء من الshow بتاعه فبالتالي كلامه عن أن أبو مراته عاصم فريد الممثل كان مصدر تفاخر ليه مش حاجة تكسفه أبداً ثم إن أخلاقه وأخلاق أصحابه مكانتش تفرق كتير عن أخلاق بابا .. ويمكن ده كان سبب أدعى إني أقاطع كل اصحابي ومعارفي واتجنب إني يكون ليا احتكاك بأي حد من زمايلي في الشغل .. أنا كنت جوه البيت شخصية وبراه شخصية تانية .. زي بالظبط ما كان حازم معايا بشخصية وقدام

الناس شخصية تانية ومن ورايا شخصية تالتة

تنهد في ضيق وهو يمد يديه أمامه: بس انا شايف إنك قاسية أوي في حكمك على مامتك الله يرحمها

أدارت رأسها تنظر إليه في حدة فأكمل: داليدا انتي عانيتي من المرض النفسي ولسه بتعاني .. يعني المفروض تكوني أكتر واحدة حاسة بيها وبالمعاناة اللي كانت عايشة فيها .. والمفترض إنك تلتمسيلها العذر

ردت عليه بارتياب: ساعات بعذرها بالذات بعد ما كريم بقى في حياتي .. بقيت بحس بلوعتها على فريد لما مات .. حزني عليه كأخت راح منها أخوها ميتقارنش بمشاعر أي أم لو ابنها لا قدر الله راح منها .. بس برجع تاني افتكر ظروفي وقتها واقول مانا برضه كنت بنتها يعني كان المفروض تبقى زعلانة عليا بس هيا مكانتش شايفاني أصلا ولا حاسة بيا

أطلق زفرة وهو يشعر أن الوقت مبكراً بعد على الصراع حول هذه النقطة ثم ما لبث أن وجه إليها حديثه بنبرة هادئة: عموماً اللي حكتيه النهاردة اختصرلنا كتير أوي .. احنا كده حطينا إيدينا على مربط الفرس زي ما بيقولوا .. انتي مقسومة نصين من جوه .. نص ناقم على مامتك علشان تخليها عنك زي ما بتقولي ونص تاني متعاطف مع حزنها وكسرتها بعد موت أخوكي .. نفسك تدعيلها بالرحمة بس مش قادرة .. ده طبعاً خلق جواكي صراع خلاكي تعاقبي نفسك لا إرادياً بإنك تتهربي من الواقع وتحاولي تختلقي حاجات مش حقيقية وتخلي ابنك جزء من الحاجات دي علشان تحسي دايماً انه مهدد فيتعاطف الجزء الناقم على مامتك لا إرادياً معاها والدليل على كده إنك لما حسيتي ان ابنك في أمان مع المربية بتاعته بعيد عن انفعالاتك .. محصلش أي حاجة من اللي حصلتلك في الفترة اللي كان ابنك فيها معاكي

نظرت إليه في ارتياب: طب ليه محصليش كده غير لما نقلت ورجعت بيتنا القديم اللي كنت عايشه فيه مع بابا وماما؟

رفع كفيه في ثقة: أديكي قولتيها بنفسك .. رجوعك للمكان اللي كانت عايشة فيه مامتك صحى الصراع جواكي فبدأتي تأنبي نفسك من نحيتها وفي نفس الوقت تعملي التصرفات اللي ممكن تكون بتضايقك وانتي مش حاسة علشان تعاقبي نفسك

شردت بعينيها: يعني قصدك إن انا اللي ممكن أكون موتت السمك أول مرة ..

طب والصورة اللي كريم قالي ان في واحدة رسمتهالو هوا وباباه واديتهالو .. ممكن أكون أنا اللي اديتهالو .. والمسدج بتاعة عمر ممكن أكون أنا اللي مسحتها علشان أعاقب نفسي بأني معرفش أوصل لعمر لما أحس إني محتاجاه .. وكل اللي شفته او سمعته كان مجرد تهيؤات .. صح انت قصدك كده .. يعني أنا مجنونة .. صح .. أنا مجنونة نظر إليها بإشفاق: انتي مش مجنونة .. انتي مريضة نفسياً وكلنا بلا استثناء مرضى نفسيين بس بنسب وبعدين انتي عانيتي طول حياتك من صراعات كتيرة أوي ميستحملهاش أي انسان طبيعي ومع ذلك عشتي فترات طويلة من حياتك في سلام نفسي من غير ما تشتكي من أي أعراض .. أول طريق لعلاج المرض هوا الاعتراف بيه .. احنا في حالة ذهان عارض .. انعزالك عن الناس .. الهلاوس اللي بتشوفيها أو بتسمعيها .. ارتيابك في الناس كلها حتى ابنك .. علاقاتك الاجتماعية المحدودة .. اضطرابات النوم .. فقدان الشهية .. لجوئك للتخريب زي ما حصل مع حوض السمك .. كل دي اضطرابات عقلية ونفسية بس نحمد ربنا إن احنا في البدايات لسه والموضوع متتطورش لدرجة سكيزوفرنيا وإلا كنا هنبقى مضطرين لوجودك في مصحة تحت الملاحظة وإلا متزعليش مني يا داليدا هتبقى نهايتك زي نهاية مامتك الله يرحمها .. علشان كده أنا بقولك إنك كنتي قاسية عليها أوي لأن انتحارها ده كان عرض من أعراض المرض اللي كان عندها واللي سببتهولها الصدمة الشديدة اللي اتعرضت ليها واللي ممكن يكون كان عندها استعداد جيني لاكتسابه وبالتالي هيكون عندك نفس الاستعداد بالوراثة.

نظر إليها برفق: مامتك متخلتش عنك زي ما كنتي فاكره .. مامتك عملت كده بشكل خارج عن إرادتها تماماً.

بكت بحرقة فأكمل بهدوء: داليدا .. انتي قطعتي شوت كبير بإنك جيتيلي بإرادتك وقعدتي قدامي وحكيتيلي عن كل الحاجات اللي بتضايقك .. انتي حطيتي رجلك بنفسك على أول طريق العلاج .. والعلاج مش هيجيب نتيجة غير إذا اعترفنا بالمرض واعترفنا باحتياجنا للعلاج واعترفنا بحاجة أهم من كده

نظرت إليه باهتمام فأكمل وهو يضغط الكلمات: واعترفنا بحاجة الناس اللي بنحبهم ومسئولين مننا لينا

ثم أكمل بلهجة تبعث في نفسها الطمأنينة: الإنسانة اللي تمر بكل اللي انتي مريتي بيه ومع ذلك تقدر تكمل تبقى انسانة قوية .. انتي بطلة علشان كده هتكملي ومش هتخلي أي مرض مهما كان يسيطر عليكي .. مش هتسمحي للي حصل ليكي إنه يتكرر مع إبنك لأنه محتاجلك فعلاً ومالوش غيرك .. اللي خلى مامتك تستسلم

كان إحساسها أن جدك وجدتك بيراعوكي وبيقومو بواجبها هيا تجاهك إنما انتي مفيش حد لكريم غيرك

أمسك بالورقة أمامه وخط فيها كلمات معدودة ثم نظر إلى عينيها محاولاً بث الثقة فيهما من جديد بعد أن انطفأت لاكتشافها حقيقة مرضها: احنا هنبتدي نمشي على الزبركسا لمدة أربع شهور بجرعة ١٠ مللي بالليل وخدي بالك ممكن تلاحظي زيادة في الوزن بسبب الدوا ده وممكن لأ

صمت للحظات قبل أن يقول ببطء: لو محصلش تحسن خلال الفترة دي هنستبدله بأبيفلاي بمعدل حباية واحدة في اليوم .. الدوا مهم جداً لأن أي اضطرابات عقلية بتبقى ناتجة عن اضطرابات في مواد كيميائية معينة في المخ والدوا بيعادل أو بيصحح الاضطراب ده .. بس الأهم من الدوا هوا انتي .. لازم تغيري من طريقتك علشان تتخطي المرحلة الصعبة دي .. يعني لازم تمارسي رياضة على الأقل تمشي نص ساعة كل يوم ويستحسن يكون في مكان مفتوح فيه هوا متجدد .. لو بطلتي تقري ياريت ترجعي تقري تاني وخصوصاً بالليل قبل متنامي والأحسن من كده إن يكون ليكي ورد من القرآن تقريه بالليل كل يوم قبل ما تنامي هيفرق معاكي جداً وهتحسي بسكينة رهيبة وافتكري كويس أن طول ما علاقتك بربنا موصولة طول ما علاقتك بالدنيا كلها في تحسن

صمت قليلاً ثم أكمل محذراً: أوعي في يوم من الأيام توقفي الدوا فجأة من نفسك .. حذار من كده حتى لو كانت حالتك اتحسنت لأن ده هيسببلك انتكاسة وهترجعي أسوأ من الأول

قام عن مقعده ومد يده مصافحاً إياها: أشوفك الجلسة الجاية في ميعادنا ومش محتاج أقولك لو احتاجتي أي حاجة في أي وقت رقمي معاكي كلميني على طول

***

غلبها النعاس على تلك الأريكة الوثيرة في ردهة المنزل، لم تجد في نفسها رغبة للخلود إلى النوم باكراً كما أنها لم ترغب في أن تودع جسدها في الفراش وتظل تعذب حواسها بالتقلب يميناً ويساراً في يأس، كانت قد اتخذت قراراً بعودة ابنها إلى أحضانها بالصباح فهي تشعر بتحسن بالغ بعدما باحت بما أثقل نفسها لأعوام، أيضاً تبرير الطبيب لإقدام أمها على الانتحار وأنه كان قراراً لا إرادياً وناجم عن تأثير المرض النفسي عليها قلل من إحساسها بالتوتر حيال تلك الجزئية الشائكة من

حياتها.

قبل أن ينسدل جفنيها كانت قد توضأت وأمسكت بالمصحف الشريف تقرأ آيات من الذكر الحكيم في تدبر وخشوع حتى شعرت بالسكينة تتملك قلبها وتتغلغل إلى أعماقه، عندما فرغت من قراءة تلك الآيات كانت البرودة قد بدأت تزحف على جسدها من الشرفة المفتوحة فقامت وأغلقتها بعناية وأتت بغطاء ناعم تدثرت به ممددة ساقيها في ارتياح إلى طرف الأريكة، أخذت تتأمل أجزاء المنزل محاولة أن تتذكر الصورة التي كان عليها في طفولتها وصباها قبل أن يقوم والدها بتغيير كل التفاصيل التي كانت تحمل بصمات والدتها حين أصبحت تشاركه الحياة به أخرى، محى آثار كل ما كانت قد انتقته بنفسها وكانت فخورة بالإعلان عن ذلك في كافة المناسبات، لم تكن تفوت مناسبة يكون لديهم بها ضيوف بالبيت ويعلن أحدهم إعجابه بالذوق العام للمنزل حتى تسرع بالقول أن طلاء المنزل من اختيارها والأثاث أيضاً وهذه التحف واللوحات الفنية المميزة انتقتها بعناية لتتماشى مع كل تفاصيل البيت، كل هذه التفاصيل التي تمت إزالتها في تعنت حتى المكتبة الضخمة التي كانت تحتل مكاناً مميزاً في الردهة والكرسي الخشبي المتأرجح الذي كانت تقضي نصف الليل جالسة إليه تفكر وتكتب وتعمل تم التخلص منهم وكأن تلك الأخرى أرادت محو أي أثر قد يحيي ذكراها في النفوس.

لم تشارك والدها ولا زوجته الجديدة الحياة بهذا المنزل بعد تلك التغييرات وعندما اضطرتها الظروف بعد وفاة جديها للعودة إلى كنف أبيها كانت أحواله المادية والاجتماعية قد تغيرت بشكل جذري وأدى ذلك إلى انتقاله هو وأسرته الجديدة إلى منزل جديد مكون من ثلاثة طوابق وله حديقة غناء وحمام سباحة وتزدان واجهته بلافتة ذهبية كتب عليها بخط منمق «فيلا الفنان عاصم فريد» لكنه وبرغم كل شيء أبقى على هذا المنزل ولم يعرضه للبيع ربما لأن شيئاً منه كان يحن إلى ذكرى والدتها أو إلى ذكريات الأيام التي قضاها معها.

وبرغم كل مظاهر الثراء التي كانت تبدو على المنزل الجديد كان فقر المشاعر هو السمة الغالبة على سكانه، فلم تشعر يوماً أن هناك من يكن للآخر مشاعر دافئة طالما لا توجد كاميرات يضطر سكان المنزل للاجتماع أمامها لبث نبضات سعادة مزيفة تنتقل عبر الموجات التلفزيونية إلى الجماهير التي تتابع حياة الفنانين الشخصية والشخصيات العامة بشغف.

لا والدها كان هو والدها الذي ألفت عشرته لسنوات ولا زوجته كانت تصلح لتحل محل أمها ولا أخويها كانا يصلحان بديلاً لفريد الذي ودع الحياة طفلاً بريئاً

لم يحمل في قلبه شراً ولا أذواً، لا تتذكر أنها قد رأت أباها باسماً أو ضاحكاً إلا أمام الكاميرات فقط، طوال الوقت كان متجهماً عابساً، خارج أوقات العمل يلازم غرفته لا يغادرها إلا نادراً أو عندما يأتي سامي صديقه الوحيد منذ أيام الشباب وصاحب محل الحيوانات الأليفة وأسماك الزينة الذي انقطعت عن كل ما يصلها بتلك الأسرة إلا صلتها به بحكم حبها للأسماك.

لم تدر أنها قد غفت إلا عندما أفاقت على نغمة حزينة تصدر من آلة الكمان الخاصة بها، بدأت النغمة خافتة ثم تصاعدت حتى أيقظتها من غفوتها وقد انتفضت كل حواسها فأخذت تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم أن تكون الهلاوس قد بدأت تلاحقها من جديد، رفعت الغطاء عنها فتوقفت النغمة بغتة فأسرعت تقتفي أثر آلة الكمان التي من المفترض أنها لم تكن قد برحت موضعها الأخير بأحد الرفوف المعلقة لتفاجئ بها ملقاة أرضاً في إهمال خارج صندوقها وكأن أحدهم قد عبث بها وداعب أوتارها وعندما انتبهت هي من سباتها تركها في عجال ولاذ بالفرار.

بدأ جسدها يرتعش وهي لا تدري إن كان ذلك من مضاعفات تأثير الدواء أم أنها ستعود إلى فروض نظرية المؤامرة السابقة بأن هناك من يحاول مضايقتها لكن في المرات السابقة كانت أصابع الاتهام تشير تارة إلى ابنها وتارة إلى مربيته وتارة إلى زوجها السابق الذي شكل اختفائه علامة استفهام لكن هذه المرة مختلفة لأن كل ممن سبق توجيه الاتهام لهم أبعد ما يكونوا عنها في تلك اللحظة.

حاولت أن تتمالك أعصابها وقررت العمل بنصيحة الطبيب والعودة إلى قراءة المصحف من جديد عندما استفز أسماعها صرير باب غرفتها يتحرك ببطء فاقتربت على أطراف أصابعها تستطلع بعينيها مصدر ذلك الصوت وتوقف قلبها لوهلة عندما وجدت سيدة تعبر هذا الباب إلى الغرفة الأخرى، لم تكن سيدة كوابيسها ذات الرداء الأسود والتي سبق وأن رأتها في مثل هذا الموقف من قبل، لم تكن تشبهها بأي حال من الأحوال، كانت قصيرة وممتلئة القوام ولها وجه مستدير يميل لون بشرتها إلى الاسمرار قليلاً وقد عقصت شعرها المخضب بالحناء إلى خلف ظهرها، كانت تمشي ببطء مرتدية عباءة منزلية لها لوناً بنياً داكناً وبها دوائر ذات لون برتقالي فاقع وقد أولتها ظهرها حتى أغلقت باب الحجرة الأخرى من خلفها بإحكام.

لم يختلف سيناريو الأحداث هذه المرة عن المرة السابقة سوى أنها كانت ترتدي رداء المنزل الذي يشبه الملابس الرياضية إلى حد كبير بينما اتجهت بخطوات سريعة إلى سيارتها بعد أن التقطت مفاتيحها وهاتفها وركضت خارج المنزل، أيضاً ابنها لم

يكن معها في تلك اللحظة كقبل سابق وهو الأمر الذي لم تستطع تفسير إذا كان خيراً له أم لا، ففي المرة السابقة كانت المرأة الأخرى تتجه إلى غرفته أيضاً لكنه كان بأحضانها أما هذه المرة فهو بعيداً عنها بينما اتجهت امرأة اليوم إلى غرفته هو وأحكمت إغلاق بابها عليها.

التقطت أنفاسها بصعوبة وهي تجلس خلف مقود السيارة وأسرعت تطمأن على ابنها فأتاها صوت المربية ناعساً لتنتبه كون الساعة قد تخطت الثانية بعد منتصف الليل، حاولت أن تبدو طبيعية وهي تواجه صوت محدثتها الذي تنبعث منه العشرات من علامات الاستفهام والاستنكار في آن واحد فالوقت متأخر للغاية لتتلقى مكالمة عابرة كتلك لا جدوى منها سوى الاطمئنان على أحوال كريم والتي لن تختلف في تلك الساعة المتأخرة عنها في الصباح الباكر.

حاولت الاتصال بطبيبها لكن أتتها رسالة أن الهاتف مغلقاً فانهمرت دموعها وهي تعرف أن الوقت لم يكن ملائماً بالأساس لتقوم بالاتصال به لكن رغماً عنها لا تدري ماذا تفعل، رفعت هاتفها مرة أخرى لكن هذه المرة لتتحدث إلى عمر الذي لم يكن حال هاتفه ليختلف عن حال هاتف الطبيب فألقت بهاتفها على المقعد المجاور لها ورفعت رأسها تنظر إلى شرفة منزلها وتخشى أكثر ما تخشى أن تكون تلك السيدة ترمقها شذراً منها.

أدارت محرك سيارتها وانطلقت بأقصى سرعة لا تدري إلى أين تكون وجهتها، كل ما رغبت به هو الابتعاد عن هذا المنزل الذي لا يحلو لهلاوسها وخيالاتها المريضة مهاجمتها إلا في أحضانه.

ظلت تلف بسيارتها لقرابة الساعة حتى وجدت نفسها تخطو في شوارع لم تخطو إليها منذ سنوات، محت عن ذاكرتها غبار الماضي لتكتشف أنها لا إرادياً تتجه باتجاه منزل والدي عمر، لم تكن تدري إن كان لا يزال مقيماً هناك أم أصبح له منزلاً مستقلاً لكنها وبرغم ذلك أكملت مسارها بنفس الاتجاه وكان شيئاً يدفعها إليه.

وقفت أمام البناء الذي تآكل الطلاء عن جدرانه لكنه لا يزال يحمل الكثير من عبق الماضي كطابع تلك المنازل التي تنتشر بوسط العاصمة والتي لم يغلب عليها طابع وحداثة الأبراج الشاهقة العلو ومازالت تلك البناءات وفية لماضيها وتحمل جدرانها بصمات بعض ممن قاموا ببنائها والذين اختلفت أجناسهم ما بين يونانيين وإيطاليين وفرنسيين واتخذ كل منهم طابعاً معمارياً يحمل رائحة الحنين لبلاده

لينقل ذلك الحنين إلى الجدران والنوافذ والشرفات فتظل تتأمل وأنت تتساءل كيف لتلك القطع الفنية المعمارية الأوروبية أن تتناثر هكذا في الشوارع والطرقات حاملة أنفاس ورائحة أصحابها اللذين وارت أجساد معظمهم التراب.

برغم أنها لم تقله إلى منزله إلا مرات معدودات إلا أنها وجدت نفسها تتذكر الطريق كأنها تأتيه يومياً وكأنها لم تمر بها سنوات وسنوات منذ آخر مرة زارت فيها تلك الرقعة المحببة من الأرض، رفعت عينيها تتأكد من رقم البناية الذي لحسن حظها مازالت تذكره ثم خفضت عينيها لتصطدم بعمر نفسه جالساً على دكة خشبية أمام بوابة العقار مخصصة لحارسه وقد أمسك رأسه بين يديه مخفياً معالم وجهه كلها بكفيه.

أطفأت محرك السيارة واقتربت في خجل فهي لا تزال بملابس المنزل وبرغم كل التوتر الذي تعيشه لم ترغب في أن يراها هكذا، كانت تقترب منه في وجل وقلبها يخفق رغماً عنها فهي لا تدري إن كان عمر حقاً جالساً على دكة أسفل منزلهم وقد اقترب الفجر من البزوغ أم أن الهلاوس تركت أرجاء منزلها لتلاحقها خارجه أينما ذهبت، التقطت أسماعها صوت نهنهة تصدر عنه فخفق قلبها مرة أخرى ووضعت يدها على كتفه برفق وهي تهمس بإسمه فوجدته ينتفض ويرفع لها عينين دامعتين ووجهاً مكفهراً.

بمجرد أن طالعت عينيه التي احمر قاعهما من أثر البكاء هاجمت عقلها صوراً متتالية تبرق في سرعة كأنها لقطات مأخوذة من فيلماً سينمائياً قديماً، اللقطة الأولى كانت لتلك السيدة التي رأتها في المنزل تخطو باتجاه غرفة ابنها، اللقطة الثانية كانت لوالدها وهو يتحدث مع عمر وأبيه وهو يبلغهم برفضه طلبهم بأسلوبه المتغطرس، اللقطة الثالثة كانت لعمر وهو بالمستشفى حين داهمت والده الذبحة الصدرية بعد لقاءه مع أبيها، استرجعت اللقطات الثلاث مرة أخرى بالتصوير البطيء وكأنها تحمل كاميرا وتعود لكل مشهد على حدى لتلتقط أبعاده كاملة فاقتربت بالكاميرا على وجه أبيها ثم انتقلت لوالد عمر ثم عمر ثم توقفت بغتة إلى الوجه الذي تلاهم.

-عمر .. مامتك حصلها حاجة؟؟؟

نظر إليها بذهول ثم قال من وسط دموعه: انتي عرفتي إزاي .. الإسعاف لسه ماشي من هنا من ساعة تقريباً .. مرضوش ياخدوها يا داليدا .. جريت وراهم عالسلم لحد هنا في الشارع اتحايل عليهم وهما بيقولولي خلاص ومن ساعتها رجليا مش

قادرة تشيلني اطلعلها تاني .. ازاي يقولولي ان خلاص كده .. ازاي

انهارت بجانبه على تلك الدكة الخشبية عقلها يكاد يعجز عن تفسير ذلك الموقف فتوارت الكلمات خوفاً وهي تنطقها في خفوت: مامتك كانت لابسة عباية بني وفيها دواير أورانج؟؟

استدار ينظر إليها غير مصدق: داليدا أنا مش فاهم حاجة .. انتي جيتي هنا ازاي .. وعرفتي منين باللي حصل لماما .. وازاي تبقي في الشارع الوقت ده .. وعرفتي منين ماما كانت لابسة إيه وقت لما ماتت.

أخفت وجهها بين كفيها قائلة في حيرة: أنا نفسي مش عارفة .. ومش هعرف أرد عليك .. كل اللي انا عارفاه انها أكيد كانت حاسة إنك محتاجلي في لحظة زي دي علشان كده لقيت نفسي من غير ما أحس جيتلك على هنا

لم يستطع أن يخفي الذعر الذي بدا على وجهه فالذي تلقيه على أسماعه هكذا ببساطة كان بالفعل مخيف، شعرت بارتعابه الذي لا يقل عن الرعب الذي يسكن قلبها وارتسمت معالمه على ملامحها لكنها تحاول السيطرة عليه جاهدة فقامت من جواره حتى لا تبث في نفسه مخاوفها أكثر من ذلك وربتت على كتفه في تأثر: البقاء لله يا عمر .. شد حيلك

كانت تتحرك مبتعدة فنظر إليها: انتي رايحة فين؟

تحركت دمعة من عينيها وهي ترفع كتفيها في حيرة: مش عارفة

قام عن الدكة الخشبية واقترب منها: طب هتمشي في الشارع في الوقت المتأخر ده .. روحي يا داليدا مش هينفع كده

انسدلت الدمعة على وجنتها وهي تقول في عجز: خايفة

قال باندفاع: من إيه ومن مين؟

هزت رأسها واستمرت الدموع تنسدل من عينيها فأمسك بكتفيها وهو يقول في لهجة قلقة: اتكلمي يا داليدا .. متقلقنيش عليكي .. أنا حاسس إنك مخبية عليا حاجة خطيرة

أمسكت كفه وأنزلتها بهدوء عن كتفها وهي تقول بترفق لتذكره بظروفه الحالية:

متشغلش بالك بيا .. كفاية عليك اللي انت فيه .. اطلع يا عمر نام ساعتين علشان تقدر تواصل لبكرة .. ربنا يكون في عونك انت وراك يوم صعب ومش هاجي أنا واكمل عليك

شعر بعجز بالغ فهي محقة فلديه الكثير من المهام لينجزها باكراً حتى ينهي إجراءات ومراسم دفن أغلى مخلوق على قلبه لكنه في نفس الوقت لا يستطيع أن يتركها ترحل باكية هكذا في تلك الساعة المتأخرة وهو موقن أنها في حالة غير طبيعية وتبدو في غاية الاضطراب لكنه وجدها مصرة على ألا يصحبها وألحت عليه أن يصعد إلى منزله ليستريح تأهباً لذك اليوم الذي لم يكن يريده ولا ينتظره أبداً بعمره فودعها مرغماً وتركها ترحل إلى المجهول لكن أوصاها بالأخير ألا تؤذي نفسها وأن تطمأنه على حالها وأن تجيب مكالماته حين يرغب بالاطمئنان عليها.

ظل ينظر إلى سيارتها التي اختفت عن أنظاره والقلق يفترس قلبه لأجلها.

***

لم يصدق عينيه عندما وجدها مفترشة الدرج المؤدي إلى عيادته وقد غلبها النعاس رغماً عنها فارتمت رأسها للجانب مستندة إلى الحائط الرخامي الذي لم تزعجها برودته وتفوقت حاجتها إلى النوم على قسوة الصقيع الذي ينبعث منه ولم تنتبه إلا عندما رفع صوته بالنداء لأكثر من مرة فانتبهت إلى أنها قد ارتكبت جريمة في حق عمودها الفقري وعظامها بجلوسها إلى الدرج الرخامي لعدة ساعات في انتظاره ومن حسن حظها أنه قد أبكر في الحضور اليوم حتى أنه سبق سكرتيرة العيادة وكأن القدر يرفق بحالها ويشفق عليها من طول الانتظار.

دلف إلى الحجرة حاملاً كوبين من القهوة الساخنة وناولها أحدهما قائلاً بمرح: معلش بأه سلمى لسه ماوصلتش لحد دلوقتي فيا رب النسكافيه بتاعي يعجبك تلقفته بيدين مشتاقتين إلى الدفء واحتضنته بين راحتيها تلتمس سكينة من أدخنته المنبعثة فاقترب يجلس بالمقعد المقابل للأريكة الجلدية التي أراحت ظهرها إليها ووجدته يتفحص هيئتها في فضول قبل أن يسألها في حذر: ها يا داليدا .. أنا مستنيكي تحكي

أخذت رشفة سريعة من الكوب المستقر بين كفيها ثم اندفعت تقص عليه تفاصيل ليلة أمس بداية من أصوات الكمان التي أيقظتها حتى اكتشافها موت والدة عمر بنفس اللحظة التي رأتها فيها تتجول بحجرات منزلها.

كان الاهتمام بادياً على وجهه ثم بدأ يتحرك عن مكانه باتجاه المكتبة الضخمة والتقط منها ملفاً متخماً يحوي أوراقاً عدة كلها مكتوبة بحروف لاتينية، ناولها إياه فنظرت إليه تتفقد أوراقه التي لم تفقه منها شيئاً فوجدته يعقد حاجبيه قائلاً بجدية: ده بحث عن الباراسيكولوجي عمله طبيب نفسي اسمه ويليام رول سنة ٢٠١٢ في جامعة جورجيا وده طبعاً مش البحث الوحيد في غيره مئات الأبحاث بس معظمها خرجت من جامعات أجنبية .. قليلين جداً في الوطن العربي اللي كان عندهم الشجاعة انهم يتكلموا في المواضيع دي ويتناولوها بالبحث .. أي حد بيهتم بالعلم ده خاصة لو كان أكاديمي بيلاقي سلسلة اتهامات بتتوجهله ابتداءاً من الجنون لحد النصب والدجل والشعوذة .. الناس البسيطة بيسموا الموضوع ده بالبلدي .. مكشوف عنه الحجاب .. بس الباراسيكولوجي بيسميها الجلاء البصري .. الجميل إن في تفسير علمي منطقي لده وهوا أنه بيكون ناتج عن نشاط زايد في الغدة الصنوبرية في العين أو اللي بيسموها العين التالتة وده بيكون موجود عند معظم الأطفال لأنهم بيمتلكوا شفافية عننا وبيبتدي يضمر كل مبيكبروا في السن لأن واقع الحياة بيطغي على الجانب الخيالي عندهم .. بس في النهاية هيا حلقة وصل ما بين العقل الباطن والظاهر .. الحواس البشرية للأشخاص البالغين بتبقى محدودة جداً مقارنة بالأطفال ونتيجة للمحدودية دي أبصارنا وأسماعنا مبتدركش غير نطاق ضيق من اللي بيحصل حوالينا في حين إن في حيوانات عندها القدرة على سماع أو رؤية مخلوقات تانية غير البشر وعلشان نوصل للمرحلة دي لازم يحصل فجوة مكانية أو زمانية بين عالمين مختلفين

رفعت كتفيها في حيرة: أنا مش فاهمة حاجة .. ممكن توضح كلامك

أكمل حديثه باهتمام: الباراسيكولوجي ببساطة هوا علم الجري ورا علامات الاستفهام .. أو علمياً البحث حول الإدراك الفائق للحواس .. ودي طبعاً حواس تانية غير الحواس الخمسة اللي بنستعملها .. زي التخاطر عن بعد .. قراءة الأفكار .. التواجد في مكانين في نفس الوقت .. الاستبصار .. الحياة بعد الموت .. تجارب القرب من الموت

لاحظ إمارات عدم الاقتناع التي بدأت تعتلي وجهها فأكمل متجاهلاً تلك العلامات التي تورثه الإحباط حين يوشك على الخوض في مثل هذه الأحاديث مع الآخرين: العلماء اختلفوا كتير في تعريف الروح ومحاولات إيجاد اختلافات بينها وبين النفس رغم إن القرآن حسم الأمر من أكتر من ١٤٠٠ سنة لما ربنا قال في كتابه العزيز «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ..

يعني الروح باختصار مجموعة أوامر مباشرة من ربنا سبحانه وتعالى مش مجرد كيان يمنح فتبتدي الحياة أو يسلب فتنتهي الحياة ومهما حاولنا نبحر في علم الروح مش هنقدر نتوصل لنتيجة أو لتعريف محدد .. على العكس منها النفس .. لأنها ملك للإنسان .. النفس هيا قلب الإنسان وعقله ووجدانه وكل الأوامر اللي بيختارها وبتشكل شخصيته علشان كده أمر النفس محسوم .. إنما أمر الروح مش خاضع لأي حسابات إنسانية أو علوم بشرية لأنها أمر رباني وربنا قال ما أوتيتم من العلم إلا قليل .. يعني مهما اجتهدنا مش هنعرف برضه نوصل للحقيقة الكاملة في موضوع الروح

بدأ القلق يعتريها وهي تقول في حذر: ممكن توضح أكتر علشان انا فعلا مش فاهمة انت تقصد إيه!!

نظر إليها وهو يقول في حذر: داليدا أنا أخطأت في تشخيص الهلاوس اللي كنتي بتشوفيها

عقدت حاجبيها فوجدته يخفض صوته قائلاً: دي مش هلاوس يا داليدا

ثم خفض صوته أكثر: دي أرواح

***

صدقيني يا داليدا أنا مش قصدي أخوفك خالص باللي بقولهولك ده بس أنا كنت حاسس إن في حاجة أكبر من مجرد هلاوس مرضية .. كل اللي انتي حكتيه من أول ملعبتي بالكمان وحسيتي إن في حاجة بتهزك جامد والريحة الغريبة اللي شمتيها ساعتها لحد الست اللي بتحلمي بيها وشوفتيها كذا مرة وانتي صاحية .. كل ده كان أعمق من مجرد مرض نفسي خاصة إن أنا شايفك انسانة متزنة جداً .. من بين ملايين البشر بيبقى في واحد أو اتنين اللي عندهم قدرات ذهنية بتتجاوز حدود الزمان والمكان وكل قوانين الطبيعة وانتي منهم .. العالم بتاعنا مش هوا العالم الوحيد في الكون ده في غيره عوالم تانية احنا منعرفهاش ولا حدود علمنا المحدودة تسمحلنا بمعرفتها .. بس كل عالم من دول ماشي في خط متوازي واستحالة تتقابل مع بعضها إلا إذا حصلت حاجة خارقة للطبيعة خلت نقطة من أي عالم منهم تخرج عن مسارها الطبيعي .. والدة عمر ظهرتلك يا داليدا لأنها كانت في حياة تانية غير الحياة بتاعتنا ومكانتش برضه في مرحلة الموت هيا كانت في حياة البرزخ ودي المرحلة اللي الروح بتبقى متعلقة فيها ما بين الحياة والموت .. ممكن جداً

الست التانية تكون روح متعلقة برضه وظهورها ليكي انتي بالذات علشان بتحاول توصلك رسالة بس انتي طول الوقت بتقاوميها علشان كده الرسالة ما بتوصلش .. أكيد في حاجة استفزت الروح دي وخليتها تحاول تتواصل معاكي .. حاولي تكوني أهدى علشان تستقبلي الرسالة اللي عايزة توجهالك لأنها بدأت تعمل الحاجات اللي بتضايقك علشان تستفز فضولك نحيتها أكتر .. متعرفيش لو فضلتي تقاوميها أكتر من كده هيا ممكن تعمل إيه علشان تستفز فضولك أكتر .. أنا عارف إن آخر واحد ممكن تسمعي منه الكلام ده المفروض يكون أنا .. لكن صدقيني أنا مش مجرد دكتور نفسي .. أنا باحث بالمقام الأول وحبي للبحث والمعرفة بيخليني أدق أي باب من أبواب المعرفة حتى لو كان بعيد كل البعد عن المنطق .. أنا مش هكدب عليكي واقولك إني كنت مؤمن أوي بالباراسيكولوجي بس كنت بحاول أجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والحوادث اللي اقترنت بتفسيره .. بس بعد ما عايشت حالتك بنفسي أنا بقيت مؤمن جداً بالباراسيكولوجي وعندي الشجاعة إني أقدم بحث علمي مبني على حالتك بالشواهد والقرائن ومش خايف من أي حد أنه يتهمني بالجنون أو النصب أو حتى الدجل .. داليدا أنا مصدق كل حرف حكيتهولي ومؤمن جداً إنك إنسانة طبيعية ومبتعانيش من أي مرض نفسي .. كل واحد فينا حتى لو معندوش القدرة أنه يشوف أو يسمع الظواهر الغير طبيعية بيبقى عنده القدرة أنه يحس بيها وإلا مكناش نحس بالخطر عن بعد .. أنا ليا بس رجاء عندك .. أرجوكي حاولي تستقبلي الرسالة .. استسلمي متقاوميش أكتر من كده .. هي لو كانت عايزة تأذيكي انتي أو ابنك كانت هتعمل كده فعلاً بلاش تستفزيها بتجاهلك ليها ومقاومتك أكتر من كده علشان متضطرش فعلا إنها تضايقك بالشكل اللي يخليكي تستسلميلها غصب عنك مش بإرادتك

ظلت تسترجع كلمات الطبيب وهي تقود سيارتها بلا هدف، لم تصبح وحيدة فقط لكن أصبحت مشردة لا مأوى لها، تتسكع في الشوارع برداء منزلي خشية أن تعود إلى منزلها فتجد شبحاً لمحارب من المحاربين القدماء يريد أن يقص عليها مغامراته في أرض المعارك.

ضحكت رغم البؤس الذي يعتريها، من يصدق أن ما فسر به الطبيب روايتها صحيح، بل هل يعقل أن يكون هناك شيئاً يسمى أرواحاً عالقة وهل لبعض البشر كما يدعي هو القدرة على سماع تلك الأرواح أو رؤيتها كما أراد أن يقنعها وإن كان لديها تلك القدرات لما لم تظهر عليها إحدى إماراتها من قبل، كل هذا هراء ولا يمكن أن يقنعها إنسان به.

قاطع أفكارها رنين الهاتف فعقدت حاجبيها وهي ترى رقم أم شادي يلوح لها على الشاشة الملساء لهاتفها.

أسرعت تلتقط المكالمة حين أتاها صوت الأخيرة يصرخ في لوعة: الحقيني يا مدام داليدا .. كريم سخن زي النار وجسمه عمال يتنفض ومبيحطش منطق.

***

جلست تبكي جوار الفراش المعدني الذي توسط الحجرة التي اكتسى كل شيء بها بالأبيض، كان قلبها يرجف وتتمنى لو كانت تلك اللحظة هي إحدى هذه الهلاوس التي تراودها وأن ابنها بخير ويلهو بمنزل مربيته في أمان منتظراً عودتها لتجتذبه إلى أحضانها مرة أخرى، تذكرت أمها وشعرت بالتعاطف معها والإشفاق على حالها لأول مرة بحياتها، تمنت لو يعود الزمن بها فلا تنتظر إحتواءً منها وإنما تقوم هي باحتواء أحزانها العارمة على فقدان فلذة كبدها فمن المؤكد أنها تعذبت كثيراً ومن المؤكد أيضاً أنها كانت في أمس الحاجة إلى من يحتوي عذاباتها.

ماذا كانت ستخسر لو تجاهلت رغبتها في إقصائها عن المنزل خشية التقصير في رعايتها وأصرت على البقاء إلى جوارها من أجل تضميد جراحها لكنها كانت أنانية جل ما طمحت إليه أن تحصل على دعم معنوي من أمها حتى تتجاوز مرحلة عجزها التي لم تدم طويلاً وبنهاية الحال تخلصت من ذلك العجز المؤقت وعاودت الحياة بشكل طبيعي لكن بعد أن خسرت أمها إلى الأبد بعد أن تركتها وحدها فريسة للمرض النفسي يلتهم البقية الباقية من روحها التي تآكلت وأدمتها الأحزان.

اقتربت تقبل يد ابنها وهي تهمس في أذنه ببكاء حارق: أوعى يا كريم تسيبني أنا معدش ليا حد في الدنيا غيرك .. لو جرالك حاجة بعد الشر أنا هموت نفسي .. مش هستحمل أعيش ثانية واحدة وانت بعيد عني .. يا كريم رد عليا يا حبيبي .. أنا ماما .. انت عارف أنا بحبك أد إيه .. أنا بحبك أكتر من نفسي وأكتر من أي حاجة في الدنيا .. أنا عايشة علشانك انت وبس ومش عايزة حاجة من الدنيا غيرك انت يا حبيبي

رفعت عينيها إلى سقف الحجرة وهي تقول في يأس: يا رب لو عايز تاخده خدني أنا بداله .. يا رب أنا اتبهدلت كتير في حياتي ومعدتش حمل أي حاجة تانية .. ده هوا اللي باقيلي .. لا أب ولا أم ولا أخ ولا زوج ولا حتى صاحبة اتسند عليها .. إلا كريم يا رب .. إلا كريم .. أنا ممكن أستحمل أي حاجة في الدنيا .. اتشل تاني .. أتعمي ..

أموت .. بس مفيش حاجة تيجي جنب كريم

كانت مربيته لا تقل عنها انهياراً لكنها تحاول التماسك والصمود من أجلها فربتت على كتفها في حنو: اهدي يا مدام .. حرام كده .. إن شاء الله هيبقى كويس وهيرجع أحسن من الأول كمان

وجدت منها عدم استجابة لأي محاولات يائسة من طرفها لتهدئتها فربتت على كتفها مرة أخرى وقبلت رأسها: أنا هقوم أجيبلك حاجة تشربيها انتي على لحم بطنك من الصبح

لم تحيدب عينيها من على وجه ابنها الساكن عندما فتحت مربيته الباب وعبرت منه إلى الخارج لكن استفز أسماعها صوت الباب ينفتح من جديد ويلي ذلك وقع خطوات بالداخل تدنو من الفراش لتستقر بجوارها، رفعت عينيها ترى لمن هذه الخطوات فوجدت ثلاث سيدات يقفن أمامها وحولهن طاقة نورانية عظيمة جعلتها لا تقوى على رفع بصرها إليهن، وضعت يدها تظلل بها عينيها قبل أن تحقق النظر بهن مرة أخرى لتجد الأنوار قد بدأت تبهت تدريجياً حتى خفتت فاستطاعت أن تتبين الوجوه؛ كانت الأولى ذات القامة القصيرة هي تلك التي رأتها بالمنزل بالأمس واكتشفت أنها والدة عمر أما الثانية فكانت ذات الرداء الأسود والقامة الطويلة الممشوقة التي صادفت مقابلتها أكثر من مرة، أدارت وجهها في اتجاه الثالثة لتجدها أمها التي لم تراها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.

تحركت من مكانها باتجاهها وقد شعرت بحنين جارف يدفعها إليها متجاهلة كل مخاوفها من كل ما تراه وقد ارتسم من حولها.

ارتمت في أحضانها تبكي وهي تقول في انهيار: ماما .. وحشتيني أوي يا ماما .. شوفتي أنا حصلي إيه بعد مسبتيني .. متسيبنيش تاني يا ماما أرجوكي .. أنا عايزاكي معايا على طول

ثم رفعت رأسها إليها فوجدتها تنظر إليها بحنان افتقدته طيلة عمرها ثم رنت بناظريها إلى الطفل الراقد غائباً عن الوعي في الفراش فانتزعت نفسها من أحضانها وقفز الرعب من عينيها وهي تنظر إليها في جزع متنقلة بنظراتها بينها وبين الوجهين الآخرين: انتي جاية ليه يا ماما .. انتو جايين انتو التلاتة هنا ليه .. عايزين تاخدو كريم مني .. ده بعدكم .. خدوني أنا الأول .. لو قربتو من كريم أنا هموت نفسي فاهمين .. هموت نفسي

ثم استدارت بعينين دامعتين إلى أمها: يا ماما انتي حاسة بيا .. انتي شوفتي فريد لما ضاع منك انتي حصلك إيه .. أنا بنتك يا ماما متدوقنيش من المر اللي انتي دوقتيه .. عشان خاطري يا ماما .. ابعدي عن كريم وخليهم يبعدو عنه أبوس ايدك يا ماما

أدارت عينيها إلى ذات الرداء الأسود والتي كانت ترمقها بنفس المقت الذي كان يطل من نظراتها كلما تلاقت أعينهما، سحبت الكرسي المعدني الذي كانت تجلس إليه المربية منذ قليل واقتربت منها والكراهية تتقافز من عينيها ورفعته إلى الأعلى قبل أن تهوي به عليها: عايزة مني إيه .. أنا معرفكيش ومعرفش انتي عايزة مني إيه .. ابعدي عني وعن ابني .. ابعدي عني

كانت تصرخ فيها بينما الأخرى ترمقها باستفزاز وابتسامة سخرية تتدلى من شفتيها فواصلت اقترابها منها والكرسي بيديها غير خاشية مواجهتها فوجدت نفسها تعبر من خلالها كأنها ليست موجودة فشعرت بنفس الريح القوية التي اجتاحتها من قبل ورائحة اللحم المحترق تتغلغل في أنفاسها قبل أن تقذفها قوة الريح تلك لترتطم بالجدار خلف ذلك السراب المتمثل في جسد سيدة ترمقها بكراهية بينما الكرسي المعدني الثقيل الذي كان لا يزال بحوزتها يرتطم بمقدمة رأسها في عنف.

شعرت بالدماء تسيل ساخنة من جبهتها لكنها حاولت أن تقاوم الغشاوة التي بدأت تسدل أستارها على بصرها وعقلها، كان آخر مشهد انغلقت عليه عينيها قبل أن تغوص في أعماق الظلام تلك الوجوه الثلاثة بما فيهن أمها وقد التفوا حول فراش كريم فأخذت تصرخ في انهيار لتستغيث بمن يرأف بحالها ويدفع آذاهن عن ابنها لكن صرخاتها لم تكن لتتجاوز حلقها، حاولت التحامل على نفسها والاتكاء على يدها مقاومة الخدر الذي بدأ يسري في عروقها لكنها لم تستطع فبكت في يأس قبل أن يقتحم الصورة الظلام ويصبغها بالسواد القاتم وهي تصرخ في لوعة تستنجد بمن ينقذها وينقذ ابنها

***

انتبهت إلى نغمة حزينة ظلت تتكرر في أذنيها فاجتذبت وعيها الضائع من أعماق غيابه، فتحت عينيها لتجد شاباً في غاية الوسامة ملامحه أوروبية خالصة يجلس على كرسي وينظر إلى الفراغ أمامه مداعباً أوتار الكمان في أسى يجعل انسياب نغماته يقطر ألماً يوجع القلوب ويدميها قبل الآذان، فتحت عينيها عن آخرهما تحاول تبين ملامح هذا الرجل الذي لم يسبق لها وأن رأته من قبل وإن كانت هيئته وملامح وجهه تبدو مألوفة بالنسبة لها، أيضاً الكمان التي ينساب من خلالها ألحانه

تبدو كنفس آلة الكمان الخاصة بها لكنها بحالة أفضل من آلتها، نعم إنها هي؛ تتبين حرف ال «G» المحفور عليها من أعلى من موقعها هذا رغم أن جسم آلة الكمان يستند إلى كتف الرجل لكنها لا تستطيع إخطاء تلك الآلة فقد أهدتها إليها جدتها حين كانت تقيم بمنزلها في فترة عجزها وعلمتها العزف عليها كنوع من أنواع التسرية عن النفس عوضاً عن عدم مقدرتها على مبارحة المنزل وكانت تلك المرة الأولى التي تعرف فيها أن جدتها تجيد العزف هكذا وقد وجدت نفسها وقد ورثت تلك الموهبة عنها فلم يستغرق الأمر منها أياماً معدودات لتتقن اللعب على الكمان ويظل رفيقها الأوحد حتى تتجاوز محنتها ويتوارى في صندوقه أسفاً وحزناً على رحيل جدتها الذي أعقبه موت جدها بفترة قصيرة وتستودع تلك الآلة الموسيقية أحضان النسيان وسط زحام حياتها الجديدة وتظل تنتقل معها في حاجياتها من منزل جدها إلى منزل أبيها ثم من منزل أبيها إلى منزل زوجها وبعد ذلك من منزل الأخير إلى منزلها القديم الذي شهد أيام طفولتها وصباها.

إذن السر في الكمان، هكذا قالت لنفسها، هل تصدق مزاعم الطبيب النفسي بأن هناك روحاً تريد التواصل معها وهذه الروح تسكن هذه الآلة الموسيقية، لكنها جربت بنفسها العزف عليها عشرات المرات من قبل ولم يحدث أن استفزت هذه الآلة أحد الأرواح أو اقترن ذلك بحدوث أي أمر غير طبيعي بالمرة.

التفتت باتجاه الشاب الوسيم مرة أخرى لتجده قد اختفى واختفت معه الكمان أيضاً فتذكرت نصيحة الطبيب بالاستسلام برغبتها والتوقف عن مقاومة محاولات الروح التواصل معها بدلاً من الاستسلام عنوة، حسمت أمر نفسها واتخذت قرارها الأخير بعدم المقاومة أكثر من ذلك.

استغرقت دقائق لتستعيد آخر ما مرت به من تفاصيل تسبق غيابها عن الوعي فتذكرت ما حدث معها وانتفضت عن ذلك الفراش تتفقد أمر ابنها فوجدته راقداً كما هو في الفراش المجاور لها ومازال غارقاً في تلك الغيبوبة التي لم يستطع الأطباء إيجاد تفسيراً منطقياً لها، وضعت أذنها على صدره تسترق السمع إلى وقع دقات قلبه فعادت الروح إلى جسدها عندما وجدت قلبه الصغير لازال ينبض بالحياة، قربت وجنتها من أنفه الدقيق وأغمضت عينيها مستمتعة بدفيء أنفاسه الذي يداعبها، تبينت للمرة الأولى أن هناك عصابة قد التفت حول رأسها الذي آلمها فور دنوها من جسد ابنها وشعرت أن ضخ الدماء بتلك الوضعية يؤلم رأسها كثيراً فطبعت قبلة حانية على جبين ابنها وضمت كفه الصغيرة بيديها ثم قبلتها بحرارة وهي تقول بحب: كريم .. أنا عارفة إنك سامعني وحاسس بيا .. أنا مش هسيب

أي حاجة أو أي حد يؤذيك مهما حصل .. حتى لو كان تمن ده حياتي .. أنا همشي دلوقتي بس هرجعلك تاني .. هرجع بعد ما اتأكد بنفسي إن كل حاجة هترجع زي الأول وأحسن واوعدك ان مفيش أي حاجة هتبعدنا عن بعض تاني .. انا يمكن مكنتش الأم المثالية اللي أي ولد بيحلم بيها ويمكن مكنتش بقدر أديلك حقك من الاهتمام والحب بس وحياة كريم عندي لو ربنا قدرلنا احنا الاتنين نعدي من المحنة دي على خير هتشوف إني عمري مهقصر في حقك تاني أبداً ومفيش لحظة هتعدي علينا واحنا فيها بعاد عن بعض أبداً .. ده وعد يا كريم

أحكمت الغطاء الأبيض حول جسده وابتعدت ببطء وعينيها لاتزال متعلقة بوجهه الملائكي البريء حتى وجدت ظهرها يصطدم بباب الغرفة خلفها فاستدارت تفتحه ببطء وهدوء ثم أعادت إغلاقه بنفس الهدوء.

عبرت ممرات المستشفى بسرعة بالغة فاصطدمت عينيها بمرأى عمر في نهاية أحد الممرات يتحدث في هاتفه بانفعال، لم تدري كيف عرف بمكانها لكن لا يهم ففي كل الأحوال لن تسمح له أو لغيره بأن يعطلها عما انتوت فعله، خبطت بحركة لا إرادية على جيب سروال ردائها المنزلي فوجدت المفاتيح لا تزال قابعة فيه فأسرعت الخطى باتجاه المرأب الذي تركت فيه سيارتها بالصباح حين جاءت تركض بصحبة ابنها ومربيته محاولة إسعافه بأقصى سرعة ممكنة.

أدارت المحرك وانطلقت باتجاه منزلها وقد عقدت العزم على مواجهة كافة هواجسها التي تغذت بما فيه الكفاية على خوفها وآن لها أن توقفها عند هذا الحد، ومهما كان ومهما سيكن فالمواجهة خير ألف مرة من الاستمرار في سلسلة من الهروب المتتالي الذي لا يتوقف.

أدارت المفتاح فانفتح الباب لتجد كل شيء كما تركته بالأمس حتى أنوار الردهة التي لم تكن قد أطفأتها كما هي، سحبت المفاتيح واطمأنت إلى وضعها بجيبها مرة أخرى خشية أي مفاجأة قد تحدث من أي نوع ثم أغلقت الباب من خلفها واقتربت من موضع الصندوق الذي يحوي آلة الكمان لتجدها ملقاة بالخارج كأن أحدهم قد عبث بها مرة أخرى.

لم تعر الأمر انتباهاً وفتحت الشرفات عن آخرهم ووقفت في نفس الوضعية التي كانت عليها وقت أن حدث الأمر لأول مرة منذ أيام.

كان الظلام قد هبط وأضيئت أنوار القصر في مواجهتها كما هو الحال كل مساء فنظرت في الفراغ أمامها بتحد وكأنها توقن أن هناك من يراقبها، سحبت الآلة

وأراحتها على كتفها ثم ضغطت أوتارها الدقيقة بأناملها وأمسكت القوس باليد الأخرى وأعادت نفس المقطوعة التي كانت تعزفها بالمرة السابقة والتي استفزت بها شيئاً ما أو شخصاً لا تدري حقيقة كنهه لكنها على استعداد لمواجهته أياً من كان من أجل أن تكتشف حقيقته ومن أجل أن تفتدي عذابات ابنها التي لا تحتملها والتي ليس لها تبريراً سوى أنها استمرار لسلسلة المضايقات التي تتعرض لها من قبل هذا الشيء.

هاجمتها ريحاً قوية هزتها في مكانها وشعرت بنفس الرائحة التي تزكم أنفاسها في كل مرة لكنها لم تستسلم واستعادت وضعها بمنتهى القوة وكأن قدميها قد التصقتا بأرضية الشرفة في صلابة واستمرت تداعب الأوتار بقوسها وأناملها لا تتوقف عن الحركة ولسان حالها يقول ها أنا ذا أريني نفسك إن كنت تستطيع.

وكأن الشيء الذي كان يحركها قد استمع إلى أفكارها فسمعت أزيزاً هادراً يأتي من الجهة المقابلة لها بالخارج فتوقفت عن العزف لا إرادياً لتجد البرج الشمالي للقصر المواجه لشرفتها يلتف حول نفسه وينبعث من داخله صوتاً يشبه الأنين لكنه كان يبلغ من العلو شدته للدرجة التي أوصلته إلى مكانها.

تركت الكمان أرضاً تمام كما وجدتها حين دلفت إلى المنزل واقتربت من سياج الشرفة تستطلع الأمر فلم تجد شيئاً غير مألوف فقد توقف الأنين وتوقف البرج عن الدوران أيضاً وسكن كل شيء وعاد إلى سابق عهده مقفراً مهجوراً.

خفق قلبها بشدة عندما وجدت تلك السيدة ذات الرداء الأسود تقتحم المشهد وتظهر أمامها فجأة مطلة عليها من أعلى قمة البرج بمواجهتها، وجدتها تصفق بكلتا كفيها ببطيء شديد وكأنها تمعن في تعذيبها لا في تحيتها على براعة عزفها كما أرادت أن توحي لها بينما نظرات الكراهية لا تلبث تفارق عينيها.

على قدر ما انتفضت من تلك المفاجأة الغير متوقعة على قدر ما وجدت في نفسها الشجاعة لتركض باتجاه باب الشقة وتترجل السلالم بأقصى سرعتها عابرة بوابة العقار الذي تقطنه باتجاه بوابة القصر.

هالها كم الحراسة المتراص على البوابة الرئيسية للقصر فقررت الالتفاف حول سياجه الخارجي علها تجد ثغرة تستطيع النفاذ منها إلى الداخل، داعبت رأسها بضع قطرات من المطر فتجاهلتها والتصقت خطواتها بمحيط السور حتى حالفها الحظ أخيراً وصادفت جزءاً متهدماً منه بجوار البوابة الخلفية التي تقع في نطاق

شارع جانبي ضيق فكومت جسدها حول نفسه وزجت به من تلك الكوة متجاهلة آلام رأسها التي بدأت تلح عليها إثر الركض المستمر.

بدأت الأمطار تهطل من حولها بينما كان عليها أن تستمر بالركض بالداخل مرة أخرى وألا تتوقف لتلبية نداء رأسها الذي تصاعدت الآلام به فعليها أن تقطع المسافة الشاسعة بين السور الخارجي والقصر نفسه في أقل وقت ممكن قبل أن تلتفت أنظار الحراس إليها.

وقفت تلتقط أنفاسها أسفل الدرج الرخامي وصدرها يعلو ويهبط بشدة وقد التصقت ملابسها بجسدها من فعل الأمطار الغزيرة فصارت تنتفض من شدة البرودة لكنها سيطرت على انتفاضتها نسبياً وتحاملت على نفسها مجبرة جسدها على الانحناء للأسفل بينما رأسها تتحرك يميناً ويساراً مستطلعة الأمر خشية أن يكون هناك من يرقبها من الحرس ويباغتها قبل أن تصل إلى مرادها.

اضطرت إلى الزحف على الدرجات الرخامية على يديها وساقيها بالرغم من كم البلل الذي يعتريها ويحيط بها من كافة الجوانب لكن الأضواء المبهرة التي تحيط بمبني القصر ستجعل فرصة رؤيتها سهلة المنال لمن يتوجه بأنظاره إلى ما بعد السياج فظلت ملتصقة بجسدها المرتعش إلى الأرض الصلبة متحملة رطوبتها وبرودتها الشديدتين وكم الأتربة التي بدأت تهاجم صدرها وتزكم أنفاسها حتى وجدت نفسها في النهاية على حافة آخر سلمة في الدرج فأكملت الزحف إلى البوابة الخشبية المتهالكة التي ولحسن حظها كانت نصف مغلقة فلم يكن الأمر يتطلب منها سوى أن تقفز فوق الجزء السفلي من البوابة والذي لا يتعدى طوله نصف متراً لتجد نفسها أخيراً بالداخل وبعيداً عن انهمار المطر الذي لم يتوقف منذ عبرت تلك الكوة بالسياج الخارجي.

ظلام دامس يغرق المكان من حولها، رائحة الرطوبة العطنة تهاجمها من كل اتجاه، صوت المطر يغلق حاسة السمع لديها ويجعلها تعجز عن استشعار احتمالية وجود أي نبض بالحياة بالداخل، قفزت من موضعها حين ضرب البرق منتصف السماء من فوق قمة القصر فأفضى إضاءته المبهرة على كل شيء لكن سرعان ما تلاشت بعد أن صاحبها هزيم صوت الرعد الذي جعل قلبها ينخلع من مكانه للحظات.

دارت حول نفسها مهتدية بالأضواء الخارجية التي لم تستطع رغم كثافتها المنتشرة بالخارج أن تنير لها اتجاهاتها بالداخل أو تفسح لها طريقاً تلتمسه في رحلتها إلى المجهول خاصة وقد رأت على إثر تلك الأضواء الخافتة أن كل الأبواب المؤدية إلى

داخل القصر قد أغلقت ودق عليها أوتاداً خشبية متعارضة حتى لا تسمح لأي من المتطفلين أمثالها بالتجول داخل جنبات القصر.

دب اليأس في نفسها وانتفض جسدها المبلول في قسوة، شعرت أنها قد تبعت الوهم ولن يعود عليها أي نفع أو فائدة من ذلك، بكت في عجز وهي تتذكر أنها تركت ابنها بتلك الأوقات العصيبة وهو في أشد الاحتياج إليها من أجل لا شيء فدبت بقدمها في الأرض وهي تصرخ في ألم: انتي مين؟؟ .. عايزة مني إيه؟؟ .. وريني نفسك لو تقدري .. انتي أضعف من إنك تعمليلي أنا أو ابني حاجة .. فاهمة .. انتي جبانة

تحركت الأرض واهتزت تحت قدميها إثر دبتها فشعرت بقلبها يدق في سرعة ووجدتها تنشق من أسفلها ويمتد الشق ويتسع حتى يصل إلى الجدار المقابل لها، خرجت من باطن الأرض ريحاً قوية أخذت تلتف من حولها في سرعة فحاولت أن تتماسك قدر الإمكان حتى لا تنجرف إلى قوتها ثم أخذت حدة الريح تخفت رويداً رويداً وكل ما يحيط بها تتغير معالمه في سرعة جنونية فالجدران المتآكلة الطلاء قد اكتست بألوان زاهية والأرضية المتشققة كساها الرخام اللامع ومظاهر الإهمال والخراب التي كانت تعم المكان قد تبدلت وحل محلها أثاثاً كلاسيكياً فاخراً ذو طابع راق وتحف أثرية أنيقة، سكنت الأمطار وتبدد الظلام الذي كانت تغرق فيه الأرجاء وحل محله نور الصباح الذي يتخلل جنبات القصر من النوافذ والشرفات التي طالها التغيير هي الأخرى والتمع طلائها الخشبي المصنوع من الأرابيسك الدقيق تحت أشعة الشمس.

سكنت الريح تماماً وسرى الدفء في عروقها فنظرت حولها لتجد الأبواب المتهالكة التي كانت منغلقة بالعروق الخشبية وقد انفتحت عن مصرعيها بعد أن أصبحت في حالة ممتازة والتمعت واجهاتها الأبنوس وزينتها الحلى النحاسية الفاخرة، ظلت تجول بعينيها من حولها وهي تحاول استيعاب ما تراه حتى استرعى انتباهها صوت نحيب يأتي من الأعلى، اتجهت إلى السلالم الدائرية العريضة وصعدت إلى أعلى مهتدية بأثر ذلك الصوت الذي وجدت مصدره أخيراً في داخل إحدى الحجرات.

ما إن وضعت يدها على باب تلك الحجرة حتى وجدته ينزلق بسهولة إثر لمسها إياه منفتحاً عن آخره لكن ذلك لم يشكل أي نوع من أنواع الاهتمام لتلك السيدتين اللتان جلستا بالداخل يتحدثان بلغة لا تعرفها لكنها تفهمها، كان حوارهما المبهم بالنسبة لها تجد له ترجمة في أعماق عقلها لا تدرك كيفيتها لكن بكل الأحوال كانت أحدهما تبكي في أسى بالغ وقد أخفت وجهها بين كفيها بينما الأخرى تجلس

إلى جوارها توبخها على فعلتها التي لا تدري كنهها.

رفعت الباكية وجهها في مقابلها لتصطدم برؤيتها فقد كانت نفس السيدة ذات الرداء الأسود التي تطاردها في نومها وفي يقظتها لكنها تبدو أكثر شباباً وانحصر الشيب عن رأسها وكسا السواد خصلات شعرها فيما عدا خصلة واحدة عريضة تصدرت مقدمة رأسها؛ أيضاً ثوبها الأسود استبدلته بثياب فاخرة ذات ألواناُ زاهية، كانت تبكي في ندم وحيرة وهي لا تعلم ماذا تفعل قبل أن تقوم الأخرى وتخبرها بهدوء أنها ستتدبر الأمر لكن رجتها ألا تغادر القصر ولا تلوذ بالفرار كما كانت ترغب.

خرجت تلك الشقراء من الغرفة وقد ارتسم على وجهها تعبيراً مخيفاً؛ مزيجاً من الشماتة والاشمئزاز والظفر والكراهية، اتجهت إلى غرفتها فوجدت داليدا نفسها لا إرادياً تتبعها وبمجرد أن وضعت كفها على باب غرفة تلك الأخرى حتى وجدته وقد انزلق من أسفل يدها بسهولة تماماً كما حدث مع الباب السابق.

كانت تتحدث في غنج مع رجل له ملامح أوروبية وشعر أسود فاحم وشارب كث وقد جلست على ساقيه تداعب خصلات شعره وتخبره بنفس اللغة التي لا تعرفها لكن تفهم فحواها أنها قد وجدت حلاً جيداً لمشاكله المالية التي بات يعاني منها في الفترة الأخيرة، كان مشدوهاً إلى سحر أنوثتها بينما كانت تتحدث ببطء وبنعومة قبل أن تلقي بوجهه قنبلة ثار على حفيظتها ونحاها جانباً ثم قام والغضب يستعر في عينيه ثائراُ على شرفه الذي لطخته أخته بتورطها بعلاقة آثمة مع شخص تافه يعمل كعازف كمان ولا ينتمي لعائلة عريقة كعائلتهم وقد أثمرت تلك العلاقة عن جنين بدأت تدب فيه الحياة في أحشائها.

اقتربت منه ببطء وقد أخذت تثني جسدها في إغراء قبل أن تلتف حوله من الخلف وتحيط خصره بكلتا ذراعيها ثم قربت شفتيها الجميلتين من أذنه تبث سمهما فيها، كانت تتحدث بأعصاب باردة بأن أخته قد أخطأت خطأً لا يغتفر وليس له من حل سوى التخلص من تلك الفضيحة قبل أن ينتشر الخبر ويتنامى إلى علم الخدم وكل من يحيط بهم.

استدار ينظر إليها وعلامات الاستفهام تقفز من نظراته قبل أن تلقي بدفة حديثها على شواطئ تعثره المادي الذي لا يجرؤ على الإعلان عنه صراحة نظراً لوضعه الاجتماعي الذي يقف حائلاً بينه وبين كبرياءه ويمنعه أيضاً عن التخلي عن أحد مظاهر الترف والبذخ التي ينعم بها، أيضاً تلك التوسعات التي هو بصدد أن يجريها

في الحديقة الخلفية للقصر والتي توقفت إلى أجل غير مسمى نظراً لأنها تستدعي وجود المزيد من الأموال ليست متوفرة معه في الوقت الحالي وماذا سيكون موقفه بعد ان تعاقد بالفعل مع المهندسين والبنائين منذ عدة أشهر ولم يشرع في بدء العمل الفعلي إثر تلك الضيقة التي يمر بها.

ظل ينظر إليها بينما تحاول أن تبدو في غاية الوداعة وهي تقرب شفتيها من أذنه مرة أخرى وتهمس فيها أنه أحق بميراث أبيه كاملاً، أحق به من أخته التي لم تصن شرف العائلة ولا مكانتها الرفيعة وتصرفت بمنتهى الرعونة والطيش كأنها ليست سليلة عائلة رفيعة المقام، ثم صمتت لحظات قبل أن تردف في مكر ودهاء أن ميراث أخته من زوجها السابق أملاكاً وأموالاً ليست بالقليلة لتذهب إلى عازف الكمان المشرد حال هروبها معه.

صمتت مرة أخرى قبل أن تخبره على سبيل الاستدراج أن أخته قد أخبرتها صراحة أنها قد انتوت الهرب مع عشيقها ثم ابتعدت عدة خطوات عنه قبل أن تكمل حديثها بلا مبالاة بعد أن جلست إلى الأريكة المذهبة ومددت ساقيها إلى طرفها ممسكة بمبرد أظافرها تقلمها في استهانة أن هذا العشيق سيحيى حياة الملوك والأمراء بتلك الأموال والأملاك التي لا حصر لها والتي ستنتقل إليه حال هروبه مع أخته إلى بلجيكا للتمتع بتلك الثروة الطائلة بينما هو غارقاً في ديونه هنا.

جلس على ركبتيه عند موضع قدميها في وضعية كلباً مطيعاً تحت أقدام سيده وسألها وهو يلهث من فرط الانفعال عما تقترحه عليه فتركت المبرد من يدها واعتدلت في جلستها ثم ربتت على رأسه كأنه كلبها المطيع بالفعل وأخبرته أن الطرق على الحديد وهو ساخن هو أفضل الحلول، ثم قامت عن الأريكة وهي تخبره بحزم وقد ارتسم نفس التعبير المخيف على نظراتها أن قبيل الغروب بساعة في الموعد الذي يحتسيان به الشاي سوياً بسطح القصر ستقوم باستدعاء أخته من غرفتها فور أن تصب الخادمة الشاي وتهبط إلى الأسفل وتصحبها إلى قمة البرج ليكون هو بانتظارهما فيباغتها بإلقائها من أعلاه لتلقي حتفها على الفور ويبدو الأمر وكأنه انتحاراً.

تبعت السيدتان وهما يترجلان السلم الخشبي الحلزوني الذي يفضي إلى قمة البرج بعد أن أقنعتها الشقراء أنها قد قصت الأمر على أخيها فغضب قليلاً ثم عاد والتمس لها العذر وقرر الصفح عنها ومسامحتها، كانت خلفهما تماماً بحيث تتلمس بنفسها رجفة الجسد الذي يشتم رائحة الغدر لكن لا يقوى على الإفصاح عن ذلك؛ فهي مذنبة وليس للمذنب الحق في افتراض النوايا، صدق حدسها حين وجدت أخيها

ينتظرها ونظرات الحقد والكراهية تقفز من عينيه قبل أن يسبها ويخبرها أنها قد جلبت العار لعائلتهم بفعلتها المشينة.

كانت ترتجف لكن بداخلها أمل أنه بعد أن ينتهي من توبيخها سيصفح عنها كما أخبرتها ألكسندرا فالتفتت تنظر إليها تستجدي منها دعماً فوجدت الشماتة والحقد يملآن نظراتها إليها فاستدارت تنظر إلى أخيها طالبة منه العفو والسماح لتجده يهجم عليها بلا رحمة ويدفع بجسدها النحيل من الأعلى بكل ما أوتي من قوة، حاولت أن تتشبث بأذيال الحياة فمدت يدها تتعلق بالسياج الخارجي للبرج وصرخت تطلب النجدة بينما أخيها وزوجته يترجلان من قمة البرج ويبتعدا بأقصى سرعة تسمح له بها عرجة ساقه ليعودا باتجاه جلستهما المفضلة بسطح القصر ثم يعودا أدراجهما مرة أخرى من نفس الاتجاه في نفس التوقيت الذي تزامن مع اجتذاب الأسماع لصرختها.

وجدته يقترب بصحبة زوجته التي لا تعلم كيف لم يستغرق منها الأمر وقتاً لترسم تعبير الفزع والحزن على وجهها بهذه البراعة وبمنتهى الإتقان، نظرت إليهما باستعطاف ثم إلى الأسفل تلتمس المساعدة من الآخرين الذين تجمعوا يرثون حالها وقد شلت المفاجأة تفكيرهم فلا يدرون كيف يمدوا إليها يد المساعدة قبل أن يفاجئهم البرج بإعلانه عن بدء دورته الجديدة التي كادت أن تدك عظامها عندما حملت جسدها المتأرجح الذي تعلق بسياج البرج مقتربة به خلال الدوران من جدار القصر الملاصق للبرج فأفلتت يدها وتركت جسدها ينزلق مع الهواء إلى أسفل بعد أن ثبتت نظراتها على وجهي أخيها وزوجته اللذان أتقنا دور المصدومين وتركا معالم الذعر والهلع ترتسم على وجهيهما ببراعة.

كتمت داليدا شهقة كادت تتجاوز حلقها لهذا المشهد الجلل وأسرعت تترجل السلالم إلى أسفل لتجد المشهد وقد تبدل في لحظة وهبط الليل على أرجاء القصر وسكنت حركة قاطنيه وخفتت الأضواء المنتشرة في أرجائه، كانت قد بلغت الطابق الأوسط عندما وجدت دخاناً كثيفاً يخرج من أسفل باب الغرفة التي طرقت بابها من قبل فوضعت يدها على الباب لينزلق إثر لمسها إياه من جديد، وجدت الغرفة على حال غير سابق حالها فقد تبدلت معالمها وكأن سكان القصر قد تعمدوا محو ذكرى السيدة الشابة صاحبة الغرفة الأصلية ولفت أنظارها من وسط ذلك الدخان امرأة جميلة لها غرة ناعمة بنية اللون بمقدمة شعرها وقد جلست القرفصاء أرضاً وأمامها العديد من قصاصات الورق ومساحيق مختلفة الألوان يتوسطهم منقدُ انطلقت منه الأبخرة والروائح النفاذة وأخذت تتمتم بكلمات غير مفهومة وكأنها

لغة غير بشرية، أدارت رأسها فوجدت عينين خائفتين لصبية تدثرت بالغطاء لكن جسدها يرتجف من شدة الخوف وهي تراقب أفعال مربيتها التي دأبت على القيام بها كل ليلة من أجل استدعاء أرواحاً شريرة تستعين بهم على قضاء حوائجها وتتعبد في حضرتهم في الشيطان الذي كانت تدين له بالولاء والطاعة.

أتاها صوت تلك المربية من خلفها فالتفتت إلى موضع الصوت لتجدها تتحدث مع أحد الخدم الذي كان يخبرها أن قريباً لها بالأسفل يطلب مقابلتها فتبعتها ورأتها تخطو بخطوات حائرة متسائلة كيف وهي ليس لها أقرباء في تلك البلدة ولا حتى أصدقاء منذ أن وطأتها قدميها ولا مأوى لها بها سوى هذا القصر.

تبعت خطواتها وهي تقترب من البوابة الرئيسية للقصر تستبين الأمر حتى وجدت شاباً في غاية الوسامة ينتظرها هناك، صعقت داليدا عندما تبينت ملامح هذا الشاب فقد كان نفس الشاب الذي رأته في حجرة ابنها بالمستشفى يشدو بألحان حزينة على أوتار الكمان الخاص بها، كان يقف بالبوابة ينتظر مجيء أخرى غير تلك التي قدمت إليه نفسها وأخبرته أنها دي مورييه التي سأل عنها فوجدت خيبة الأمل تعتلي نظراته وهو يرفض ذلك ويصف لها الأخرى التي تحمل نفس الاسم وتعمل بنفس المهنة لكنها امرأة أخرى غيرها، كان يتحدث بلوعة وهو يصف ملامح وصفات تلك التي خلبت لبه ورمته في بحار الهوى وتركته يغرق بها ثم اختفت وانقطعت أخبارها عنه لما يزيد عن ثلاثة أسابيع كاد يجن خلالهم ويفقد عقله.

تبعت داليدا دي مورييه وهي تقتاده إلى حجرتها الخاصة في ذلك السرداب الخلفي الذي تنتشر به حجرات الخدم ثم وجدتها تستأذنه لتعد له شراباً ريثما تبحث له عن معشوقته فهي حتماً تعرف طريقاً تؤدي إليها، تبعتها إلى حجرة جانبية أخرى وكانت تشعر بها وقلبها يرقص طرباً وقد وضعت خطتها للإيقاع بهذا الشاب الوسيم في حبائلها والذي غزا شغاف قلبها منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها وكاد قلبها يقفز من ضلوعها حين وجدته في انتظارها هي ليصدمها ببساطة كونها ليست الشخص المرغوب فيه.

كانت على قدر من الذكاء يتيح لها تخمين سوء الفهم الذي ورطتها فيه السيدة الراحلة لكنه في كل الأحوال كان سوء فهم محبباً إليها.

أغلقت الباب خلفها بهدوء وفتشت في الأغراض بهذه الحجرة حتى استخرجت لفافة بحرص وفضتها لتظهر بها يداً بشرية وضعت في محلول يحفظها ثم جففت في الشمس لأسبوعين بعيداً عن الأعين، وضعتها في إناء وسكبت عليها مقداراً من

كبريتات النحاس من قارورة زجاجية وأضافت مقداراً من الملح ثم تناولت قدراً يسيراً من المزيج المترسب أمامها ووضعته بقنينة وقربت شفتيها منها متمتمه: بإسم الشيطان الأعظم .. باسم بافوميت .. باسم الخطايا السبع .. يد المجد يداً طائلة .. تضع مرادنا نصب أعيننا .. بقوة الفاسيتفا التي تروض بها الوحوش وقوة الإيشيتفا التي تسيطر بها على الكون وقوة الأنيما التي نبث فيها من روحك المعظمة بروح الآخرين اجعل روح هذا الشاب تميل إلي روحي وتعشقها .. اجعله رهن بناني يا سيدي .. اجعل قلبه ملكي فور أن يسري هذا الشراب بجوفه اجعل عشقي يجري بعروقه مجرى الدماء

أحكمت القبض على تلك القنينة بقبضة يدها وهي تعبر خارج الغرفة فتبعتها داليدا إلى ذلك المطبخ الضخم والذي يستعمل أفراد المنزل المصعد ليصلوا إليه بالأسفل، أفرغت محتوى القنينة في كوباً من العصير ثم حملته في وسط صينية فضية معللة لباقي الخدم أنه لسيدتها الصغيرة وسط اعتراضاتهم فقد كانت ألكسندرا تحذرهم من تدخل الخدم الغير مختصين بأمور المطبخ في شئون الطعام والشراب.

تجاهلت اعتراضاتهم وتحذيراتهم غير مبالية بكونهم قد يوشوا بذلك إلى سيدتهم فسيدة الدار في أمس الحاجة إلى وجودها طالما ابنتها مريضة ولا تقوى هي كسيدة أرستقراطية مرفهة على خدمتها فحملت الصينية الفضية وأطلقت ساقيها للريح حتى دنت من حجرتها الخاصة وطرقت بابها في انفعال فوجدته جالساً كما هو في حيرة من أمره، ناولته كوب العصير وشددت عليه ليأخذ ولو رشفة منه قبل أن تذهب لاستدعاء حبيبته، امتلأت نفسه بالأمل وتجرع العصير دفعة واحدة وهو يكاد لا يصدق أنه سيبلغها هكذا بهذه السرعة فاختفت عن أنظاره لدقائق وعادت بعد أن تأكدت أن مفعول الشراب قد بدأ في العمل وعندما عادت ورأت وجهه قد أشرق برؤياها تركت له زمام أمور نفسها يفعل بها كما يحلو له.

التفتت داليدا بالاتجاه الآخر فوجدت عينان ترمقان ما يحدث بصمت مفعم بالكراهية، وجدت سيدة كوابيسها وقد ظهرت أمامها للمرة الأولى بهذا الرداء الأسود الذي لم يعد يفارق روحها التي علقت بعالمنا إثر استدعاء أخيها للاعتذار منها وموت ذلك الوسيط فجأة والذي كان من المقدر له أن يصرف روحها بعد اتمام المهمة.

رأتها داليدا ترميهم بنظرة مقيتة لا تختلف عن تلك التي ترميها بها في كل مرة تتلاقى فيها أعينهما لكنها لمت أذيال ردائها القاتم وتركتهما وانطلقت لمكان آخر فقد كان لديها الكثير من تصفية الحسابات مع سكان هذا القصر، التفتت داليدا

مرة أخرى إلى داخل الغرفة لتجد دي موريه تعض على شفتيها السفلى حتى أدمتها وهي تتوجع وتصرخ من شدة الألم بينما بطنها منتفخة أمامها فقد آتتها آلام المخاض وليس معها في الغرفة سوى إحدى زميلاتها من خدم القصر وحبيبها الذي كان يمسك بيدها ويحاول شد أذرها بكلماته التي لم تفلح في دفع وطأة الألم عن نفسها ولو بقدر يسير.

فجأة توقفت الآلام وتنفست الصعداء بمجرد ما إن ارتفع صراخ الوليد يعلن قدومه للحياة فابتسمت دي موريه في ارتياح بينما تلقفت زميلتها الطفل المولود لتعلن في بهجة لوالده أنها طفلة وليست طفل، أخذا يدثرا جسدها الصغير الغض بالأغطية دون أن يلاحظ أياً منهما معالم الهلع التي ارتسمت على ملامح دي موريه والتي همت بفتح فاهها للصراخ عندما ألجمتها قوى أعظم منها جعلتها تصمت إلى الأبد، حين التفت إليها جابرييل ليهنأها بقدوم طفلتهما إلى العالم صعقته حقيقتين، حقيقة أنها ماتت وحقيقة أن من يراها جثة هامدة ووجهها اليابس ينطق بكل معالم الرعب والفزع ليست نفس الحبيبة والمعشوقة التي كانت إلى جواره منذ دقائق والتي يحمل ثمرة حبهما سوياً بين يديه.

لم يكن يدرك أن هناك شبحاً لامرأة ذات رداءً أسود اللون ينقل الأنظار بينه وبين الجثة الهامدة إلى جواره بتشف بالغ وكادت أن تقترب بيد السوء من تلك الطفلة الوليدة لولا أن سمعته يسأل الخادمة التي أخذت تبكي في هستيريا عن هذه الراقدة بالفراش لتخبره من وسط دموعها أنها دي موريه حبيبته وزوجته فوجدته يحتضن الطفلة الصغيرة وهو يقول بذهول أنها ليست دي موريه وليست بزوجته ولا حبيبته.

تبعته داليدا في حين كانت الخادمة تحدث نفسها أن عقله قد أصابه مكروهاً إثر تلك الصدمة بينما كان يحتمي بحضن تلك الوليدة ويسير في ذلك السرداب الطويل فوجدته يسير منحني القامة وهو يضمها بكل ما أوتي من قوة ودموع صدمته لا تتوقف، ثم توقفت الدموع وتبدلت بضحكات مسموعة حين وجدتها تسير إلى جواره فتاة صغيرة مليحة الملامح وتقفز بجواره في مرح، ثوان أخرى وجدتها خلالها قد أصبحت صبية يافعة تمسك بالكمان الذي يزدان بحرف ال«G» وتداعب أوتاره في انسجام ولا يزال هو إلى جوارها لكن مظاهر الكبر قد بدأت تزحف على ملامحه وقبل أن يصلا إلى نهاية السرداب وجدت الفتاة اليافعة وقد صارت امرأة جميلة ناضجة تتأبط ذراع رجل آخر غير والدها الذي اختفى من جوارها فجأة.

اقتربت منها تتبين ملامحها فوجدتها تلتفت إلى الخلف ناظرة إليها وهي تبتسم في

حب، عادت إلى الخلف وقد صعقتها حقيقة الأمر بأن تلك المرأة التي تراها باسمة لم تكن سوى جدتها وهذا الرجل الذي تتأبط ذراعه هو جدها.

كانا قد غادرا السرداب إلى الخارج فأسرعت الخطى لتتبعهما فوجدت جدها يقف إلى جوار والدتها يربت على كتفها في ردهة المستشفى التي كانت قد انتقلت إليها هي وأخيها ووالدها بعد الحادث الذي تعرضوا له، اقتربت منهما محاولة سماع الحديث الدائر بينهما فوجدت طبيباً شاباً يقترب منهما أيضاً في نفس اللحظة ويستأذن والدتها في حديث خاص، حينذاك ابتعد جدها واتجه يجلس إلى جوار جدتها التي كانت تمسك المصحف وتقرأ فيه متدبرة آياته في خشوع محاولة البحث عن ملاذ لحزنها ومخاوفها على حفيديها بين أسطره المطهرة، عندما وجدت يده الحانية تربت عليها حينذاك تلقفتها بيدها وانحنت تقبلها وهي تنظر إليه بعرفان فهو صاحب الفضل عليها في اعتناقها الإسلام وهو من علمها القراءة والكتابة باللغة العربية وهو من قام بمساعدتها على حفظ وتدبر آيات الذكر الحكيم لذا رغم كل الظروف التي تدور من حولهما لم تستطع أن تمنع نفسها من التعبير عن الشعور بالامتنان إليه في تلك اللحظة.

تركتهما وعادت تقترب من الطبيب الذي كان يبدو متحرجاً وهو يخبر والدتها أن أبيها قد أصيب إصابة بالغة نجم عنها تهشم منطقة الحوض وبعد خضوعه للعمليات الجراحية يفترض علمياً وعملياً فقدانه الكلي للقدرة على الإنجاب ومن المرجح أن تؤدي تلك الإصابة أيضاً إلى فقدانه القدرة على ممارسة حياته الطبيعية كرجل بنسبة كبيرة، كان العرق يتصبب من جبينه وهو يحاول أن يفضي إليها بتفاصيل تبدو محرجة للغاية لكنه أوصاها على أية حال أن تبقي الأمر سراً خاصة عن زوجها الذي ستؤثر حالته النفسية بالسلب على حالته الجسمانية حال معرفته لحقيقة الأمر.

بنفس اللحظة استرعى انتباهها وجود فريال في ردهة المستشفى تمشي على أطراف أصابعها وتتلفت يميناً ويساراً قبل أن تدلف بأقصى سرعتها إلى غرفة أبيها، كانت تبدو بهيئة بسيطة لا تشبه هيئتها الحالية من مظاهر البذخ والثراء المغالى فيها والتي لا تذكر أنها قد رأتها دونهم من قبل، تبعتها قبل أن تحكم إغلاق باب الغرفة عليهما لتجده ينتفض في فراشه رغم آلامه ويوبخها بطريقة لا تتماشى مع حالته الصحية البائسة لكن الأخيرة لم تنصاع إلى رغبته برحيلها قبل أن تراها زوجته وأصرت على عدم الخروج قبل أن تخبره أنها تحمل في أحشائها طفلاً منه ولن يهدأ لها بالاً قبل أن يتزوجها بشكل رسمي ويعلن أبوته لذاك الطفل وإلا ستتولى هي

إعلان الأمر على الملأ وإخبار الجميع به وأولهم زوجته، قبل أن يهم بإبداء المزيد من الاعتراض وعدم قبوله لتهديداتها كان صوت الصراخ يرتفع بالخارج فقد كانت تلك اللحظة التي انتقلت فيها روح فريد الطاهرة إلى بارئها ومولاها.

تبعت فريال بعد خروجها من المستشفى لتجدها تتجه إلى داخل متجر الطيور وأسماك الزينة المملوك لصديق والدها والذي اعتادت هي شخصياً على ارتياده، وجدتها وقد تبدلت هيئتها وصارت على ما هي عليه في الوقت الحالي لكنها تبدو أكثر شباباً من الآن، بمجرد أن دلفت إلى داخل المتجر راقبت الطريق بالخارج ثم فتحت باباً جانبياً من المفترض أنه يخص المخزن فقام صاحب المتجر بمراقبة الطريق بدوره قبل أن يطفئ الأنوار ويغلق أبواب المتجر من الداخل ويتبعها.

كانت داليدا تتبعه عندما اكتشفت أن ذلك الباب الذي من المفترض أنه كان يخفي مخزناً وراءه لم يكن سوى ساتراً يخفي خلفه حجرة نوم اتخذاها عشاً للغرام والمتعة المحرمة، كانت تنتظره بالداخل وقد تخلت عن ملابسها التي أتت بها من الخارج واستبدلتها بأخرى وعندما رأته ألقت بنفسها في أحضانه ثم وجدتها ترفع رأسها لتسأله في حيرة: فكرت في حل للموضوع اللي قلتلك عليه؟

بدا لا مبالياً وهو يتساءل في تجاهل متعمد عن كنية هذا الموضوع، ابتعدت عنه صائحة: إيه يا سامي .. انت نسيت إني حامل في الشهر التاني ومش عارفة اتصرف في المصيبة دي ازاي.

ضحك باستهتار: مصيبة إيه بس يا روحي .. متقولي لعاصم إنك حامل فيها إيه يعني؟

ثم غمز بعينه بطريقة فجة مكملاً: يعني هيا أول مرة مثلاً

كظمت غيظها وهي تقول: لأ مش أول مرة .. بس المرة اللي فاتت مكنتش متأكدة إذا كان يحيى ابنك ولا ابنه انما المرادي انا متأكدة إن اللي في بطني ده ابنك انت

أشعل سيجارة وهو يرفع إحدى حاجبيه قائلاً في استخفاف: يا سلام وإيه اللي مخليكي متأكدة كده؟؟

أخذت السيجارة من فمه ونفثت دخانها في انفعال قائلة بعصبية: علشان عاصم مش هوا عاصم .. يعني من يوم متجوزنا رسمي بعد الحادثة اللي مات فيها ابنه واللي ولدت يحيى بعدها وهوا مش في حالة طبيعية زي متكون الحادثة أثرت عليه

أو موت ابنه عمله مشكلة

ضحك في لامبالاة: طب يا ستي أهي فرصة تجبري بخاطره وتثبتيله أنه زي الفل

نظرت إليه بحذر: ساعات لما بشوفكو مع بعض مبصدقش ان انت نفس البني آدم اللي بتكرهه بالشكل ده .. ازاي بتقدر تمثل عليه إنك صاحبه أوي كده

أشعل سيجارة أخرى غير التي اختطفتها من بين شفتيه وهو يقول بنبرة تقطر حقداً: أصل اللي زي عاصم ده أنا بس اللي عارفه على حقيقته .. ده صنف دحلاب .. بيفضل يتمسكن لحد ما يتمكن .. لو تشوفي كان جاي من بلدهم ازاي وحالته كانت إيه متصدقيش التنطيط اللي بقى فيه بعد ما أحواله اتعدلت .. فلاح وفلح زي مبيقولوا .. ورغم أنه طلع ولا نزل كان حتة مساعد مخرج .. بس تنطيطه زاد لما اتجوز أسمى الله يرحمها اللي مش عارف لحد النهاردة ازاي بصت لواحد جربوع زيه .. وحياتك انتي ما عاد بيعرفني ولا بيفتكرني وأول واحد اتخلى عني لما مصنع أبويا فلس وبيعنا كل اللي ورانا واللي قدامنا علشان نسدد ديوننا .. ولما رحت استلف منه قرشين علشان اعرف افتح المحل ده مشغل بدل ما أشحت انا وامي واخواتي بعد موت أبويا بحسرته .. ادعى الفقر وبقى يتهرب مني .. لولا اصحاب ابويا اللي طمرت فيهم العشرة كان زماننا بنشحت عالارصفة وابواب الجوامع .. لأ وبعد ده كله وبكل بجاحه جايلي لحد عندي بحجة أنه يسأل عليا وأتاريه جاي يشوفلك شغلانة عندي .. أنا وقتها حسيت أن عينه منك فقلت أجيب رجله واشغلك عندي واهي فرصة أبرد ناري منه .. وبصراحة انتي كده كده كنتي عجباني لكن لقيتك متشعلقة في حبال الجواز الدايبة وانا مش بتاع جواز أصلاً علشان كده سيبتك تروحيلو بمزاجي وأول ممراته عرفت لفيتي لفتك ورجعتيلي تاني ومن ساعتها واحنا الاتنين عرفنا ان احنا مالناش ألا بعض وان احنا الاتنين دوا بعض.

وضعت يديها في خصرها وهي تقول بحقد بالغ: عمري مهنسى أنه رماني ليلتها زي الكلبة الجربانة ولما رجعت البيت اللي كنت عايشه فيه صاحبته قفلت الباب في وشي ولولاك انت كان زمان كلاب السكك بينهشوا فيا .. علشان كده عمري محسيت أنه صعبان عليا لما بيكون مسافر وانت نايم في فرشته بداله .. ولا بيصعب عليا لما بلاقيه كل ليلة قايم مفزوع من نومه مش عارف ينام من كتر الكوابيس .. وعمره مصعب عليا وانا بفرض وجودك عليه في بيتنا بحجة انه معادش ليه اصحاب غيرك وإنك انت صاحب فضل عليا وعليه رغم إنك مبتبقاش جاي غير علشاني أنا.

انسحبت من هذا المكان الذي خطت إليه بقدميها ولم تكن تعلم أنه مذبح قدمت

ساقطة مستهترة شرف والدها قربانها إليه ليطأه عدو قذر يدعي الصداقة بحذائه النجس، شعرت بتعاطف بالغ مع والدها وأخذت تجول بعينيها باحثة عنه حتى وجدت قدماها يقودونها إلى منزلهم القديم الذي تقيم به حالياً لكن وجدته كما هو حين تركته وهي صبية قبل موت أخيها، دفعت باب المنزل لتجد أمها جالسة إلى أرضيته تبكي بحرقة وتقلب بين كفيها صوراً فوتوغرافية لوالدها وفريال يحتضنان مولودهما الأول المشكوك في نسبه في وقت يسبق المشهد السابق بسنوات.

شعرت بالدموع تنساب على وجنتيها من أجلها وودت لو كان بمقدورها أن تخفف عنها جزءاً من أحزانها التي تداعت عليها من كل اتجاه فانحنت أرضاً لتجلس بجوارها وتتشمم رائحتها الذكية التي افتقدتها طيلة السنين الماضية، كانت الفوضى العارمة تجتاح المكان والأشياء مهشمة ومبعثرة من حولها وكأنها قد أفرغت نوبة غضبها بهم وجعلتهم يسددوا ثمن خيانته لها بالنيابة عنه.

انتبهت من أحزانها عندما استرعى أسماعها صوت باب المنزل ينفتح معلناً قدومه من الخارج، وجدتها تلملم الصور المتناثرة بسرعة وتخفيهم بعناية ثم تقوم بمسح دموعها وتتجه لاستقباله بالخارج ووجهها يحمل ملامح فارغة من أية تعابير.

جلسا إلى مائدة الطعام يتناولان غدائهما الذي أحضره معه من الخارج فلم تكن تقوى في وقتها على إعداد الطعام أو ممارسة أي عمل مما اعتادت عليه من قبل، كان يتحدث بهدوء شديد متساءلاً عن مسببات مظاهر الفوضى تلك من حولهما فلم تستطع أن تتمالك أعصابها كثيراً أمام برودة أعصابه وادعاءاته الاهتمام بها والسؤال عن أحوالها فقامت عن المائدة وأتت بالصور الفوتوغرافية وقذفت بها في وجهه وهي تصرخ فيه وتوبخه على عدم تغيره إلا من سيء لأسوأ وهو يواجه كل اتهاماتها تلك بثبات وأعصاب هادئة.

ظلت تواصل الصراخ فيه وتذكره بفشله وخيانته بينما يجمع الأطباق ويودع ما تبقى بها بصندوق القمامة ويلقي بها في المطبخ وهي لم تتوقف عن تذكيره بكل المواقف السابقة بينهما والتي خذلها فيها وخذل حبها له وثقتها فيه، واصلت الصراخ فيه بينما يواصل هو الاقتراب منها صامتاً والغضب يستعر في نظراته من معايرتها إياه بكل ما سبق من إخفاقاته وتحملها لذلك مضطرة من أجل حياتهما سوياً التي لم يحاول أن يحافظ عليها، ظلت تواصل الصراخ ويواصل هو الاقتراب؛ تواصل الصراخ ويواصل الاقتراب حتى وجدت نفسها بالنهاية وقد التصق ظهرها بسياج الشرفة وقبل أن تتبين الأمر كان قد دفعها إلى أسفل ليتخلص من كل صراخها ويوقفه إلى الأبد.

انتفضت تشهق في ألم وشعرت أن عزم شهقتها يكاد يشطر صدرها إلى نصفين، كانت تشعر بنفس الإحساس الذي راودها وهي طفلة لم يتجاوز عمرها السبع سنوات على شاطئ العجمي بالإسكندرية حين داهمتها وقتها وهي تلهو بمياه البحر إحدى دواماته المفاجأة فوجدت قوة هائلة تجتذبها من مكانها وكأنها تبتلعها إلى الداخل ففتحت فمها لتصرخ مستنجدة بأمها وأبيها لتزيد الأمر سوءاً بابتلاعها للمياه المالحة في جوفها ولا تدري كيف انتهى الأمر تحديداً لكن وجدت نفسها في النهاية على الشاطئ وكلاً من أبويها ينظران إليها في قلق وقد فتحت عينيها ببطء وهالها التعبير الذي رأته على وجهيهما والذي لم يختلف كثيراً عن إحساسها وقتها ولا يختلف أيضاً عن إحساسها الآن ..... إحساس العودة من الموت.

استرعت شهقتها انتباه عمر الذي كان يستند برأسه إلى جدار الحجرة فأسرع يقترب منها ويشد على يدها اليسرى بينما كفها الأخرى قد امتدت إليها الأنابيب التي تزج بسائل لا تعرف ماهيته إلى أوردتها، قامت أم شادي من مقعدها بجوار كريم في الفراش المجاور لها لتستدعي أحداً من طاقم التمريض بالخارج كي يطمئنهم عليها.

كانت أنفاسها اللاهثة منذ ثوان قد هدأت نسبياً فنظرت إلى عمر بذهول وقالت في انفعال: ماما منتحرتش يا عمر .. مسابتنيش يا عمر .. متخلتش عني زي مكنت مفكرة

بدأت دموعها تنهمر فالتفتت تنظر حولها وهي تتساءل بدهشة: هوا انا جيت هنا إزاي؟

في تلك اللحظة دخلت المربية تتبعها ممرضة ارتسمت على وجهها معالم الارتياح بمجرد أن رأتها تنظر إليها وقد استردت وعيها فابتسمت وأخذت تداعبها بكلمات تطمأنها على حالها ثم طلبت منها عدم بذل أي مجهود نهائي والامتثال إلى أوامر الطبيب بالراحة التامة حيث أنها يجب أن تظل تحت الملاحظة لمدة أربع وعشرون ساعة إضافية لتفادي عواقب الارتجاج الذي أصاب جمجمتها إثر اصطدامها بالجدار وارتطام الكرسي المعدني برأسها.

قامت الممرضة بالاطمئنان على كريم الذي يرقد بالفراش المجاور لها وأوصت مربيته بمتابعته وإطعامه عندما يستيقظ من نومه فقد أفاق من غيبوبته أثناء وقوعها هي في الغيبوبة لكنه لم يستيقظ من قيلولته بعد.

بمجرد أن اختفت الممرضة من الغرفة أدارت رأسها إليه تسأله مرة أخرى: أنا جيت

هنا ازاي .. أنا آخر حاجة فاكراها إني مشيت من هنا ورحت البيت حتى شفتك بتتكلم في الموبايل بره في الطرقة بس مرضتش اندهلك .. صحيح انت عرفت ان انا هنا ازاي؟

ابتسم وهو يربت على كفها: كلمتك على موبايلك خمسين مرة لحد ما أخيراً أم شادي كتر خيرها ردت عليا وقالتلي عاللي حصل وجيت لقيتك في غيبوبة ومن ساعتها وانا قاعد جنب سريرك متحركتش من مكاني

انتبهت لأول مرة أن الوقت يبدو باكراً بينما تذكر أنها قد غادرت المكان هنا بالأمس فأسرعت تسأله في لهفة: يعني انت بايت هنا من امبارح

ابتسم مرة أخرى: وحياتك انتي عيني مغمضتش ثانية واحدة لا أنا ولا الست الغلبانة دي علشان نتطمن على حضرتك انتي والاستاذ كريم

ابتسمت له أم شادي وهي تؤكد على كلماته وتمتدح صنيع معروفه حيث أنه لم تغفل عيناه عنهما ولم يتباطآ للحظة عن إجابة أحد طلبات الطبيب أو طاقم التمريض الذي يتابع حالتها هي وابنها

عقدت حاجبيها وهي تتجاهل وصلات المديح المتبادلة بينهما وقالت بعصبية: يعني قصدك تقول إن أنا مخرجتش من هنا !!

ابتسم في إشفاق: يا داليدا يا حبيبتي انتي كنتي في غيبوبة من امبارح الضهر وكريم فاق وسأل عليكي وقولناله إنك نايمة علشان ميتخضش عليكي

نقلت أنظارها ما بينه وبين سترته البنية التي خلعها عنه وتركها على طرف فراشها: بس أنا متأكدة ان انا خرجت .. أنا شفتك بنفس اللبس ده .. وكنت لابس الجاكيت ده .. وكنت واقف بتتكلم في الموبايل .. طب مش انت جالك تليفون وخدته وطلعت بره وكنت بالأمارة بتتكلم وانت متعصب وكنت ساعتها لسه مقلعتش الجاكيت ده

عقد حاجبيه وهو يقول بتردد: آه .. بس لما رجعت كنتي لسه في الغيبوبة زي مانتي حركت يدها للخلف وقبضت على خصلات شعرها وجمعتهم معاً إلى الأمام: طب بص شعري .. لسه مبلول .. علشان تصدقني .. انا خرجت من هنا والدنيا مطرت عليا .. أنا شعري لما بيتبل مبينشفش غير بالسيشوار .. صدقني يا عمر أنا خرجت من هنا إمبارح.

نظر إلى القطرات التي علقت بأطراف شعرها في حيرة وأعاز ذلك إلى بعض حبيبات العرق التي تولدت إثر غيبوبتها الطويلة والتزامها الفراش لكنها بدت غير مقتنعة وتطلعت إلى سقف الحجرة وهي تسترجع ما مرت به من تجربة ثم تذكرت أمر موت والدتها واعتدلت في جلستها قبل أن تنزع الأنبوبة التي انغرز سنها المدبب في وعاء بلاستيكي صغير تم تثبيته في كف يدها لينقل إليها السوائل دون تكبد عناء تغيير أنابيب المحاليل كل فترة فوجدته ينظر إليها باستنكار صائحاً: انتي بتعملي إيه .. انتي مسمعتيش الممرضة كانت بتقول إيه .. انتي عايزة تأذي نفسك

تجاهلت كلماته ونظرت إليه قائلة بحزم: معايا رسالة لازم أوصلها

ضرب كفاً بكف: رسالة إيه وتوصلي إيه .. داليدا أنا بجد معدتش فاهمك .. انتي بتتصرفي تصرفات غريبة ومش مفهومة وبتقولي كلام غريب ومش مفهوم ومش مراعية ظروفك الصحية وان انتي كان ممكن تضيعي مننا إمبارح بسبب تصرف غريب لا أنا ولا أي حد في الدنيا يقدر يفهمه أو يتصور انتي ليه عملتي في نفسك كده

نظرت إليه باستعطاف: علشان خاطري يا عمر .. لو ليا خاطر عندك متمنعنيش

لم يستطع أن يتمسك برفضه في مواجهة نظراتها فقال: موافق بس بشروط .. أول حاجة متعمليش أي حاجة تأذي بيها نفسك .. تاني حاجة رجلي على رجلك

نظرت إليه وقد بدا ثمة اعتراض على وجهها فتجاهله هو وقام يساعدها على النزول عن الفراش ثم مد سترته يحيط بها كتفيها وقال بمرح: تالت شرط انك تبقي ترجعيلي الجاكيت ده في أي يوم من الأيام علشان عزيز عليا

ابتسمت فأتبع بمرح: لأ توعديني من فضلك

اتكأت على ذراعه الممدودة إليه وابتسمت: أوعدك

قبل أن تخرج من الغرفة التفتت إلى السيدة التي لا تزال تصارع النوم من أجل البقاء متيقظة وابتسمت إليها في امتنان: أنا مش عارفة أقولك إيه بجد .. ربنا يخليلك ولادك ومتشوفيش فيهم أي حاجة وحشة أبداً .. خدي بالك من كريم وانا عارفة إنك مش محتاجة توصية .. أنا مش هتأخر عليكم وأول ماجي أرجوكي تروحي لولادك علشان كده كتير انتي تعبتي معانا أوي.

ظلت متكأه على ذراعه حتى وصلا إلى سيارته فأسرع يفتح بابها واطمأن إلى أنها قد جلست بارتياح ثم التف إلى الباب الآخر واتخذ مكانه قبل أن يلتفت يسألها في مرح: ها .. على فين العزم ان شاء الله؟؟

تجولت بعينيها في ملامحه قبل أن تقول: عمر .. انت سبت العزا بتاع مامتك علشاني؟؟

تلاشت كل معالم البهجة والمرح من على وجهه وهو يهز رأسه: العزا بالنسبالي خلص وقت مدفنتها .. اللي هييجي يعزيني بعد كده هيقولي إيه ولا عزاه ليا هيعوضني إيه عن خسارتي فيها

ربتت على كتفه بإشفاق: علشان كده كنت بتتخانق في الموبايل امبارح؟؟

بدا في غاية الضيق: دول اخواتي البنات .. زعلانين وبيقولو ان الناس أكلت وشهم .. هما مش فاهمين ان الناس دي جاية تضيع وقت .. يعملوا واجب زي مبيقولوا .. كل واحد جاي يزيح من على صدره هم تقيل علشان محدش يعتب عليه ويقوله مجتش ليه .. بس لو جيتي تسألي كل واحد بينك وبينه هيقولك ان لو عليه مكانش عايز ييجي ولا يتعتع من بيته

أطرق برأسه ثم أكمل بسخرية مريرة: أصلاً المفروض العزا يبقى بدعاوي زيه زي الأفراح بالظبط واصحاب العزا يدعوا بس الناس اللي هما محتاجينهم جنبهم في اللحظة دي .. الناس اللي واثقين انهم هيقدروا يخففوا عنهم بكلامهم وطبطبتهم حتى لو فضلوا ساكتين سكوتهم في حد ذاته بيجبر بخاطرهم .. الناس اللي ممكن يضعفوا قدامهم براحتهم ويعيطوا ويصرخوا ويهرتلوا بأي كلام من غير ميشيلوا هم تقل ردود أفعالهم ولا مصمصتهم لشفايفهم وهما بيمثلوا أنهم بيتصعبوا على حالهم .. العزا لازم يبقاله هيبته مش كل من هب ودب يدخل يرمي من على كتفه الواجب ويخرج راضي عن نفسه وحاسس انه عمل اللي عليه وزيادة .. أصلاً قوليلي كده اللي بييجو بيعملوا إيه؟؟ .. بيفضلوا ساكتين .. بيتنحوا في بلاط الرصيف لما مبيلاقوش حاجة يقولوها أو يعيدوا ويزيدوا في نفس الكلام بتاع شد حيلك وكلنا لها وبعدين واحدة واحدة يقعدوا يرغوا على جنب من تحت لتحت في أي مواضيع تانية قال يعني محدش آخد باله منهم .. ده ساعات من بجاحتهم بيقعدوا يتكلموا على اصحاب العزا ويحسبولهم ورثوا أد إيه وهيعملوا إيه باللي ورثوه

أطلق زفرة حانقة: الناس مبتتعظش حتى من الموت يا داليدا .. مع أنه أكبر عظة ..

في ناس بتدفن أقرب الناس ليها وترجع تتخانق عالدهب والفلوس والورث

ثم أدار رأسه ناظراً إليها وغمامة الحزن تظلل نظراته: وبعدين اللي كانت تخصني في الليلة دي راحت خلاص .. انتي مش حاسة أد إيه كلهم اتغيروا .. أو يمكن أنا اللي بقيت حساس علشان مبقتش عايش وسطهم .. كل اللي اعرفه إني بقيت أسافر وارجع ألاقيهم بقوا ناس تانية غير اللي كنت أعرفهم ومعاشرهم .. كل سنة المسافات بيننا كانت بتكبر وكانوا بيبعدوا أكتر عن السنة اللي قبلها .. لحد مبقيت غريب وسطهم .. غربتي مبقتش في بعدي عنهم دي بقت بتزيد أكتر لما ببقى وسطهم .. الوحيدة اللي عمري محسيت أنها بتتغير أو ممكن كانت تتغير هي أمي الله يرحمها.

نظرت إليه بأسى: أنا آسفة يا عمر مش عارفة أقولك إيه

أشاح بوجهه وهو يحاول التسرية عن نفسه: يا ستي .. كلنا هنموت .. الله يرحمها اهي ارتاحت منهم ومن مشاكلهم

ثم أدار وجهه باتجاهها وقد استعاد القليل من مرحه السابق: مقولتليش على فين العزم يا ست هانم؟

ارتسم تعبير جاد على وجهها: على الفيلا

شعر بغصة في حلقه فقد أثار ذلك في نفسه ذكريات هو في أمس الحاجة في تلك اللحظة إلى أن ينحيها أبعد ما يكون عن مخيلته فأعاد عليها السؤال بصيغة أخرى وهو يرغب أن يكون مقصدها مختلف: بيت باباكي؟

أومأت برأسها وهي تقول بحزم: فيلا عاصم فريد

لم يرغب في مراجعتها مرة أخرى أو حتى في معرفة الأسباب التي قد تدفع بها وهي في هذه الحالة الصحية السيئة لترك ابنها الوحيد والتحامل على نفسها في هذه الساعة المبكرة من أجل رؤية والدها الذي على حد علمه قد تنامت بينهما القطيعة منذ سنوات، التمس في صمتها شعوراً بعدم الرغبة في الحديث عن سبب تلك الزيارة كما أنه أشفق على حالتها الصحية ففضل الالتزام بالصمت هو الآخر من أجل منحها فرصة للاسترخاء لأجل الراحة.

عندما بلغا وجهتهما المنشودة ربت على كتفها يوقظها برفق فلقد استسلمت

للنعاس رغماً عن إرادتها وكأن أجفانها قد حرمت منه لأسابيع، انتفضت مفزوعة فأخذ يهدئ من روعها ثم سألها إن كانت ترغب في أن يصحبها إلى الداخل، تنفس الصعداء عندما نفت له رغبتها في ذلك فهو لا يتمنى أن يستعيد ذكريات مأساة حياته بزيارة أخرى لمسرح الجريمة التي ارتكبت بحقهما، رجاها ألا تنفعل وألا تجعله ينتظرها كثيراً حتى لا يثير ذلك قلقه.

أخذت نفساً عميقاً بينما تعبر ردهة المنزل بعد أن رحب بها الخادم الذي فتح لها الأبواب فوجدت زوجة أبيها كما هي على نفس الحال التي تركتها عليه منذ سنوات وقد قامت تستقبلها بزينتها المبالغ فيها والتي لا تتناسب مع أجواء الصباح هذه واصطنعت ترحاباً مفتعلاً لرؤيتها لكن لم تستطع أن تبدد برودة مشاعرها وهي تتصنع الاهتمام بسؤالها إن كانت قد أصيبت في حادث أو أصابها مكروهاً.

شعرت بغثيان شديد لمرآها فقد تذكرت رؤيتها لها في أحضان رجل آخر وعدم نكرانها لذلك بل وتباهيها بخيانتها تلك فلم ترد عليها التحية وتجاهلت استفسارها عن أحوالها وسألتها باقتضاب عن والدها فوجدتها تشير إليها بالجلوس حتى تأمر أحد الخدم بإخباره أنها بانتظاره فهو لا يغادر غرفته على الإطلاق إلا إذا قام أحد باستدعائه حتى الطعام يتناوله وحيداً بغرفته.

تجاهلت طلبها لها بالانتظار وأسرعت باتجاه السلم المؤدي إلى الطابق العلوي وهي تخبرها أنها ستصعد إليه فوجدتها لا تبالي لأمرهما هما الاثنين وتعود إلى الأريكة لمطالعة شاشة الهاتف بيدها كما كانت وقت أن اقتحمت عليها خلوتها. وقفت بباب غرفته وقد شعرت بالخوف الشديد للدرجة التي جعلتها على وشك التراجع عن خوض هذه المواجهة الغير مرغوب فيها على الإطلاق وباتت تتذكر لحظات من طفولتها وصباها كان هو شريكاً لها في كل أوقات مرحها وسعادتها، تذكرت حنانه عليها واحتوائه لها وضمه إياها في أحضانه لكنها عادت وتذكرت وجه أمها في اللحظات التي سبقت مقتلها وتذكرت صوت طبيبها وهو يؤكد عليها بضرورة تلقي الرسالة وطالما تلقتها فيجب عليها أن تستكمل مهمتها.

طرقت الباب في عجل فأتاها صوته، مدت رأسها إلى الداخل في حذر قبل أن تهاجم أنفها رائحة نفاذة، خليط من السجائر والعرق والخمر فدلفت وقد أصابها اشمئزازاً شديداً من تلك الرائحة، وجدته يصعق لرؤياها التي لم يكن يتوقعها على الإطلاق وينتفض من على مقعده الجلدي الوثير ثم ينقل نظراته ما بين مظهرها الغريب برداء المنزل والسترة البنية التي وضعتها على أكتافها وما بين تلك العصابة التي أحاطت رأسها: أهلاً داليدا .. إيه مالك .. انتي عملتي حادثة ولا إيه؟

تجاهلت سؤاله هو الآخر ومحاولته إخفاء رعشة يديه الملحوظة والتي فسرت لها عزوفه عن المشاركة في أية أعمال فنية في السنوات الأخيرة، لمح نظرتها إلى كفيه اللذان أصابهما الشلل الرعاش في مقتل فوضعهما في جيبي رداءه المخملي وكأنه يحتمي بهما ليخفيا أمر مرضه عن الجميع وعاد إلى سابق جلسته بمقعده الوثير يلوذ به من نظراتها التي تعري حقيقة عجزه أمامها.

رنت ببصرها إلى الطاولة المجاورة لمقعده فوجدتها وقد تراصت عليها العديد من الأدوية والعقاقير الخاصة بالأعصاب، شعرت أن بعضهم مألوفاً لديها فقد سبق لها وأن اعتادت تناولها في فترة مرضها النفسي السابق، لم تستطع أن تخفي شبح ابتسامة شامتة لاح على شفتيها عندما اقتربت من تلك الطاولة ووجدت العديد من المهدئات والمنومات ومضادات الاكتئاب فوجدته يصيح بها في انفعال مستفسراً عن سبب زيارتها.

اقتربت منه وثبتت أنظارها على عينيه اللتان باتت نظراتهما شاردة ومرتعشة أمام ثبات عينيها ثم خفضت نبرة صوتها وهي تسأله في تشف واضح: هي لسه بتجيلك في كوابيسك؟

غاص في مقعده للوراء وكأنه يستجدي منه حماية وهو يتساءل في لهجة حاول أن تبدو هادئة قدر الإمكان: قصدك مين؟؟

ابتسمت بسخرية وهي تقول بلهجة ذات مغزى: أسمى يا عاصم

تراجع للوراء مصعوقاً فاقتربت منه مرة أخرى ونظرت إليه وغضب الدنيا يطل من عينيها وقبل أن يستوعب الأمر سألته في حدة: قتلتها ليه؟؟؟

رفع رأسه إلى الأعلى وكأنه يخشى الاختناق من فرط اقترابها منه وقال بصوت مرتعش: مقتلتهاش!!

ابتعدت عن مجال تنفسه وهي تطلق ضحكة مفتعلة أعقبتها بالقول: انت هتمثل عليا انا كمان زي ممثلت على الناس كلها وقتها

ثم أخذت تصفق بطريقة مسرحية: بس برافو .. كلنا اقتنعنا وقتها إنك يا حرام الزوج المصدوم اللي مراته انتحرت فجأة وسابته

ثم اقتربت منه مرة أخرى وهي تقول بلهجة مخيفة: بس عارف انت شاطر أوي في

التمثيل .. كان لازم بعد التمثيلية العظيمة دي تستغل موهبتك المدفونة وتسيب الإخراج .. كان لازم بعد أدائك الجبار ده تاخد جايزة أوسكار أحسن ممثل في مصر

بدأ يرتجف وهو يقول بتأثر: أنا مقتلتهاش .. هيا اللي وقعت غصب عني .. أنا مكنش قصدي

ابتعدت عنه من جديد بعد أن دمعت عيناها قائلة بانفعال: لو مكنش قصدك بجد مكنتش لميت الأكل اللي كنتو بتاكلوه سوا ورميته في الزبالة وخدت الزبالة ورميتها بعيد ونزلت تجري على السوبر ماركت تشتري منه أي حاجة علشان لما تقرب من البيت وتلاقي الناس ملمومة حواليها في الشارع ترمي الحاجة اللي في إيدك وتنهار كأنك اتصدمت لما اتفاجئت بيها منتحرة

هم بفتح فمه للدفاع عن نفسه فوضعت أصبعها أمام شفتيها وقد أغمضت عينيها في ألم لتمنع المزيد من الدموع: هششششش .. أياً كان اللي هتقوله .. مش هيغير حاجة من اللي حصلت ولا هيرجع اللي راح

ثم فتحت عينيها ونقلت أنظارها ما بين كفيه اللتين لا يزال حريصاً على إخفائهما في طي ردائه وما بين الأدوية المتراصة بجواره ثم قالت في لهجة تقطر شماتة: عموماً ربنا انتقملها وخدلها حقها منك تالت ومتلت

ثم اقتربت منه مرة أخرى قائلة بتشف واضح: ولسه عندي ليك مفاجأة فظيعة

ثم مالت على أذنه تقول بشماتة: يوسف مش ابنك .. انت مبتخلفش من بعد الحادثة!!

واعتدلت وهي تكمل من خلال ابتسامتها العريضة: واحتمال كبير يكون يحيى كمان مش ابنك!!

ثم أكملت: أصل اللي خان لازم يتخان واللي غدر لازم ربنا يبعتله اللي يغدر بيه .. ربنا سبحانه وتعالى من أسماءه الحق والعدل .. وحق ربنا وعدله إنك زي مخنتها وغدرت بيها كان لازم ييجي يوم وتدوق من نفس الكاس اللي انت سقيتها منه .. كان نفسي اتعاطف معاك أو حتى تصعب عليا بس صدقني بجد مش قادرة أمنع الفرحة عن نفسي .. أصل ذنب ناس لازم يخلصوه ناس تانية ..

.. كده بأه احنا خالصين ..

انسحبت باتجاه باب الغرفة: أبقى سلملي على مدام فريال ولو مرضيتش تقولك أبو الولاد يبقى مين أبقى كلمني وانا اقولك .. أنا ممكن أحرقلك المفاجأة .. بس كفاية عليك أوي اللي عرفته لحد دلوقتي

عبرت ردهة المنزل بأقصى سرعة قبل أن تحدث المواجهة التي تتوق لمشاهدتها لكن ابنها أولى بوقتها من تصفية حساب بين شخصين لا يستحقا إلا بعضهما البعض كعقاب لكليهما

اتسعت ابتسامته حين وجدها تقترب منه متهللة الأسارير وقد أشرق وجهها وانتفت عنه كل مظاهر الإعياء التي كانت بادية عليه، فتحت باب السيارة وركبت إلى جواره فوجدته لا زال يتأملها والفضول يقتله ليعرف سبب التغير الملحوظ البادي على ملامحها لكنه كان قد أخذ عهداً على نفسه من قبل أن المنطقة التي تخص والدها ووالدتها المتوفاة هي منطقة شائكة في حياتها ولا يجوز التدخل فيها بأي حال من الأحوال لذا عندما وجدها تستفيق من الغيبوبة وتصيح أن والدتها لم تنتحر لم يرغب في الخوض في أية تفاصيل تتعلق بهذا الأمر حتى ولو كان مجرد حلم ورد إلى خاطرها أثناء غيبوبتها فطالما حرمت عليه وعلى نفسها الحديث عن هذه المنطقة من حياتها فلا يجوز له خرق هذا الاتفاق تحت وطأة أي ظرف.

-إيه .. الجاكيت هياكل مني حتة .. صح؟

استفاق من أفكاره على صوتها تلقي عليه هذا السؤال في مرح لما وجدته يحدق بها وقد أطال النظر إليها فبادلها المرح بدوره: عالمستشفى .. ولا لسه عند سيادتك مشاوير تانية؟

هزت رأسها نافية: وديني لكريم بسرعة

***

لم تتمالك نفسها حين وجدته يجلس مستنداً إلى ظهر الفراش بينما تعاونه مربيته على تناول الحساء، لم ترى عينيه مفتوحتان منذ أن دلفت إلى هذه المستشفى بأقدامها، اندفعت تحتضنه في شوق وتمطره بالقبلات ودموعها لا تتوقف ولو للحظة واحدة وأخذت تتمتم بحمد الله على رؤيته سالماً مرة أخرى، ثم نظرت إليه والسعادة تقفز من عينيها: شوف يا كريم أنا خدت أجازه من الشغل وهاخدك ونسافر أنا وانت وبس وندي لدادة أم شادي أجازه علشان ترتاح شوية هيا تعبت معانا أوي الفترة دي .. أنا وانت هنتفسح فسح كتيرة ونتبسط عالآخر وهخليك

لحد متكبر وتبقى راجل كبير وعجوز تحلف بالسفرية دي.

كانت تداعبه في تلك الأثناء فملأت ضحكاته البريئة محيط الغرفة وانتقلت عدوى السعادة المنطلقة من حوارهما إلى كل من حولهما، كانت إحدى الممرضات قد أتت لتتابع حالتيهما وكان عمر لا يزال يقف يراقب مظاهر السعادة التي غمرت كليهما عندما التفت كريم باتجاهه وهو يسأله في براءة: انت الدكتور؟

ابتسم عمر: لا يا سيدي .. أنا مش الدكتور .. تقدر تعتبرني صاحبك .. ممكن تقولي يا عمر .. ممكن كمان تقولي يا باب.....

اندفعت تجذبه من ذراعه إلى الخارج قبل أن يكمل جملته وهي تنظر إلى ابنها في قلق وتخبره أنها ستعود إليه في غضون دقائق.

أحكمت اغلاق الباب خلفها ثم التفتت تنظر إليه محاولة أن ترتب كلماتها حتى قالت في النهاية: مينفعش يا عمر!!

عقد حاجبيه: هوا إيه اللي مينفعش يا داليدا !!

عقدت ذراعيها أمامها وهي تتحاشى مواجهة نظراته: مينفعش يا عمر .. اللي انت بتفكر فيه ده مش هينفع

أراد أن يتحدث فوجد صوته يختنق داخله فأخذ نفساً عميقاً من الهواء حوله وهو يقول بنفاذ صبر: وإيه اللي يخليه مينفعش يا داليدا؟

استمرت في مراوغة نظراته: كده أحسن يا عمر .. أنا حابة أكمل لوحدي

اصطك أسنانه ببعضهما: ليه .. تكملي لوحدك ليه .. دا نتي أكتر حاجة عملتلك مشاكل في حياتك إنك كنتي على طول لوحدك .. وبعدين لو كريم هو حجتك .. فانا متأكد أني هعرف أحبه كويس .. لأنه حتة منك وأي حاجة منك أنا بعشقها مش بس بحبها وانا واثق إني هخليه يحبني .. وبعدين انتي مش هتعرفي تربيه لوحدك .. ابنك محتاج أب

واجهت نظراته لأول مرة قائلة بثبات: وبنتك برضه محتاجة أب .. ولو كده هيا أولى بأبوها من أي حد تاني

ظهر على وجهه عدم الاقتناع وعقد ذراعيه معترضاً: آآآآه .. هيا الحكاية كده ..

موضوعي أنا وإيناس انتهى وبغض النظر عن ظهورك في حياتي هوا أصلاً كان .....

قاطعته قبل أن يخوض في منطقة لم تقصد أن تدفع بالحوار في اتجاهها: يا عمر انت فهمتني غلط ورفضي ليك مش علشان إيناس ولا علشان ظروفك .. رفضي للمبدأ نفسه مش لشخص بعينه

عقد حاجبيه: مش فاهم !!

تنهدت في ضيق: أنا عشت حياتي كلها في صراعات ومتهيألي استحق شوية راحة .. أي ارتباط من أي نوع هيبقى نوع من أنواع الصراع فما بالك لو الارتباط ده بيك انت شخصيا بكل الظروف اللي مرينا بيها احنا الاتنين واحنا مع بعض وبعد مسيبنا بعض .. أنا اتجوزت قبل كده وعارفة أد إيه الجواز مرهق نفسياً ولو الجواز ده في أطراف تانية غير الزوج والزوجة هيبقى الموضوع مرهق أكتر واكتر .. الجواز في حد ذاته ضغط نفسي وانا عانيت من ضغوطات نفسية وعصبية طول حياتي تقريباً .. أنا حابة أكمل اللي باقيلي من عمري لوحدي أنا وابني وبس .. بعيد عن أي ضغط نفسي من أي نوع .. وجود راجل في حياتي أنا واثقة أنه مش هيخليني مرتاحة يمكن هبقى سعيدة بس مش هبقى مرتاحة وانا وصلت لمرحلة عمرية الراحة فيها بقت أهم بالنسبالي ألف مرة من السعادة

كان الغضب يمتزج بالصدمة ويصنعا على وجهه تعبيراً مخيفاً جعلها تتفادى النظر في عينيه وهي تخفض عيناها أرضاً وتقول بتأثر: أنا آسفة بجد يا عمر .. أنا مكنتش أحب إن أنا أو إنت نتحط في الموقف ده تاني

أمسك بذراعها وأحكم قبضته فوجد ملامحها تتقلص فبادر بتخفيف إحكام قبضته وظل ملتزماً الصمت ثم سحب نفساً عميقاً من الهواء وأخرجه دفعة واحدة ليرتسم على وجهه الارتياح النسبي فترك ذراعها ليرفع طرف ذقنها بطرفي سبابته وإبهامه وأخذ يتأمل عينيها قبل أن يتركها فجأة وينسحب إلى الخارج في سرعة فاستوقفته: عمر .. الجاكيت بتاعك

قالتها وقد همت أن تخلعه عنها فعاد مسرعاً ليكفها عن ذلك بإعادته إلى كتفيها مرة أخرى ثم ابتسم ابتسامة عريضة: خليه معاكي .. بس خليكي فاكرة إنك وعدتيني إنك هترجعهولي في يوم من الأيام وانا واثق إنك هتنفذي وعدك

ثم اقترب منها قائلاً بإصرار: براحتك .. قولي اللي تقوليه .. أنا عمري مهبطل .. لا هبطل أحبك .. ولا هبطل أحاول

نظرت إليه بتحدي: وانا واثقة من قراري يا عمر

ابتسم: وانا برضه واثق إن احنا هنلف لفتنا وفي الآخر هنبقى لبعض

ثم نظر إلى عينيها بعمق قائلاً بثقة: خليكي فاكرة الكلام ده كويس علشان أنا متأكد إن هييجي علينا يوم هنفتكره تاني .. بس واحنا مع بعض

خشت أن تهتز ثقتها أمام ثقته المفرطة فانسحبت من أمامه وعادت أدراجها إلى داخل الغرفة ، كانت تهم بإغلاق الباب عندما ظهر أمامها من جديد فاستوقفتها نظرة عينيه الثابتة وجمدتها بمكانها فدفع الباب من جانبه قليلاً وعيناه مازالت متعلقة بعينيها قائلاً بهدوء: داليدا .. متقفليش الباب .. أرجوكي سيبيه موارب.

***

أحكمت الغطاء من حول جسده وطبعت قبلات حانية على وجنتيه بعد أن تأكدت أنه قد غط في النوم رغم مقاومته التي انهارت بنهاية الأمر تحت إمرة حدوتة المساء التي طغت على صراعه مع النعاس وحسمت ذلك الصراع في النهاية لصالح النوم، أطفأت الأنوار وانسحبت بهدوء ممنية نفسها بقدرٍ من السلام النفسي في أعماق المياه الدافئة.

أخذت تتأمل معالم البيت في شوق وهي تشعر أن أرجاء البيت تبادلها ذات الشوق أضعافاً، من قال إن الأماكن لا تحن إلى أصحابها كما يحن أصحابها إليها، هي تشعر بذلك بالفعل؛ صحيح أنها لم تتغيب عن المنزل سوى أياماً معدودات لكنها تشعر أن جنباته قد افتقدتها كثيراً خلالهم.

دفنت رأسها تحت سطح الماء وهي تستسلم لدفيء جزيئاته وروحها تتحرر من كافة أعباءها وتناقضات مشاعرها وصراعاتها.

قد تندم لاحقاً، وقد لا تندم

الشيء الأهم والمؤكد أنها ليست بنادمة الآن

قد تشعر بمرارة الندم فيما بعد وقد لا تشعر

طالما ليست نادمة الآن فلا يهم ما هو قادم

هكذا صرحت لنفسها وهي تعيد تقييم موقفها وقراراتها بخصوص عمر، ربما ستصبح سعيدة معه لكنها ستكون ضعيفة، الحب ضعف لأنه احتياج دائم لوجود من نحب؛ وتجارب حياتها المريرة قد أكسبتها من القوة ما يجعلها ترتقي عن ذلك الاحتياج، تستفزها بشدة فكرة ربط السعادة بوجود آخر في حياتنا فقد ترسخت تلك الفكرة في أنفسنا وعقولنا منذ الصغر، فسندريلا لم تتخلص من شرور زوجة أبيها وابنتيها إلا بظهور الأمير وارتباطها به وسنوواويت لم تتخلص من سحر زوجة أبيها الملكة إلا بعد أن حررها الأمير منه بقبلة من شفتيه، أيضاً الأميرة بطلة أسطورة الجمال النائم لم تكن لتتخلص من آثار اللعنة التي أبقتها نائمة لمائة عام لولا قبلة الأمير فيليب التي أعادتها للحياة مرة أخرى، وغيرها من مئات القصص والأفلام التي أثرت مخيلتنا منذ الصغر ورسخت لدينا الفكرة بضرورة وجود «هو» في حياة كل «هي» حتى تستطيع أن تتنفس نسائم الحياة.

لقد قبلت تحدي عمر رغم إيقانها بصعوبته لا لشيء إلا لخبرتها به ومعرفتها أنه لن يهدئ له بال حتى يهزم تحديها له لكنها تتحدى نفسها قبل أن تتحداه، تتحدى كل المتعارف عليه وكل الأمور المقبولة والمعتادة، فهي لم تكذبه حين أخبرته أنها فعلاً في احتياج شديد للراحة النفسية أكثر من احتياجها للسعادة ويكفيها السعادة التي ستراها في أعين ابنها حين تكرس له كل حياتها وأوقاتها وتعوضه عن غياب أبيه بأن تكون له كما طلبت منها الاستشارية النفسية؛ أباً وأماً وجداً وجدة وعائلة كاملة مكتملة الأفراد.

قاطعت أفكارها طرقاته بالباب فارتفع صوتها حازماً: إيه يا كريم اللي صحاك تاني؟؟!!

وجدته يهتف بمرح: ممكن بس تفتحي أوريكي حاجة وهدخل أنام على طول

فارقت أحضان المياه الدافئة مرغمة وحاولت أن تخمد ضيقها من مقاطعته خلوتها بنفسها بهذه الطريقة ففتحت له الباب بعد أن أسدلت على جسدها رداء الاستحمام القطني الذي سيتولى مهمة امتصاص قطرات المياه العالقة به.

-مامي مش هتصدقي بجد!!

عقدت ذراعيها أمامها قائلة: إيه يا كريم .. قول يا حبيبي

-مس جريت .. قالتلي انها بتحبني وان أنا وهيا هنبقى أصحاب على طول

ثم أكمل بحماس شديد: كمان رسمتلي الصورة دي ليا أنا وانتي مع بعض وقالتلي أوريهالك

كان يقفز بسعادة وهو يحرك يده المخبأة خلف ظهره إلى الأمام وما لبث أن فض اللفافة المطوية بها، عقدت حاجبيها حين وجدت الورقة البيضاء تنفرد أمامها حاملة رسماً منمقاً واضح المعالم بالقلم الرصاص لكليهما سوياً، خفق قلبها فزعاً وأدارت عينيها باتجاهه وقد وجد القلق طريقه إلى أعماقها من جديد، حاولت السيطرة على دموع خوفها ونظرت إلى عينيه تتلمس من حبه لها بعض الطمأنينة لقلبها، حين رأت انعكاس صورتها على سطح الغشاء الشفاف لقرنيته الصغيرة لم تكن وحدها، كانت هناك؛ خلفها تماماً؛ تحدق بها .....

***

تمت بحمد الله

سارة العبادي

فبراير ٢٠١٧

شكر خاص

أتقدم بخالص الشكر لأختي الوحيدة وصديقتي الأقرب إلى نفسي هاجر العبادي فلولا آرائها السديدة ومشورتها الخالصة ما خرج إليكم هذا العمل على هذا النحو

وأشكر كل من أمدني بالدعم المعنوي الرائع وبالكلمات الإيجابية التي كنت في أمس الحاجة إليها من عائلتي وأصدقائي وزملائي حتى أستطيع أن أواصل ما بدأته وأستكمل خطواتي التي كادت أن تتعثر وأخرج إليكم بروايتي هذه

شكراً

سارة

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail.com

Facebook .Com/Fasla .Pub